
كتابى
الجزء الثانى
مدام بوفارى
جوستاف
فلوبير
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد



مدام بوفارى

جوستاف فلوبير

الجزء الثانى

الفصل التاسع

● انقضت ستة أسابيع ، دون أن يأتى « رودولف » ثانية .. ثم ظهر أخيرا فى إحدى الأمسيات . كان قد قال لنفسه غداة المعرض : « ما ينبغى أن أعود سريعا ، فهذا خطأ »!.. وفى نهاية الأسبوع خرج للصيد ، وخطر له بعد الصـــيد أن الوقت قد تأخر ، بحيث لا يليق أن يذهب .. ثم عاد فراود نفسه قائلا : « لكنها إذا كانت قد أحبتنى منذ اليوم الأول ، فلسوف يزيدها وجدا تلهفها إلى رؤيتى . فلنمض اذن ! » .

وأدرك أن ما توقعه كان صحيحا ، حين لمح وجه « إيما » يشحب لدى دخوله الحجرة ! .. كانت وحيدة ، والنهـــار يحتضر .. وقد ضاعفت الستائر الحـــريرية الصـــغيرة — المحاذية لطول زجاج النافذة — من لون الشفق . وكان بريق « البارومتر » ، الذى سقط عليه شعاع من الشمس ، ينعكس على المرآة بين حزمتين من المرجان . وظل « رودولف » واقفا ، بينما ردت « إيما » فى عناء عبارات التحية الأولى .. قال : « كانت لدى أعمال .. وكنت مريضا » ، فهتفت : « بدرجـــة خطيرة ؟ » .. فقـــال وهو يجلس على مقعـــد منخفض إلى جوارها : « حسنا ! .. لا ! .. إنما كان غيابى لأننى لم أشأ أن آتى » .. وتساءلت : « لـــماذا ؟ » ، فســـألها بدوره : « ألا تحدسين ؟ » .

ورمقها مرة أخرى ، لكن نظرته كانت حادة ، فنكست رأسها ، وتضرج وجهها ، بينما عـــاد يقول : « إيمـــا ! » .. فتراجعت قليلا ، قائلة : « سيدى .. » .. فقال فى صـــوت

حزين « آه ! .. ها أنتذى ترين أننى كنت محقا فى عزوفى عن المجىء .. فأنت تحرمين على هذا الاسم .. الاسم الذى يملأ نفسى ، والذى أفلت من لسانى ! .. مدأى بوفـــارى ! .. آه ! .. كل الدنيا تدعوك هكذا ! .. ثم أنه ليس اسمك ، وإنما هو اسم شخص آخر ! » .. وعاد يردد : « شخص آخر! ».. ثم أخفى وجهه فى راحتيه ، وهو يستطرد : «أجل، أننى أفكر فيك باستمرار ! .. ذكراك تدفعنى للقنوط ! آه ، معذرة ! .. لسوف أتركك .. وداعا ! .. سأبتعد .. سأذهب إلى حيث لا تسمعين عنى ! .. على أننى اليـــوم لا أدرى — بعد — أية قوة دفعتنى إليك ! .. فإن المرء لا يستطيع أن يناضل السماء ، أو يقوى على مقاومة ابتسامة الملائكة ! .. إنما ينساق الإنسان لما هو جميل ، فاتن ، حبيب ! » .

كانت هذه أول مرة تسمع فيها «إيما» مثل هذه الأقوال، فتمطى زهوها إلى أقصاه ، فى رفق ، كشخص يســـتمرىء حماما دافئا .. بينما استأنف الشاب حديثه : « .. بيد أنى إذا كنت لم آت .. إذا لم أملك أن أراك ، فإنى .. آه ! .. كنت على الأقل أتأمل ما يحيط بك مليا .. كنت أنهض فى الليل — كل ليلة — وآتى إلى هنا ، فأتأمل دارك . والسقف المتألق تحت القمر، وأشجار الحديقة التى كانت تتمايل أمام نافذتك .. ومصباحا صغيرا ، وميضا كان يلمع خلال زجاج النافذة ، فى الظلام .. آه ! أنك ما عرفت قط أن ثمة تعسا مســـكينا كان قريبا منك ، بقدر ما كان بعيدا ! » .

فالتفتت إليه دامعة ، وهتفت: «أواه ! .. أنك طيب!».

— لا ، بل أنا أحبك ، وهـــذا غاية ما فى الأمر ! .. أنك

لا ترتابين فى هذا ! .. انبئينى .. بكلمة .. كلمة واحدة !

وانزلق « رودولف » — دون أن يعى — عن المقعد إلى الارض ، لولا ان سمع وقع نعلين خشبيين فى المطبخ ، ولاحظ ان باب القاعة لم يكن مغلقا ، فاستطرد وهو ينهض : « كم تكونين كريمة إذا انت حققت نزوة لدى ! » .. تلك هى ان يجوس خلال دارها ، إذ ود ان يتعرف عليها ، وإذ لم تر مدام « بوفارى » حرجا فى ذلك ، نهضا معا .. بينما دخل « شارل » فقال له رودولف : « عم صباحا يا دكتور » .. واغتر الطبيب بهذا اللقب الذى لم يكن يرتقبه من ضيفه ، فانطلق يرد التحية فى عبارات تنم عن الارتياح .. واستغل الآخر الفرصة ليتمالك نفسه بعض الشىء ، ثم قال : « لقد طمأنتنى السيدة عن صحتها .. » .

فقطع عليه « شارل » الحديث .. بالعكس ، ان لديه الف هاجس وهاجس فى الواقع ، فلقد عاد إليها ضيق التنفس، و .. وإذ ذاك ساله « رودولف » عما إذا كانت النزهة على الجواد تنفعها ، فهتف : « بالتأكيد ! .. رائعة ! .. عين ما ينبغى !.. يا لها من فكرة !.. خليق بك ان تأخذى بها».. وإذ تعللت « ايما » بأن ليس لديها جواد ، عرض السيد رودولف ان يقدم لها جوادا ، فرفضت عرضه .. ولم يصر.. ثم قال تبريرا لزيارته ، ان حوذيه — الرجل الذى اجريت له الحجامة — لا يزال يعانى من الدوار .. فقال « بوفارى » : « ساعوده ! » .

— لا ، لا .. ساوفده إليك .. سنأتى ، فهذا ادعى لراحتك .

— آه .. حسن جدا .. اشكرك .

* * *

● وما إن اصبحا على انفراد، حتى سأل شارل زوجته: « لم لا تقبلين العرض الذى تكرم به السيد بولانجيه ؟ » .. فابدت إعراضا ، وانتحلت الف عذر ، ثم أعلنت فى النهاية ان الأمر قد يبدو غريبا .. فقال وهو يدور حول نفسه : « آه !.. لست احفل ! .. الصحة قبل كل شىء ! .. انك مخطئة !».. فقالت : « آه ! .. وكيف تريدنى على ان اركب جوادا ، وليس لدى زى الركوب ! » .. فأجاب : « يجب ان تطلبى زيا ! » .

وكان هذا فصل الخطاب .. فلما اعد، كتب « شارل » إلى السيد « بولانجيه » أن زوجته رهن اشارته ، وأنه يكلها إلى رعايته . ووصل « رودولف » امام باب « شارل » فى ظهر اليوم التالى ، مع جوادين مسرجين ، حمل احدهما حول اذنيه ورودا من الصوف الوردى اللون ، وكان سرجه نسويا من جلد الوعل .

وكان « رودولف » قد ارتدى حذاءين طويلين من الجلد الطرى ، محدثا نفسه بأن « ايما » ولا شك لم تر شيئا مثلهما قط . وفعلا ، فتنت بمظهره حين ظهر فى أسفل السلم فى حلته المخملية الواسعة ، وسرواله المصنوع من الصوف الأبيض المنسوج باليد . وكانت متأهبة ، فى انتظاره ، وتسلل « جوستان » من الصيدلية ليراها ، كما قطع الصيدلى عمله وجاء يوصى السيد بولانجيه : « ان الحوادث تقع فجاة ، فخذ حذرك .. ربما كان جواداك شديدى الاندفاع ! » .

وسمعت « ايما » ضجة منبعثة من اعلى ، فإذا

« فيليسيتيه » تنقر زجاج النافذة لتلهى « بيرت » الصغيرة . وأرسلت لها الطفلة قبلة على البعد ، فردت عليها الأم ملوحة بمقبض سوطها .. وصاح السيد « هوميه » : « نزهة طيبة ! .. الزما الحكمة والروية ، قبل كل شيء ! .. الحكمة والروية ! » .. واخذ يلوح بصحيفته وهو يرقبهما يبتعدان . وما إن دق حصان « ايما » الأرض بحوافره ، حتى انطلق راكضا بها ، فركض « رودولف » إلى جوارها .. وصارا يتبادلان حديثا بين لحظة واخرى ، ثم استغرقت ايما فى الصمت ، منساقة لايقاع الحركة التى كانت تؤرجحها فى سرجها ، وقد مالت قامتها إلى الامام قليلا ، وارتفعت يدها ، وانبسطت ذراعها اليمنى .. وعند اسفل السفح ، ارخى « رودولف » العنان لجواده ، فانطلق الجوادان فى وثبة واحدة . وما لبثا إذ بلغا القمة ، ان وقفا فجأة ، فسقط القناع الأزرق عن وجه « ايما » .. وكان شهر اكتوبر فى ايامه الأولى ، وثمة ضباب يرين فوق الأرض ، والسحب تنتشر عند الأفق ، حول التلال ، بينما تفككت سحب اخرى ، واخذت تطفو متباعدة ثم تختفى .. وكان المرء يلمح فى بعض الأحيان خلال ثغرة فى السحب ، تحت شعاع من ضوء الشمس ، سقوف بلدة (ايونفيل) والحدائق الممتدة على حافة الماء ، والساحات ، والجدران ، وبرج الكنيسة . وزمت « ايما » عينيها لتستبين دارها ، ولم تكن هذه القرية البائسة — التى عاشت فيها — قد تراءت لها قط من قبل صغيرة إلى هذا الحد ، ومن الارتفاع الذى كانا عليه ، بدا الوادى بأسره كبحيرة هائلة باهتة اللون ، تتصاعد بخارا فى الهواء .. وكانت مجموعات الشجر المتناثرة

هنا وهناك تظهر كصخور سوداء ، وصفوف الأشجار السامقة — التى كانت تبرز خلال الضباب — تلوح كساحل رملى تذروه الرياح .

وكان ثمة ضوء بنى يتذبذب فى الجو الدافىء ، وعلى الاعشاب ، بين أشجار الصنوبر القائمة جانبا .. وكانت التربة تكتم وقع الخطى ، وقد بدت فى صفرة متوردة كمسحوق التبغ .. واخذ الجوادان — فى سيرهما — يضربان بحوافر سنابكهما اقماع الصنوبر المتساقطة امامهما .. وهكذا مضى « رودولف » و « ايما » يتبعان حافة الغابة ، وهى تشيح بوجهها من آن لآخر لتتفادى نظراته ، بحيث لم تكن ترى إذ ذاك سوى جذوع اشجار الصنوبر المتراصة فى صفوف كان تتابعها الرتيب يسبب لها شيئا من الدوار .. وراح الجوادان يلهثان ، وجلد السرجين يحدث صريفا .. وفى اللحظة التى ولجا فيها الغابة ، بزغت الشمس ، فقال « رودولف » : « إن الله يرعانا ! » .. فسألته : « اتظن ذلك ؟ » ، فواصل الحديث قائلا : « لنتقدم ! لنتقدم ! » .. وشقشق بلسانه فاندفع الجوادان يجريان ، وعيدان نبات السرخس النامية على جانب الطرق تعلق بركاب « ايما » فينحنى « رودولف » ويزيلها وهما ماضيان .. وكان فى فترات أخرى يمر جد قريب منها ليزيح الأغصان ، فتحس «إيما» بركبته تحتك بساقها .. وكانت السماء قد غدت زرقاء ، ولم تعد أوراق الشجر تهتز .. ومرا بمساحات مليئة بزهور نبات « الخلنج » ، وبقاع حفلت بزهور البنفسج ، تتخلل رقاعا ازدحمت بالأشجار المتشابكة التى كانت ذات لون رمادى مصفر ، او لون ذهبى ، تبعا لتباين

أوراقها . وكثيرا ما كان يسمع فى الأدغال حفيف خفيف صادر عن جناحين ، أو صيحة أجشة خافتة منبعثة عن غراب يحلق بين شجر البلوط .

* * *

● وترجلا ، فربط « رودولف » الجوادين ، بينما تقدمت « ايما » سائرة على العشب بين دربين .. بيد أن ثوبها المفرط الطول راح يعرقل خطاها ، رغم أنها كانت ترفع ذيله ، و « رودولف » يسير خلفها فيلمح بين هذا القماش الأسود والحذاءين الأسودين ، رقة جوربيها الأبيضين اللذين لاحا له كنوع من العرى ! .. ثم توقفت قائلة : « أننى متعبة » ، فقال : « لنمض .. حاولى من جديد .. تجلدى ! » .. وبعد مائة خطوة ، توقفت من جديد ، وخلال نقابها الذى انساب من قبعة الرجال — التى كانت ترتديها — إلى خاصرتيها ، فى انحراف ، كان وجهها يلوح فى شفافية مشوبة بزرقة ، وكأنه يسبح تحت موجات لازوردية .. وتساءلت : « إلى أين ترانا ذاهبين؟ » .. فلم يجب . وتهدجت أنفاسها ، فأجال رودولف بصره فيما حوله ، وعض على شاربيه .

وبلغا بقعة فسيحة ، اجتثت منها الأعشاب والأشجار ، فجلسا على جذع شجرة مجتثة ، وشرع « رودولف » يحدثها عن غرامه .. لم يزعجها فى البداية بالمجاملات والملق ، وإنما كان هادئا ، جادا ، حزينا .. وانصتت « ايما » منكسة الرأس ، وهى تحرك بمقدمة قدمها بعض شظايا الخشب المختلطة بالتراب .. حتى قال : « الم يعد مصيرانا الآن

مشتركين ؟ » ، وإذ ذاك أجابته : « آه ، لا ! .. انك لتعرف هذا تماما .. إنه مستحيل ! » .. ونهضت للانصراف ، فأمسك بمعصمها .. وتوقفت ، ثم قالت متعجلة بعد أن رمقته بضع لحظات بعين عاشقة ، مغرورقة : « آه ! .. لنكف عن الكلام .. أين الجوادان ؟ .. هيا نعد » .. فلوح بيده فى غضب وحنق ، بينما كررت هى : « أين الجوادان ؟ .. أين الجوادان ؟ » .. وما لبث أن تقدم باسطا ذراعيه ، وعلى أساريره ابتسامة غريبة ، وقد جمدت حدقتاه ، وضغط أسنانه .. فتراجعت مرتجفة ، وقالت متلعثمة : « أواه ! .. انك تخيفنى ! .. انك تؤذينى ! .. لنرحل » .. فقال وقد تغيرت أساريره : « إذا لم يكن من الرحيل بد » ! .. وارتد وقورا ، لطيفا ، حييا ، فأسلمته ذراعها ، وعادا ، وهو يقول: « ترى ما الذى دهاك ؟ لماذا ؟ .. أننى لا أفهم .. انك أسأت فهمى ولا ريب .. انك فى فؤادى كعذراء على منصة ، فى مكان رفيع ، منيع ، طاهر . ولكنى لا أطيق أن أعيش بدونك ! إننى فى حاجة إلى عينيك ، إلى صوتك ، إلى فكرك .. الا كونى لى صديقة ، أختا ، ملاكا ! » .. وبسط ذراعه ، فأحاط بها خصرها . وحاولت التملص فى وهن ، لكنه ظل يسندها وهما سائران .. غير أنهما ما لبثا أن سمعا الجوادين يلتهمان أوراق الشجر ، فقال « رودولف » : « آه ! .. لحظة واحدة ! .. ما ينبغى أن نرحل . الا ابقى ! » .

واجتذبها بعيدا ، حول بركة ماء صغيرة ، بسطت أعشاب الماء على أمواجها خضرة .. وكانت زنابق الماء الباهتة تستلقى ساكنة بين أعواد الغاب (البوص) . وقفزت الضفادع

لتختفى عند وقع اقدامهما .. فقالت ايما : « اننى مخطئة ! اننى مخطئة ! اننى حمقاء إذ انصت إليك ! » .

— لماذا يا ايما ؟ .. يا إيما !

فقالت فى بطء وهى تميل على كتفه : « أواه ، يا رودولف ! » .. واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته، فمالت إلى الخلف بعنقها الأبيض ، الذى انتفخ بزفرة.. وفى اضطراب ودموع ، ورعشة طويلة ، حجبت وجهها .. واسلمت نفسها !

وهبطت ظلال المساء ، ومرت الشمس الغاربة بين الأفنان فأعشت عينى « ايما ».. وهنا وهناك — فيما حولها — كانت لمع من الضوء ترتجف بين أوراق الشجر أو على الأرض، وكأنها طيور صداحة نفشت ريشها وهى تحلق.. كان السكون شاملا ، كأنما كان ينبعث من الأشجار شيء عذب . وتحسست المرأة قلبها الذى عاد وجيبه يشتد ، وجرى الدم فى لحمها كجدول من لبن .. وما لبثت ان سمعت من مكان بعيد على التلال الأخرى ، خلف الغابة ، صيحة مبهمة ، طويلة .. صوتا تردد ، فأصغت إليه فى صمت وهو يختلط — كالموسيقى — بآخر نبضات اعصابها المختلجة .. وكان « رودولف » يصلح بسكينه احد العنانين المكسورين ، وسيجاره بين شفتيه .

* * *

● وعادا إلى (ايونفيل) من نفس الطريق التى جاءا فيها ، فرأيا على الوحل آثار اقدام جواديهما، جنبا إلى جنب.. ومرا بعين الأدغال ، وعين الحصى بين العشب .. لم يتغير شيء حولهما ، وإن كان قد حدث — بالنسبة لها — أمر اشد

جسامة مما لو كانت الجبال قد تقلقلت من مواضعها ! .. وكان « رودولف » يميل نحوها ، بين آن وآخر ، فيتناول يدها ليقبلها . كانت فاتنة ، على الجواد ! .. معتدلة ، هيفاء القوام ، وقد انثنت ركبتها على عرف دابتها ، وتورد وجهها قليلا — بتأثير الهواء الطلق — فى حمرة الشفق . حتى إذا ولجا (ايونفيل) ، حولت مدام بوفارى عنان جوادها إلى الطريق المرصوفة ، وتأملها الناس خلال النوافذ ..

وعندما حانت ساعة العشاء ، الفاها زوجها وقد بدت افضل حالا ، وإن لاح عليها انها لم تكن تسمعه وهو يسألها عن نزهتها .. بل ظلت جالسة ومرفقاها إلى جانبى طبقها ، بين شمعتين مشتعلتين .. وقال الزوج : « ايما ! » .. فتساءلت: « ماذا ؟ » .. فأردف : « خيرا .. لقد قضيت الأصيل فى دار السيد الكسندر .. إن لديه فرسا عجوزا ، لا تزال بديعة جدا . كل ما بها أن ركبتيها مضعضعتان .. وانى لواثق من ان فى الوسع شراءها بمائة دينار » .. ثم اضاف : « وإذ خطر لى انها ستروقك ، حجزتها .. ابتعتها .. فهل احسنت صنعا ؟ .. الا نبئينى ! » .

فهزت راسها علامة الرضى ، وما لبثت ان تساءلت بعد ربع ساعة : « اخارج انت الليلة ؟ » ؛ فأجاب : « اجل .. لماذا ؟ » .. قالت : « آه .. لا شيء .. لا شيء يا صديقى » ..

وما إن تخلصت من « شارل » حتى صعدت فأغلقت باب مخدعها خلفها .. واحست — فى البداية — كأنها فى غيبوبة! .. رأت الأشجار، والدروب، والأخاديد، ورودولف.. وشعرت من جديد بضغط ذراعيه ، بينما كانت أوراق الشجر واعواد

الغاب تبعث حفيفا .. ولكنها إذ لمحت شكلها فى المرآة ، دهشت لمرأى وجهها ، فما كانت عيناها يوما بهذا الاتساع ، وفى هذا السواد ، وعلى هذا العمق .. ان شيئا ما ، رقيقا لطيفا ، قد غيرها .. وراحت تردد لنفسها : « اصبح لى عشيق ! .. عشيق ! » . وبعثت فيها هذه الفكرة نشوة ، فكأنها تحظى بفترة المراهقة والأحلام مرة اخرى ! .. اذن فقد قدر لها اخيرا ان تعرف مباهج الحب هذه ، وحمى الهناءة تلك التى كانت فى قنوط منها ؟ ! .. لقد ارتادت شيئا من تلك المجاهل الحافلة بالشهوة ، والنشوة ، والالم .. ولفتها هيلولة لازوردية ، واخذت ذرى الأحاسيس تومض تحت افكارها ، وبدا لها كيانها العادى بعيدا ، منخفضا فى الظلمات التى كانت تتخلل تلك الذرى ! .. إذ ذاك اخذت تتذكر بطلات الكتب التى قرأتها ، وراح الموكب الموسيقى لتلك الفاسقات يردد فى ذاكرتها الأغانى بأصوات الراهبات التى كانت تفتنها .. وما لبثت أن تبينت أنها قد غدت جزءا من تلك الرؤى فعلا ، إذ حققت حلم صباها ، وخالت نفسها من ذلك الطراز من العاشقات اللاتى كانت تغبطهن من قبل .. واحست ، بجانب ذلك ، براحة الانتقام ! .. أو لم تعانى الكفاية من العذاب ؟ .. إنها الآن قد فازت ، وانبثق الحب ـ الذى طالما احتبسته ـ فى طفرات فرحة .. فاستمرأته فى غير ندم ، ولا قلق ، ولا اضطراب !

وانقضى اليوم التالى فى عذوبة جديدة ، إذ تبادلا العهود .. وحدثته عن احزانها ، فمضى يقطع عليها الحديث بقبلاته .. وراحت تسأله ، وهى تتأمله بعينين نصف مغمضتين ،

ان يناديها باسمها ، وان يكرر لها انه يهواها .. وكانا ساعتئذ فى كوخ بالغابة كان يوما ملكا لأحد الاسكافيين ، جدرانه من القش ، وسقفه جد منخفض ، حتى لقد اضطرا إلى أن يحنيا جذعيهما ، وقد جلسا متقابلين على فراش من أوراق الشجر الجافة .

* * *

● ومنذ ذلك اليوم أخذا يتكاتبان بانتظام كل ليلة . وكانت « ايما » تضع رسالتها فى نهاية الحديقة ، على مقربة من النهر ، داخل فجوة فى السياج ، فيأتى « رودولف » ليأخذها ويدس رسالة منه فى موضعها ، كانت تشكو دائما من اقتضابها ! .. وذات صباح ، خرج «شارل» قبيل بزوغ ضوء النهار ، فتولت « ايما » نزوة طاغية زينت لها ان ترى « رودولف » لتوها ! .. وخطر لها أن بوسعها ان تذهب إلى (لاهوشيت) عاجلا ، فتمكث هناك ساعة ، ثم تعود إلى (ايونفيل) قبل ان يستيقظ احد من نومه ! .. وجعلتها هذه الفكرة تلهث لفرط الشهوة ، وسرعان ما الفت نفسها وسط المراعى ، وهى تغذ السير ، لا تلوى على شىء ! .. وكان النهار قد شرع يسفر عن ضيائه ، حين تعرفت عن بعد على بيت حبيبها ، وقد استقام بالقرب منه جهازا معرفة اتجاه الريح ـ اللذان كانا ينتهيان بما يشبه ذيل الحمامة ـ أسودين بالنسبة لضوء الفجر الباهت .. وكان ثمة مبنى وراء ساحة المزرعة ، حدست انه القصر ولا بد ، فدخلته ، وكأنما تفتح باباه من تلقاء نفسيهما بمجرد اقترابها .. وكان ثمة سلم عريض مستقيم يصعد إلى الردهة ، فأدارت « ايما » مقبض احد الأبواب ، وإذا بها ترى فى اقصى الحجرة

رجلا نائما .. كان « رودولف » .. فندت منها صرخة !

واخذ هو يردد : « أانت هنا ؟ .. انت هنا ؟ .. كيف استطعت المجىء ؟ .. آه ! .. ان ثوبك مبتل » .. فأجابت وهى تطوق عنقه بذراعيها : « أننى اهواك ! » .. وإذ نجحت هذه المغامرة الجريئة الاولى ، اصبحت « ايما » تسارع ــ كلما بكر « شارل » فى الخروج ــ إلى ارتداء ثيابها ، ثم تتسلل على اطراف أصابع قدميها ، هابطة السلم المفضى إلى ناحية النهر .. اما إذا كانت قنطرة الأبقار مرفوعة ، فكانت تضطر إلى الانطلاق بمحاذاة الأسوار القائمة على طول النهر . وكانت الضفة زلقة ، ومن ثم كانت تتشبث بيديها بفروع الأزهار المتساقة ، لتتفادى السقوط ، ثم تنطلق بعد ذلك عبر الحقول المحروثة ، حيث كانت قدماها تغوصان فى الأرض ، فتتعثران وتفلتان من نعليها الرقيقين .

وكانت الريح فى المروج تعبث بالوشاح الذى يلف راسها .. وكانت تخاف الثيران فتأخذ فى الجرى ، حتى تصل متقطعة الأنفاس ، موردة الخدين ، تنشق بكل كيانها عبير ماء الحقول ، والخضرة ، والهواء الطلق .. وفى تلك الأثناء يكون « رودولف » سادرا فى نومه ، فتلج مخدعه كصباح الربيع ! .. وكانت الستائر الصفراء ــ على النوافذ ــ تسمح لضوء غزير ، مصفر ، بالتسلل فى رفق ، فتتحسس « ايما » طريقها ، وهى تفتح عينيها وتغمضهما ، بينما تؤلف قطرات الندى العالقة بوشاحها اكليلا من الزبرجد حول وجهها .. فيشدها « رودولف » إليه ضاحكا ، ويضمها إلى قلبه ! .. ثم تأخذ بعد ذلك فى تفقد المسكن ، فتفتح أدراج المناضد ، وترجل

شعرها بمشطه ، وتتأمل نفسها فى مرآة الحلاقة .. بل انها كثيرا ما كانت تضع بين اسنانها طرف الغليون الكبير الملقى على المنضدة المجاورة للفراش ، بين الليمون وقطع السكر ، على مقربة من ابريق للماء .. وكان الوداع يستغرق منهما ربع ساعة باكمله ، فقد كانت « ايما » تبكى آنئذ ، وهى تود لو اتيح لها الا تفارق « رودولف » ابدا ! .. كان يدفعها نحوه شىء أقوى منها ، حتى أنه حين رآها يوما تفد على غير ارتقاب ، قطب جبينه فى عبوس الشخص المكره على أمر ، فقالت له : « ماذا بك ؟ .. هل تألم من مرض ؟ .. صارحنى ! » .

وصارحها اخيرا ، فى لهجة جادة ، بأن زياراتها أصبحت تجانب الحكمة ، وأنها تعرض نفسها للخطر !

———— • ————

وإذا برجل يخرج من البرميل ــ كعفريت العلبة ...

الفصل العاشر

● لم تلبث مخاوف « رودولف » هذه ان تملكتها هى الأخرى .. إذ اسكرها الحب فى البداية ، فلم تفكر فى شىء مداه ، اما وقد اصبح ضرورة لا غنى عنها فى حياتها ، فقد غدت تخشى ان تفقد شيئا من هذا الحب ، بل تخشى اى عناء يحيق به . وكانت حين تعود من عند « رودولف » تتلفت حولها بنظرات موجسة ، وترقب كل ما يمر عند الأفق ، وكل كوة فى القرية يمكن أن يلمحها منها احد . وكانت تتسمع على الخطى ، والصيحات ، وجلبة المحاريث .. وتبدو اكثر شحوبا واشد ارتجافا من أوراق اشجار الحور المهتزة فوق راسها . وفيما كانت عائدة ذات صباح ــ بهذه الحال ــ خيل إليها فجاة انها لمحت قصبة بندقية مسددة إليها ، وقد برزت بانحراف من قمة برميل صغير دفن إلى نصفه بين الأعشاب عند حافة خندق صغير .. وكاد يغمى على « ايما » خوفا ، ومع ذلك فإنها واصلت السير ، وإذا برجل يخرج من البرميل ــ كعفريت العلبة ــ مرتديا طماقين (طزلك) يقيان ساقيه حتى الركبتين، وقد ارخى قلنسوته على عينيه ، وارتجفت شفتاه ، واحمر انفه .. ذلك كان السيد « بينيه » ــ محصل الضرائب ــ وكان قد كمن يتربص للبط البرى .. وهتف بها : « كان ينبغى أن تصيحى من بعد ، فالمرء إذا راى بنقدية وجب عليه أن ينبه إلى وجوده ! » .. وكان المحصل يحاول بهذا ان يخفى الجزع الذى تولاه ، إذ كان ثمة امر إدارى يحرم صيد البط إلا من

مركب فى النهر ، وقد وجد السيد «بينيه» نفسه يخرق القانون رغم احترامه إياه ، وكان يخشى ان يفاجأ بين دقيقة واخرى بوصول الحارس الريفى .. غير ان هذا القلق أذكى متعته ، فراح يهنىء نفسه — وهو وحيد فى البرميل — بما أوتى من حظ ودهاء .. وما إن راى « ايما » حتى بدا وكانما انزاح عنه عبء ثقيل ، فبادر إلى مجاذبتها الحديث ، قائلا : « ان الجو ليس حارا ، بل إن برودته لاذعة » .. ولم تجبه « ايما » ، فاستطرد قائلا : « ومع ذلك تخرجين مبكرة من دارك ؟ » .. فقالت متلعثمة : « أجل .. انني عائدة من لدن المربية التى تكفل طفلتى » — آه ، حسن جدا ! حسن جدا ! .. اما انا ، فكما ترين ، جئت منذ تنفس النهار ، ولكن الجو شديد الرطوبة ، حتى ان المرء إذا لم يصبر حتى يقف الطائر عند فوهة البندقية ..

فقطعت عليه الحديث قائلة وهى تنكص على عقبيها : « عم مساء ياسيدى ! » .. فقال فى لهجة جافة : « فى خدمتك ياسيدتى » .. وعاد إلى برميله . وندمت « ايما » إذ تركت محصل الضرائب بمثل هذه الجفوة ، فلا بد انه سيسىء التأويل والحدس ! .. والواقع ان قصة المرضعة كانت أسوأ حجة ، إذ ان الكل يعرفون فى (ايونفيل) ان ابنة «بوفارى» قد عادت إلى ابويها منذ عام .. ثم إن احدا لم يكن يسكن فى هذه الجهة ، ولم تكن الطريق تفضى إلى غير مزرعة (لاهوشيت) ! ومن ثم فلن يلبث « بينيه » ان يحدس من اين كانت آتية ، ولن يخلد إلى الصمت ، بل إن من المؤكد انه سيثرثر بالموضوع ! .. وظلت « ايما » حتى المساء تعصر ذهنها بحثا فى كل انواع

الأكاذيب الممكن تصورها ، وشبح ذلك الصياد الغبى ماثل امام عينيها باستمرار !

* * *

● وإذ راى « شارل » اكتئابها ، اراد — بعد العشاء — ان يصطحبها إلى دار الصيدلى ليروح عنها ، فاذا اول شخص تراه فى الصيدلية ، هو محصل الضرائب عينه ! كان واقفا أمام منضدة البيع ، التى انارها قنديل احمر ، وهو يقول : « ارجو ان تعطينى نصف أوقية من الزاج » ، فصاح الصيدلى : « احضر حامض الكبريتيك يا جستان » .. ثم قال لايما التى همت بأن تصعد إلى حجرة زوجته مدام « هوميه » : « لا استريحى ، فلا داعى لأن تتعبى نفسك ، إذ انها لن تلبث ان تهبط .. فاستدفئى بجوار المدفأة فى انتظارها .. معذرة ، طاب يومك يا دكتور (كان الصيدلى يستطيب ترديد كلمة « دكتور » ، وكأنه يخلع على نفسه — إذ ينادى سواه بها — بعض الرواد الذى يجده فيها) .. ولكن ، حذار ان تقلب الهاونات .. يحسن ان تحضر بعض المقاعد من القاعة الصغيرة .. انك تعرف ولا ريب ان ليس من المسموح نقل المقاعد الوثيرة من غرفة الجلوس .. » .

ولكى يعيد « هوميه » مقعده إلى مكانه ، هم بالانطلاق من خلف منضدة البيع ، لولا ان سأله « بينيه » أن يبيعه نصف اوقية من حامض السكر ، فقال الصيدلى فى ازدراء : « حامض السكر ؟ .. لست اعرفه ، بل إننى اجهله ! لعلك تريد حمض الاوكساليك (الحميض) ؟ .. إنه الأوكساليك ، اليس هذا صحيحا ؟ » .. فأوضح له «بينيه» أنه يريد مادة تفتت المعدن،

ليعد لنفسه بعض ماءالنحاس يزيل بهالصدأ عن ادوات الصيد.
فارتجفت « ايما » ، وشرع الصيدلى يقول : « ان الجو غير مناسب فعلا ، بسبب الرطوبة » . فأجاب محصل الضرائب فى تخابث : « ومع ذلك ، فهناك اشخاص يميلون إليه ! » .. وتهدجت انفاس « ايما » ، بينما تحول هو يقول : « واعطنى ايضا .. » .. فقالت لنفسها : « أو لن ينصرف ابدا ؟ » .. وكان مستطردا فى كلامه : « نصف أوقية من زيت الخروع والتربنتينة ، واربع اوقيات من الشمع الأصفر ، وثلاثة انصاف اوقية من الفحم الحيوانى ، من فضلك .. لانظف جلد طماقى المصقول » .

وكان الصيدلى قد شرع فى قطع الشمع عندما وصلت مدام « هوميه » حاملة « ايرما » بين ذراعيها ، و « نابوليون » إلى جوارها ، و «اتالى» خلفها .. وجلست فى المقعد المخملى المجاور للنافذة ، بينما جلس الصبى القرفصاء على مقعد صغير ، واخذت اخته التى تكبره تحوم حول صندوق العناب القريب من ابيها . وكان الاخير يملأ اقماعا ، ويسد قنينات ، ويلصق بطاقات ، ويحزم الأشياء .. وقد ساد الصمت ما حوله ، فلم تكن تسمع سوى شنشنة الموازين بين آن وآخر ، وبضع كلمات خافتة من الصيدلى لتوجيه مساعده . وفجاة ، تساءلت مدام هوميه : « وكيف حال فتاتنا الصغيرة ؟ » ، فهتف زوجها وهو يكتب ارقاما فى مسودة : « صمتا ! » .. لكنها استطردت فى صوت خفيض : « لم لم تحضريها معك ؟ » .. واجابت ايما وهى تشير إلى الصيدلى باصبعها : « صه ! .. صه ! .. » ومن المحتمل ان يكون

« بينيه » لم يسمع شيئا ، إذ كان منهمكا فى مراجعة حسابه . وما لبث ان خرج فى النهاية ، وإذ ذاك احست « ايما » بالارتياح ، فارسلت زفرة عميقة . وقالت مدام « هوميه » معلقة : « ما اشد انفاسك ؟ » ، فاجابت : « آه .. إن الجو حار ! » .

* * *

● وهكذا اضطر العاشقان إلى ان يتشاوروا فى اليوم التالى فى تدبير امر خلواتهما . ورات «ايما» ان ترشو خادمتها بهدية ، ومع ذلك فقد استحسنت البحث عن منزل امين فى (ايونفيل) ، فوعد « رودولف » بأن يبحث .. وظل طيلة الشتاء ، يتسلل إلى حديقة دارها فى بهيم الليل ثلاث مرات او اربعا فى الأسبوع ، وكانت « ايما » قد تعمدت ان تأخذ مفتاح الباب ، فظن «شارل» أنه ضاع .. واعتاد «رودولف» ان يرمى مصاريع النافذة بحفنة من الرمل كلما جاء ، لينبهها ، فتقفز مجفلة .. بيد انها كانت تضطر احيانا إلى التريث فى اللحاق به ، إذ كان «شارل» يهوى الحديث إلى جوار المدفاة ، ولا يكاد يكف .. وكان التعجل فى انتظار نهوضه يفرى فؤادها ، ولو اوتيت نظراتها قوة لرفعته من مكانه وطوحت به من النافذة ! ولكنها كانت لا تلبث اخيرا ان تشرع فى التاهب للنوم ، ثم تتناول كتابا وتاخذ فى مطالعته فى هدوء ، كانما هى تستمرىء القراءة .. فلا يلبث « شارل » ان يصعد إلى السرير ، ويناديها لتنام ، قائلا : « هيا يا ايما ، تعالى .. لقد آن لك ان تنامى » ، فتجيبه : « اجل ، ها انذى قادمة ! » .. لكنه لا يلبث ان يضيق بضوء الشموع ، فيولى الحائط وجهه ،

وينام .. فتتسلل مبتسمة ، متهدجة الانفاس ، وليس عليها سوى قميص النوم ، وكان لرودولف معطف كبير ، يسارع فيلفها به تماما ، ثم يحيط خصرها بذراعه ، ويقودها — دون ما كلمة — إلى الطرف الاقصى للحديقة ، تحت الخميلة ، على عين المقعد المصنوع من العصى الخشبية الذى كان « ليون » يجلس عليه فيما مضى ، يتطلع إليها فى وجد ، فى ليالى الصيف — على انها لم تكن تفكر فى « ليون » فقط إذ ذاك !

وكانت النجوم تومض خلال فروع الياسمين المجردة من الورق .. وخرير النهر فى انسيابه يصافح سمعهما من خلف الحديقة .. ومن وقت لآخر ، كان ينبعث على الضفة حفيف اعواد الغاب الجافة . وهنا وهناك ، كانت تبين خلال الظلام كتل من الظلال ، تهتز احيانا فى حركة موحدة ، فتنهض وتترنح كانها امواج سوداء هائلة ، تتدافع لتجتاحهما .. وكان برد الليل يضطرهما إلى ان يزدادا تلاصقا ، فتبدر التنهدات المنبعثة من شفاههما احر من عادتها ، وتتراءى لهما عيونهما — التى كانا لا يكادان يستبيناها — اكثر اتساعا .. وفى غمرة الصمت ، كانت تقال كلمات خافتة ، تقع على نفسيهما فى رنين بلورى ، ثم تتذبذب فيها ، فى دوائر تطرد اتساعا .. وكانا — فى الليلة الممطرة — يلوذان بغرفة العيادة القائمة بين ماوى العربة وحظيرة الجواد ، فتوقد « ايما » شمعة من شموع المطبخ كانت تخفيها وراء الكتب ، ويرتاح « رودولف » كما لو كان فى بيته ! .. بل إن منظر المكتبة ، والمكتب ، والغرفة باسرها ، كانت لا تلبث ان تستثير روح الفكاهة لديه ، فلا يتمالك ان يلقى بضع نكات عن « شارل » تحار

إزاءها « ايما » ، إذ كانت تؤثر ان تراه اكثر جدا ، بل واكثر انفعالا — فى بعض المناسبات — كما يفعل ابطال المسرحيات .. من ذلك تلك المرة التى خيل إليهما فيها انهما يسمعان صوت خطى تقترب فى الردهة ، إذ قالت : « هناك شخص مقبل ! » .. فاطفأ الشمعة !

— هل تحمل غدارتيك ؟ — لماذا ؟

اجابت : « عجبا .. لتدافع عن نفسك ! » .. قال : « أ ادافع ضد زوجك ؟ .. آه ! .. يا للصبى المسكين ! » .. واتبع عبارته بحركة ، اوضحها بقوله : « اننى استطيع ان احطمه بطرف اصبعى ! » .. وبهتت لجراته ، وإن احست فيها بشىء من القحة والغرور المجوج ، اثار استنكارها !.. وفكر « رودولف » كثيرا فيما قالت عن الغدارتين : فلو انها كانت جادة فى القول ، لكان هذا سخفا بالغا ، بل ممقوتا ، إذ لم يكن ثمة ما يبرر ان يكره « شارل » الطيب ، الذى لم يكن من النوع الذى يقال إن « الغيرة تاكله » ! .. وفى هذا الصدد ، اقسمت « ايما » يمينا ، لم ير « رودولف » انها تنم عن ذوق مستحب .. ثم إنها كانت — إلى جانب ذلك — تزداد اندفاعا فى الهوى ، فحملته على ان يتبادل معها الصور الصغيرة ، وخصل الشعر ، ثم تحولت تساله ان يهديها خاتما .. خاتم زواج حقيقيا ، كرمز للرباط الابدى بينهما ! وكثيرا ما كانت تحدثه عن الاجراس التى يسرى رنينها فى الليل ، وعن « اصوات الطبيعة » .. ثم راحت تحدثه عن مكانة امها ، بالنسبة لها ، ومكانة امه بالنسبة له ! .. وكان « رودولف » ، قد فقد امه منذ عشرين سنة ، ومع ذلك راحت

« ايما » تعزيه فى كلمات مواسية ، حنون ، كتلك التى تقال لطفل ضائع ، وحيد .. بل لقد كانت احيانا تقول له ، وهى تحملق فى القمر : « إننى واثقة من انهما فى حياتهما العليا تقران غرامنا » !

* * *

● لكنها كانت فائقة الجمال ! .. قليلات ممن عشق « رودولف » من قبل أوتين مثل سذاجتها وطيبة قلبها .. وكان هذا الغرام الخالى من الفجور والخلاعة تجربة جديدة بالنسبة له ، وقد اخذ يخرجه من تساهله وتحلله المالوفين ، ويذكى فى الوقت ذاته زهوه وشهوته .. وكانت عواطف « ايما » المرهفة ، المشبوبة ، تبدو لادراكه البورجوازى مستهجنة ، ولكنها كانت تلوح له - فى قرارة فؤاده - ممتعة، إذ كانت تنصب عليه فى سخاء . وإذ اطمأن إلى انه غدا محبوبا ، لم يعد يحفل بالتظاهر ، وتغيرت اطواره فى غير حكمة .. فلم تعد لديه - كما كان من قبل - كلمات يبلغ من رقتها ان تبكيها ، ولا عناقات حارة تعبث برشدها .. حتى لقد لاح ان حبهما الكبير ، الذى عاشت فى غمرته ، قد اخذ يضمحل ، كما يغيض ماء الجدول فى مجراه ، حتى خيل إليها انها ترى قاعه ! .. ولم تشا ان تصدق ذلك ، بل ضاعفت من الحنان الذى تريقه على « رودولف » ، بينما كان هو يزداد إهمالا فى إخفاء عدم اكتراثه !

ولم تكن تدرى اهى نادمة على ان استسلمت له ، ام انها - على العكس - لم تعد راغبة فى امتاعه وإرضاء لذاته ..واخذت ذلة شعورها بالضعف تتحول إلى ضغينة

يهدىء من حدتها عبثهما الفاجر .. وما كان هذا غراما ، وإنما كان اشبه الاشياء بضلال مستمر .. كان «رودولف» يسيطر على « ايما » .. وكانت ترهبه تقريبا .. على أن المظهر ازداد هدوءا عن ذى قبل ، إذ افلح رودولف فى المضى بعلاقتهما الآثمة إلى ابعد مما صور له خياله .. وما إن اقبل الربيع - بعد ستة شهور - حتى كانا كزوجين ، يبقيان على ومضة من الالفة المشتركة فى هدوء .. وحان الموعد الذى اعتاد الاب « روو » ان يرسل فيه دجاجته الرومية المعهودة ، فى ذكرى كسر ساقه . وكانت تصحب الهدية - كالعادة - رسالة ، فقطعت « ايما » الخيط الذى يشدها إلى السلة ، وقرات فيها السطور التالية :

« ولدى العزيزين : ارجو ان تجدكما الهدية فى صحة طيبة ، وان تكون فى جودة سابقاتها ، إذ تبدو لى - إن جاز ان اقول - اطرى لحما واثقل وزنا منها . علىأننى سامنحكما فى المرة القادمة ديكا ، من قبيل التغيير ، ما لم تفضلا ان ابعث إليكما ببعض السمك . وارجو ان تعيدا السلة ، مع السلتين السابقتين . منيت بخسائر فى حظائرى الخاصة بالعربات ، إذ طار سقفها بين الأشجار ذات ليلة شديدة الريح . كذلك لم يكن المحصول بالغ الجودة واخيرا ، لا ادرى متى ساتى لزيارتكما ، فمن العسير الآن ان ابرح البيت ، إذ اننى وحيد يا ايماى المسكينة » .. وهنا بدت ثغرة بين السطور ، وكانما افلت الشيخ القلم من يده واستسلم للأحلام فترة .. قبل ان يواصل الكتابة ! « اما انا فبخير ، فيما عدا برد اصابنى منذ ايام فى مهرجان (ايفيتو) ، حيث ذهبت لأستاجر راعيا بعد

ان طردت الراعى الذى كان فى خدمتى ، لشدة ولعه بالطعام الشهى ، ما اشقانا بمثل هؤلاء اللصوص ! .. ثم إن كان — فضلا عن هذا — غير امين .. ولقد سمعت من بائع متجول — اضطر إلى خلع احدى اسنانه أثناء مروره ببلدكم فى هذا الشتاء — ان « بوفارى » مجد فى عمله . ولم يدهشنى هذا . وقد ارانى السن اثناء تناولنا القهوة معا ، وسألته عما إذ كان قد رآك ، فقال انه لم يرك ، ولكنه شاهد فى الحظيرة جوادين، فاستنتجت ان العمل يسير على ما يرام ، فهنيئا لكما يا ولدى، وليرسل الله عليكما كل ما يمكن تصوره من هناء ! .. يؤسفنى ان لم ار حتى الآن حفيدتى الحبيبة « بيرت بوفارى » . لقد غرست من اجلها فى الحديقة — تحت غرفتك — شجرة خوخ ، ولن اسمح بأن تمس إلا إذا كان ذلك لاعداد المربى فيما بعد ، على ان احتفظ بها فى الصوان من اجلها إذا ما جاءت .. وداعا يا ولدى العزيزين ، وإنى لأقبلك يا ابنتى، وانت يا زوج ابنتى، وللصغيرة قبلة على كل خد .. مع اطيب تمنياتى : ابوكما المحب ، تيودور روو » .

* * *

● ظلت « ايما » بضع دقائق ممسكة بالورقة الخشنة بين اصابعها ، وقد تشابكت فيها الأخطاء الهجائية ، وسرحت بالها وراء الفكرة الكريمة التى كانت تنقنق خلالها كما تنقنق دجاجة نصف مختفية فى دغل من النبات الشوكى . لقد جفف ابوها المداد برماد من المدفأة ، إذ انساب من الرسالة على ثوبها بعض غبار رمادى، فخيل إليها انها ترى الأب منحنيا على المدفأة ليتناول الملقط .. ما اطول الزمن الذى انقضى منذ كانت

معه ، تجلس على مقعد منخفض فى الركن الذى تقوم فيه المدخنة ، حيث اعتادت ان تحرق طرف عصا من الخشب ، فى اللهب المتاجج المنبعث عن وقود من الخيزران البحرى ! .. وتذكرت أصائل الصيف حين كان ضياء الشمس يظل ساطعا .. وصغار الخيل تصهل إذا مر احد عن قرب ، وتركض ركضا .. وكانت تحت نافذتها خلية للنحل يصطدم نحلها احيانا بالنافذة وهو يلف فى النور ككرات ذهبية وثابة .. اية سعادة كانت تحظى بها إذ ذاك .. واية حرية ، واى امل ! .. ما كان أوفر الأوهام العذبة إذ ذاك ! .. لم يبق منها الآن شىء .. لقد انفقتها جميعا فى مغامرات روحها .. وفى كافة الظروف المتتابعة فى حياتها : فى بكورتها ، وزواجها ، وغرامها .. وهكذا ظلت تفقدها تباعا فى حياتها ، كمسافر يخلف وراءه جزءا من ثروته فى كل فندق على طول الطريق .. ولكن ، ما الذى اشقاها هكذا ، إذن ؟ .. ما هى الكارثة الخارقة التى غيرتها ؟ .. ورفعت راسها ، متلفتة حولها ، وكأنها تبحث عن سبب هذا الشىء الذى جعلها تتألم !

وكان ثمة شعاع من شمس ابريل يتراقص على الرف القيشانى ، والنار تستعر .. واحست بنعومة البساط تحت نعليها .. كان اليوم مشرقا ، والجو دافئا .. وسمعت طفلتها تضج بالضحك .. والواقع ان البنت كانت تتقلب إذ ذاك على العشب ، وسط الحشائش المجتثة ، ثم استلقت على بطنها فوق سطح حجر طاحون ، والخادم تمسكها متشبثة بذيل ثوبها .. وكان « ليستيبودوا » يشذب العشب بجوارها ، وكلما اقترب من الصغيرة ، مالت نحوه ضاربة الهواء

بذراعيها .. وقالت الام : «أحضريها إلى» ، ثم اندفعت تقبلها مغمغمة : «كم احبك ياطفلتى الصغيرة! .. كم احبك!» .. ثم لاحظت ان طرفى اذنيها متسخين ، فبادرت تدق الجرس طالبة ماء دافئا ، ونظفت البنت، وبدلت لها ثيابها، وجوربيها، وحذاءيها، وسالت الف مرة عن صحتها ، وكأنها عائدة من رحلة طويلة ، ثم اسلمتها اخيرا للخادم وهى تقبلها مرة اخرى ، باكية قليلا ، بينما كانت الخادم تقف مبهوتة لهذا الفيض من الحنان ..

وفى ذلك المساء ، الفاها «رودولف» اكثر جدا من المألوف، فقال معلقا : « لن يلبث هذا ان ينقضى .. إنها نزوة ! » .. ولم يوافها فى ثلاثة مواعيد متتابعة ، فلما جاءها ، ابدت فتورا وشبه اشمئزاز ، فقال : « آه ! .. انك تضيعين وقتك يا صغيرتى ! » .. وتظاهر بانه لم ينتبه إلى زفراتها الحزينة ، ولا إلى المنديل الذى اخرجته .

إذ ذاك ثابت « ايما » .. بل انها ساءلت نفسها عما ينفرها من « شارل » ! .. او لم يكن من الأحسن أن تستطيع أن تحبه ؟ .. بيد انه لم يتح لها الفرص لمثل هذه العودة العاطفية .. حتى لقد اشتدت حيرتها ازاء رغبتها فى التضحية .. وعند ذاك اقبل الصيدلى يزودها بفرصة .. فى الوقت الملائم !

●

الفصل الحادى عشر

● كان قد قرأ منذ عهد قريب رسالة عن طريقة حديثة لعلاج تشوه القدم ، وإذ كان من دعاة التقدم ، فقد راودته فكرة وطنية توحى بانه لكى تصبح (ايونفيل) فى المقدمة ، ينبغى أن تجرى فيها بعض جراحات لتجميل الأقدام .. وقال لايما : « وفيم تجشم كل ذلك ؟ .. احكمى بنفسك (واخذ يعد على اصابعه فوائد التجربة) النجاح شبه مؤكد : انقاذ المريض وتجميله ، شهرة سريعة يحرزها الجراح . لم — مثلا — لا يعمل زوجك على إنقاذ « هيبوليت » المسكين ، سائس حظيرة « الأسد الذهبى » ، من عرجه ؟ .. لاحظى انه لن يتوانى عن انباء كل المسافرين بشفائه .. ثم (وخفض « هوميه » من صوته وتلفت حوله) من يمنعنى من أن ارسل نبذة قصيرة عن الموضوع إلى الصحيفة ؟ .. آه ! .. يا الهى ! .. إن الأمر لن يلبث أن يناقش .. ويغدو محور الحديث .. سينتهى هذا إلى ضجة تنتشر .. ومن يدرى ؟ .. من يدرى ؟ » .

وفى الواقع ، كان فى وسع « بوفارى » ان ينجح ، فليس ثمة ما كان يؤكد لإيما انه غير بارع .. ولكم يكون من بواعث رضاها وارتياحها أن تحثه على اتخاذ خطوة تزيد من شهرته وثروته ؟ .. لم تكن تبغى اكثر من ان تستند إلى شىء اقوى من الحب واصلب .. وما لبث « شارل » — تحت إلحاحها وإلحاح الصيدلى — ان انساق ، فارسل إلى (روان) فى طلب كتاب الدكتور «ديفال» واخذ ينكب على قراءته كل ليلة ، معتمدا

راسه بين يديه . وفيما كان يدرس « الكاتاستريفوبودى » و « الاندوستريفوبــودى » و « الاكسوستريفوبودى » — أو بالاحرى ، أنواع انحناء القدم إلى اسفل ، أو إلى الداخل ، او إلى الخارج — مع «الهيبوستريفوبودى» و «الاناستريفوبودى» — او بمعنى آخر الالتواء إلى اسفل وإلى اعلى — كان السيد « هوميه » يعمل بكل وسائل الجدل على اقنــاع الفتى الذى يعمل فى الفندق على قبول ان تجرى له جراحة التجميل .. «انك لن تكاد تحس بشيء .. وإن احسست فبالم بسيط .. إنها مجرد شكة، كالفصد البسيط.. اخف من إزالة بعض البثور !».

وكان «هيبوليت» يجيل عينيه المليئتين بالغباء ، مفكرا ، فيمضى الصيدلى قائلا : « على ان الامر لا يهمنى .. إنه من اجلك ، بدافع إنسانى محض ! .. اننى احب ان اراك يا صديقى وقد تخلصت من عرجك البشع ، مع ذلك الانحراف فى منطقتى العجز ، الذى يعرقلك ولابد — مهما يقال — فى اداء مهنتك » .. ثم يصف له « هوميه » مدى ما سيشعر به فيما بعد من خفة فى الحركة ومن نشــاط . بل ذهب إلى ان افهمــه انه سيصبح ابهى منظرا فيروق فى اعين النساء ! فشرع سائس الخيل فى الابتسام بتثاقل ، وإذ ذاك راح الصيدلى يقنعه ، باستثارة غروره ، قائلا : « أو لست رجلا ؟ .. عجبا ! .. ماذا كنت تراك فاعلا لو انك كنت ذاهبــا إلى الجيش .. ذاهبا إلى الحرب تحت لواء الوطن ؟ .. آه ، يا هيبوليت ! » .. وانصرف « هوميه » معلنا انه لا يفهم هذا العناد والعمى اللذين يتجليان فى رفض نعمة من نعم العلم !

* * *

● وما لبث الفتى المسكين ان انصاع ، إذ كان الامر اشبه بالمؤامرة .. فإن المحصل «بينيه» — الذى لم يكن قط يتدخل فى شئون الغير — ومــدام « لوفرانســوا » ، و « آرتيميز » ، والجيران ، بل والعمدة السيد « توفاش » .. كل إنسان كان يغريه ، ويلقى عليه المحاضرات ، ويعيب تردده .. على ان الذى اغراه اخيرا على البت ، هو ان المحاولة لم تكن لتكلفه شيئا . بل إن « بوفارى » تعهد بأن يحضر الجهــاز اللازم للجراحة .. وكان هذا السخاء من وحى «ايما» ، وقد انصاع له «شارل» وهو يرى فى قرارة نفسه ان زوجته ملاك! .. ومن ثم ما لبث بارشاد الصيدلى ، وبعد ثلاث محاولات ، ان حصل على صندوق خاص صنعه النجار بمساعدة صانع الاقفال، وكان يزن حوالى ثمانية ارطال ، ولم يبد أى تقتير فى تزويده بالحديد والخشب والحديد المسطح والجــلد والمســامير البرغيــة و « الصواميل » ! .. على انه لمعرفة اى العضلات ينبغى قطعها لدى « هيبوليت » ، كان من الضرورى التعرف اولا على نوع التواء قدمه .. كانت قدمه تكاد تمتد فى خط مستقيم مع ساقه ، وان لم يحل هذا دون ثنيها إلى الداخل ، فكان نوعها بذلك يجمع بين الالتواء إلى اسفل وقليل من الالتواء إلى الداخل. أو — من ناحية اخرى — التواء إلى الداخل ، مع ميل شديد للالتواء إلى اسفل . ورغم هذا الالتواء إلى اسفل ، الذى كان يحدث فراغا بين الساق والقدم يتسع لحافر جواد ، ورغم الجلد الخشن الغليظ ، والاعصاب الجافة المتيبسة ، واصابع القدم الضخمة التى تحمل اظافر سوداء تبدو كما لو صنعت من حديد .. فإن الاعرج كان يجرى فى خفة الغزال من الصباح

حتى المساء . كان يشاهد باستمرار فى الميدان يقفز حول العربات ، وهو يطوح بقدمه العرجاء إلى الأمام .. بل كان يلوح أن هذه الساق ذات القدم الملتوية أقوى من أختها ، فقد اكسبها العمل الشاق صفات معنوية كالصبر والنشاط ، بحيث كان صاحبها إذا اقدم على عمل يثقل عليه ، وقف عليها دون اختها !

ولما كان الالتواء إلى أسفل ، فقد بات من الضرورى قطع عصب « اشيل » ، على أن يترك أمر العصب الشظوى — أو المزمارى — الداخلى حتى يتبين فيما بعد ما إذا كانت الضرورة تدعو إلى علاجه للتخلص من الالتواء الذى يثنى القدم إلى الداخل ، أم لا (إذا لم يجرؤ الطبيب على الإقدام على جراحتين دفعة واحدة .. بل إنه كان يرتجف فرقا من أن يؤذى بقعة هامة دون أن يدرى) . ولم يحدث لامبروز باريه ، وهو يحاول لأول مرة منذ عصر « الكلت » — اى منذ حوالى خمسة عشر قرنا — أن يربط احد الأوردة ، ولا لديبيتران ، حين هم بأن يشق خراجا فى المخ ، ولا لجنسول حين انتزع عظم الفك العلوى للمرة الأولى .. لم يحدث لأحد من هؤلاء أن ارتجف قلبه ، أو ارتعشت يداه ، أو اضطرب ذهنه ، كما كانت الحال مع السيد « بوفارى » حين شرع يعالج « هيبوليت » ، ممسكا باعصاب قدمه بين أصابعه ..

وكما يشاهد فى المستشفيات ، وضعت على منضدة كبيرة كومة من « الشاش » ، والخيط المشمع ، وكثير من الضمادات — بل « هرم » من كل ما يوجد عند الصيدلى من أنواع الضمادات ! — وكان السيد « هوميه » هو الذى عنى منذ

الصباح بتدبير كل هذه المعدات ، رغبة منه فى أن يبهر انظار الشهود أكثر منه فى أن يهدىء هواجسه ! .. وشق « شارل » الجلد ، فسمع له ازيز .. وقطع العصب ، وانتهت الجراحة ، ولم يقو « هيبوليت » على مغالبة دهشته ، ولكنه انحنى على يدى الطبيب يغمر يديه بقبلاته ، فقال الصيدلى : « كفى ، واهدأ ! .. سيتاح لك فيما بعد أن تظهر عرفانك بفضل الطبيب الذى أحسن إليك » .. ثم هبط ليزجى بالنتيجة إلى خمسة أو ستة من المتسائلين الذين كانوا ينتظرون فى الفناء ، والذين كانوا يخالون أن « هيبوليت » لن يلبث أن يطلع عليهم وهو يسير فى خطى سليمة ! .. وما لبث « شارل » أن شد مريضه إلى الجهاز المحرك الآلى ، ثم عاد إلى داره ، حيث كانت « ايما » فى انتظاره لدى الباب ملهوفة ، فطوقت عنقه ، ثم جلس إلى المائدة ، فأكل فى نهم .. وعند تناول الحلوى طلب قدحا من القهوة — وهو نوع من الترف لم يكن يتيحه لنفسه إلا فى أيام الآحاد ، حين يكون لديهما ضيوف !

* * *

● وكان ذلك المساء بديعا ، أفعمه الزوجان بالكلام والأحلام .. تحدثا عن حظهما المقبل ، وعن التحسينات التى يدخلانها على دارهما .. واستعرض « شارل » فى مخيلته ما يرتقبه من تقدير ، ومن ازدياد الرخاء ، إلى جانب حب زوجته المقيم .. وكانت هذه من ناحيتها هانئة إذ تنعم بعاطفة جديدة ، أسلم وأحسن مما كانت تنعم به من قبل ، وإذ تحس — أخيرا — ببعض الحنان والعطف نحو هذا المسكين الذى كان يعبدها . ومرت ذكرى «رودولف» بذهنها للحظة واحدة،

ولكن عينيها تطلعتا إلى « شارل » .. بل إنها لاحظت – وهى مدهوشة – أنه لم يؤت اسنانا تالفة ، كما كانت تعتقد ! .. وكانا قد اويا إلى فراشهما حين ولج السيد هوميه الغرفـــة مندفعا ، رغم انف الخادم ، وقد أمسك فى يده ورقة تتضـــمن صورة من النبأ الذى كتبه لصحيفة « فاناك دوروان » ، وقـــد حمله إليهما ليقرآه .. فقال « بوفارى » : « اقرأه بنفسك » .. فشرع يقرأ : « على الرغم من الأباطيل التى لا تزال ترين على شطر من وجه اوربا ، كالشبكة ، فإن الضوء قد بدأ ينفذ من ريفنا .. فقد الفت بلدتنا الصغيرة (ايونفيل) نفســها – يوم الثلاثاء – مسرحا لتجربة جراحية كانت فى الوقت ذاته من أسمى أمثلة الخير ، إذ قام السيد « بوفارى » ، وهو من ابرز اطبائنا الممتازين ... » .

فقاطعه « شارل » بصوت مختنق من فـــرط تـــدافع المشاعر : « لا ! .. هذا اكثر مما استحق ! .. هذا كثير جدا ! » .. بينما اجاب الصيدلى : « لا ، لا ! .. العفو ! .. اسمع » – مستطردا : « .. باجراء عملية جراحية لرجل اعرج » .. إننى لم استخدم التعبير العلمى ، ففى الصحف – كمـــا تعلمان – لا يفترض ان كل قـــارىء يفهم التعبيرات العلمية .. يجب ان يتاح للعامة .. » ، فقال « بوفارى » : « طبعا .. امض ! » ، فقال الصيدلى : « سأستأنف : قام السيد « بوفارى » ، وهو من ابرز اطبائنا الممتازين ، بإجراء عملية جراحية لرجل اعرج يدعى « هيبوليت » توتان ، قضى معظم السنوات الخمس والعشرين الأخيرة سائسا فى فندق « الأسد الذهبى » ، الذى تديره الأرملة « لوفرانسوا » فى

ميدان الجيش . ولقد اجتذبت طرافة التجربة ، وما اثاره الموضوع من اهتمام ، كثيرا من الناس .. حتى لقد كان الزحام شديدا عند مدخل الفندق . وفضلا عن هذا فقد اجريت العملية فى براعة اشبه بالسحر ، فلم يكد يبدو على الجلد اكثر من قطرات قليلة من الدم ، وكأنما استسلم العصب المتمرد لجهود الفن اخيرا . وكان من الغريب ان المريض لم يشك اى الم ، وهو ما نؤكده إذ شهدناه بأعيننا . ولا تدع حاله – حتى الآن – مجالا للرغبة فى مزيد . ويدعو كل شىء إلى الاعتقاد بأن فترة نقاهته ستكون قصيرة . ومن يدرى ، فقـــد نرى فى عيـــدنا القروى القادم ، صـــديقنا « هيبوليت » منهمكا فى رقصـــة « الباشيك » بين فريق من الراقصين المرحين ، وبذلك يثبت للأبصار جميعا – بتحمسه وقفزاته – شـــفاءه التام ! .. فلنمجد اذن العلماء الكرام ! .. لنكرم تلك النفوس التى لا تهن، والتى كرست مواهبها لتحسين ، أو بالأحرى ، لترقية الجنس البشرى ! .. المجد لهم .. لنهتف ثلاثا لتمجيدهم ! .. اولا يدعو هذا لان نصيح بانه قد آن للأعمى ان يرى ، والأصم ان يسمع ، والأعرج ان يســـير ؟ .. إنما يحقق العلم الآن لكل الناس ما كان المتهوسون يعدونهم به من قبل ، ولسوف نوافى قراءنا بالتطورات المتتابعة لهذا الأعرج الفذ ! » .

* * *

● لكن ذلك لم يمنع الأم « لوفرانسوا » من ان تأتى بعد خمسة ايام وهى تصيح فى فزع : « النجدة ! .. انه يموت ! .. لقد جن ! » .. واندفع « شارل » إلى « الأسد الذهبى » ، وترك الصيدلى بدوره حانوته حين لمح الطبيب ينطلق فى الميدان

بدون قبعة ، وهرع إلى الفندق ، فوصل إليه لاهثا ، محمر الوجه ، شديد القلق ، فراح يسأل كل من كان يصعد السلم : « ماذا ؟ .. ما الذى جرى لأعرجنا الهمام ؟ » .. وكان الأعرج يتلوى فى تشنجات فظيعة ، حتى ان الآلة التى وضعت فيها ساقه كانت ترتطم بالجدار فى عنف يوشك أن يحطمها ! وأزيل الصندوق فى كثير من الحذر حتى لا تتقلقل الساق عن وضعها .. فإذا بمنظر مؤلم يتجلى : كان شكل القدم قد تلاشى فى تورم جعل الجلد يلوح وشيك الانفجار ، وقد كستها كدمات نشأت عن الجهاز الذى ذاع صيته . وكان « هيبوليت » قد شكا من أنه يعانى منه آلاما ، غير أن أحدا لم يأبه له .. ولكن لم يعد بد من الاعتراف بأنه لم يكن على خطأ البتة ، ومن ثم حررت ساقه من الجهاز لبضع ساعات . ولكن ما إن هبط التورم هونا ما ، حتى رأى العالمان — الطبيب والصيدلى — ان من الأصوب أن تعاد الساق إلى الجهاز ، وزادا من إحكام الوثاق ليعجلا بالشفاء .

ولكن لم تنقض ثلاثة أيام ، حتى كان « هيبوليت » عاجزا عن المضى فى الاحتمال ، فرفعت الآلة .. ولكن ، شد ما كانت دهشة العالمين للنتيجة التى شاهداها : كان التورم الأزرق قد انتشر فى الساق ، تصحبه بقع متناثرة هنا وهناك ، تنضح بسائل أسود ! .. كانت الأمور قد تطورت تطورا خطيرا ، وبدأ « هيبوليت » ينزعج ، فاضطرت الأم « لوفرانسوا » إلى نقله إلى الغرفة الصغيرة القريبة من المطبخ ، ليتاح له بعض التسلية على الأقل ! .. غير أن محصل الضرائب — الذى كان يتناول عشاءه فى تلك الغرفة — شكا



وكان الأعرج يتلوى فى تشنجات فظيعة ، حتى أن الآلة التى وضعت فيها ساقه كانت ترتطم بالجدار فى عنف ..

مر الشكوى من هذه الصحبة ! ومن ثم نقل « هيبوليت » إلى قاعة « البلياردو » ، فظل راقدا هناك وهو يئن تحت اغطيته الثقيلة ، وقد شحب وجهه ، ونمت لحيته ، وغارت عيناه ، وراح من آن لآخر يدير راسه المجلل بالعرق على الوسادة القذرة ، التى كان الذباب يتهافت عليها ! .. وزارته مدام « بوفارى » هناك ، حاملة له بعض « الشاش » لقروحه ، نواسته ، وشجعته . ثم إنه لم يكن إلى جانب ذلك يفتقد الانيس ، لا سيما فى ايام السوق ، حين كان الفلاحون يقرعون كرات « البلياردو » حوله ، ممسكين بعصيها ، وهم يدخنون ، ويغنون ، ويصخبون .. وكانوا يسالونه وهم يدقون كتفه : « كيف حالك ؟ .. آه ! .. انك لم تتحسن كثيرا ، ولكنها غلطتك ! .. يجب ان تفعل هذا ! .. او تفعل ذاك ! » .. ثم يروون له قصص اناس برئوا بعلاجات غير التى يعالج بها . ويعقبون ، على سبيل النصح : « انك تستسلم للكسل اكثر مما ينبغى ! .. الا قم ! .. انك تتدلل كما لو كنت ملكا ! .. آه ! .. ان رائحتك ليست بالطيبة على كل حال ، ايها المهرج ! » .

* * *

● على أن العفن المتقيح — « الغنغرينة » — كان يزداد استشراء ، حتى بات « بوفارى » نفسه يشمئز منه !.. واخذ يذهب إليه فى كل ساعة ، وفى كل لحظة ، فيتطلع إليه « هيبوليت » بعينين زاخرتين بالذعر ، ويقول باكيا : « متى اشفى ؟.. آه ، انقذنى !.. ما اتعسنى ! .. ما اتعسنى !» .. وكان الطبيب يفارقه فى كل مرة وهو يوصيه بأن يتبع نظام

التغذية الذى عينه له . ولكن الام « لوفرانسوا » كانت تقول له : « لا تستمع إليه يا ولدى .. الم يشبعك تعذيبا ؟ لسوف تزداد ضعفا ، فهاك .. ابتلع هذه » .. ثم تقدم إليه حساء دسما ، وقطعة من لحم الفخذ ، وشقة من شحم الخنزير ، و — احيانا — اقداحا صغيرة من « البراندى » ، لم يكن ليقوى على رفعها إلى شفتيه !

وإذ سمع الأب « بورنيسيان » بأن حاله تزداد سوءا ، طلب ان يراه ، وشرع يرثى لآلامه ، وينبئه — فى الوقت ذاته — بانه خليق بأن يبتهج بها ، ما دامت هذه مشيئة الرب ، وان ينتهز الفرصة ليحسن صلاته بالسماء .. ثم أضاف رجل الدين فى لهجة ابوية : « ذلك لانك اهملت واجباتك بعض الشىء ، فقلما كنت ترى فى صلاة او عبادة . كم من السنين انقضت دون ان تسعى إلى المائدة المقدسة ! .. إننى ادرك أن اعمالك ودوامة الدنيا ، شغلتك عن أن تعنى بخلاص روحك . اما الآن فقد حان وقت التامل . ومع ذلك فلا تياس ، فلقد عرفت انا اناسا آثمين موغلين فى الذنب ، عمدوا حين اوشكوا ان يمثلوا امام الله — وانت لم تبلغ هذه الدرجة بعد كما اعرف — إلى الابتهال فى طلب رحمته ، وماتوا وهم بالتاكيد فى خير حالات راحة البال ! .. فلنامل ان تضرب لنا — كما فعلوا — المثل الطيبة . فما الذى يمنعك — من باب الاحتياط — ان تردد فى الصباح والمساء فصلا من « السلام عليك يا مريم يا كاملة الحسن » ، و « ابانا الذى فى السماء » ؟ .. اجل ، افعل ذلك من اجلى ، لترضينى .. لن يكلفك هذا شيئا ، فهل تعدنى ؟ » .

ووعد الشيطان البائس . واخذ القس يتردد عليه يوما

بعد يوم ، فيجاذب ربة الفندق الحديث ، بل ويروى النوادر التى تتخللهـــا الفكاهات والتوريات التى لم يكن « هيبوليت » يفقهها ! ثم كان لا يلبث أن يرتـــد إلى أمـــور الـــدين بأسرع ما يستطيع ، مسبغا على وجهه المظهر الملائم .. وبدت هذه الهمة موفقة ، إذ ما لبث الأعرج أن أظهر شوقا إلى أن يحج إلى (بون سيكور) إذا قـــدر له شـــفاء ، فأجـــاب الســـيد « بورنيسيان » بأنه لا يرى سبيلا للاعتراض على ذلك ، وأن احتياطين — (يقصد الصلاة والحج) — خير من واحـــد ، ولا ضرر هناك من ذلك !

* * *

● وكان الصيدلى يستنكر ما أسماه « مناورات » القس ؛ وزعم أنها تضر بنقاهة « هيبوليت » .. وأخـــذ يردد لمـــدام « لوفرانسوا » : « دعوه .. دعوه ! .. انكم تبلبلون معنوياته بروحانيتكم هذه ! » .. بيد أن المرأة الطيبة لم تعد راغبـــة فى الانصات له ، إذ اعتبرته « سبب كل شىء ! » . وبدافع من معارضتها له ، علقت إلى جوار فراش المريض حوضـــا مليئا بالماء المقدس ، وغصنا من العوسج .. على أن الدين لم يبد أقدر من الجراحة على انقاذه ، وظلت « الغنغرينة » التى لا سبيل إلى قهرها ، ماضية فى امتدادها من الأطراف حتى البطن . وكان تنويع الأدوية وتغيير الضمادات أمرا لا بأس به ، ولكن الاعصاب كانت تزداد تلفا فى كل يوم .. حتى لقد أجاب « شارل » أخيرا بهزة من رأسه تعنى القبول ، حين سألته الأم لوفرانسوا عما إذا كان يرى — فى حالة القنوط —

أن تستدعى لعيادة المريض السيد «كانيفيه» ، الذائع الصيت، من (نيوشاتل) .

ولم يتورع زميل « شارل » هذا الأخير — وكان طبيبـــا فى الخمسين من عمره ، يتمتع بمركز طيب ، وثقة بنفســـه — عن أن يضحك فى ازدراء حين كشف عن الساق التى دب فيهـــا التعفن المتقيح حتى الركبة ! .. ولم يكد يعلن فى صراحة أن لابد من بترها ، حتى انطلق إلى حـــانوت الصـــيدلى ليعنف « الحمير » الذين هووا برجل تعس إلى مثل هذه الحال ! .. وهناك أمسك بزر « الردنجوت » الذى كان السيد هوميـــه يرتديه ، وراح يهزه وهو يصيح فى الحانوت : « أهذه مخترعات باريس ! .. أهذه أفكار هؤلاء السادة المقيمين فى العاصمة ! . انها كعلاج « الحول » فى العين ، وكالكلوروفورم ، وكعملية تفتيت حصى المثانة .. طائفة من الفظاعات التى يجب على الحكومة أن تحرمها ! ولكنهم يريدون أن يظهروا براعتهم ، فيحشون رؤوسكم بطرق العلاج دون أن يزعجوا أنفســـهم بالتفكير فى عواقبها . إننا لسنا فى براعتهم .. نحن بالذات .. لسنا متحذلقين ، ولا مزهوين ، وإنما نحن أطباء معالجون ، ولا يخطر بخيالنا أن نجرى جراحة لأى امرىء مكتمل الصحة . تقويم الأقدام المشوهة؟! فى الوسع إصلاح الأقدام الملتوية ؟ .. ان هذا أشبه بتقويم الظهر المحـــدودب مثـــلا ! » .. وكان « هوميه » يتألم وهو ينصت إلى هذا الحديث ، ويخفى استياءه تحت ابتسامة متملقة ، إذ كان مضطرا إلى مداهنة الســـيد « كانيفيه » الذى كانت وصفاته العلاجية تحمل أحيانا إلى حيث تصرف من صيدليته فى (ايونفيل) . ومن ثم لم يعمد إلى الدفاع

عن « بوفارى » ، بل انه لم ينطق بعبارة واحدة ، وإنما نبذ مبادئه وضحى بكرامته فى سبيل مصلحة عمله ، التى تفوق المبادىء والكرامة فى اهميتها !

* * *

● وكان حدثا هاما فى البلدة ، أن بترت فخذ « هيبوليت » على يدى الدكتور « كانيفيه » . ففى ذلك اليوم استيقظ الأهالى جميعا مبكرين ، ومع أن الشارع الرئيسى ازدحم بالناس ، إلا ان كآبة رانت عليه ، وكان ثمة حكما بالاعدام يوشك ان ينفذ ! .. وكان القوم يتناقشون فى مرض « هيبوليت » لدى البدال . ولم تبع المتاجر فى ذلك اليوم شيئا ، ولا تزحزحت مدام « توفاش » — زوجة العمدة — عن نافذتها ، فقد كانت ترقب وصول الجراح بصبر نافذ .. حتى وصل فى عربته الخفيفة التى كان يقودها بنفسه . غير ان لولب الجانب الأيمن للعربة تداعى اخيرا تحت ثقل جسمه البدين ، فكانت العربة تميل قليلا وهى تدرج فى طريقها . وكان يشاهد على الوسادة المجاورة له صندوق كبير مكسو بجلد احمر ، وقد لمعت مقابضه النحاسية الثلاثة فى بهاء . وما إن دخل الطبيب فناء « الأسد الذهبى » كالاعصار الجائح ، حتى صاح بصوت عال ، آمرا بتسريح جواده من العربة ، ثم ذهب إلى الحظيرة ليرى ما إذا كان الجواد مقبلا على التهام الشوفان ! — إذ كان من عادته إذا بلغ دور مرضاه أن يشغل اولا بدابته وعربته ! — ومع ذلك فقد قال الناس : « آه ! يا للسيد « كانيفيه » من فذ ! » .. وزاده هذا الهدوء الرصين اكبارا فى أعين القوم ، فما كان

ليتخلى عن آتفه عاداته ، ولو فنى العالم من اهله إلى آخر نسمة !

وتقدم « هوميه » ، فقال له الطبيب : « إننى أعول عليك ، فهل نحن على استعداد ؟ .. هيا بنا ! » .. بيد ان وجه الصيدلى احتقن ، واعترف بانه مرهف الحس لا يقوى على المساعدة فى عملية كهذه ، وقال : « ان رؤية المنظر تكون اشد تأثيرا على المرء إذا كان مجرد متفرج ، ثم إننى أوتيت جهازا عصبيا ... » . فقطع عليه « كانيفيه » الحديث قائلا : « آه ، مهلا ! .. انك ، على العكس ، تبدو لى عرضة للسكتة القلبية ! ثم ان هذا لا يدهشنى ، فأنتم — معشر الصيادلة — تترددون باستمرار على مطابخكم ، مما يؤدى ولا بد فى النهاية إلى إفساد بنيان اجسامكم . الا انظر إلى ! .. إننى استيقظ فى الرابعة من كل صباح ، فأحلق لحيتى بالماء البارد (ولم اصب قط ببرد !) .. ولست ارتدى قميصا داخليا (فانيلا) ، ومع ذلك لم اتعرض قط لنزلة من نزلات البرد .. وان هيكلى لقوى ! .. واعيش آنا على حال ، وآنا آخر على حال اخرى ، كالفيلسوف ، تبعا للظروف والمصادفات . وهذا هو السر فى اننى لست ضعيفا مثلك ، وانى لاشرح اى إنسان كما اشرح اول بطة برية تأتينى . ستقول بعد هذا إن الامر يرجع إلى التعود ! » .

وبغير ان يحفلا بهيبوليت الذى كان يتصبب عرقا بين اغطية فراشه لفرط الألم ، اندمج الرجلان فى حديث راح الصيدلى يقارن فيه بين هدوء جاش الجراح ، وهدوء جاش القائد العسكرى .. وراقت هذه المقارنة لكانيفيه الذى مضى

يتحدث عن مطالب فنه . كان يعتبره مهمة قدسية ، وإن كان الأطباء العاديون قد حطوا من قدرها . وتحول أخيرا إلى المريض ، وفحص الضمادات التى أحضرها « هوميه » ـ وهى عين الضمادات التى كان قد أحضرها عند علاج التواء القدم ! ـ ثم طلب شخصا يمسك له الســاق ، فأرســل فى طلب « ليستيبودوا » ، وما لبث السيد « كانيفيه » أن شــمر عن ساعديه ، ثم انتقل إلى قاعة « البليــاردو » ، بينمــا بقى الصيدلى مع « آرتيميز » وصاحبة الفندق ـ اللتين صــار وجهاهما اشد بياضا من لون مرولتيهما ـ وقد أرهف الجميع آذانهم نحو الباب .

* * *

● لم يجرؤ « بوفارى » فى تلك الفترة على مبارحة داره ، بل ظل فى قاعة الجلوس ـ بالطابق الأرضى ـ إلى جوار المدفأة الخالية من اللهب ، وقد اسند ذقنه إلى صدره ، وعقد ذراعيه ، وجمدت حدقتاه .. يا للكارثة ! .. وحاول أن يتذكر اى خطأ ربما بدر منه .. لقد اتخذ كل الاحتيــاطات الممكن تصورها ! .. غير ان القدر تدخل فى الأمــر ! .. ولكن ، ما قيمة هذا ؟ .. لو ان « هيبوليت » مات بعد ذلك ، لكان هو قاتله ! .. ثم ، اية حجة يستطيع ان يدلى بها إذا هــو سئل عن الأمر فى جولاته ؟ .. وعاد يفكر فى انه ربما اخطأ فى شىء ما ! وراح ينقب دون أن يعثر على اى خطأ . ومع ذلك ، فإن اشهر الجراحين يخطئون . ولكن احدا لن يصدق هــذا ابدا ، بل إنه على العكس سيغدو اضحوكة ومضغة فى الافواه !

وستنتشر القصة إلى (فورج) .. بل الى (نيوشاتل) .. ثم إلى (روان) .. وكل مكان ! .. ومن يدرى ، ربما كتب بعض زملائه ضده ! فيثير ذلك جدالا يتطلب الرد فى الصحف .. بل ان فى وسع « هيبوليت » نفسه أن يقاضيــه ! .. وتصــور الطبيب نفسه وقد جرد من سمعته ، وحاق به الدمار ، وقضى عليه ! وراح خياله يتخبط بين الافتراضات والاحتمالات التى تدفقت عليه ، كما لو كان برميلا فارغا القى فى البحر فاخذت الأمواج تتقاذفه !

وكانت « ايما » تجلس أمامه ، ترقبه .. لم تشاطره ذلته ، فقد كانت تعانى ذلة اخرى .. ذلة انها تصورت أن مثل هذا الرجل جدير بأى شىء ! .. وكأنها لم تتبين تماما مدى قصور عقله عشرين مرة من قبل ! .. واخذ « شارل » يذرع الحجرة ، وحذاءاه يحدثان صريفــا على الأرض الخشــبية المصقولة ، فقالت له : « الا اجلس ، فانك تثير اعصابى ! » ..

وجلس .. وراحت تسائل نفسها : كيف سمحت لنفســها ـ وهى الشديدة الذكاء ـ بأن تخدع مرة اخــرى ؟ .. بل اى جنون محزن جعلها تدمر حياتها إلى هــذا الحد ، بالتضحيات المستمرة ؟ .. وتذكرت كل رغباتها الغريزية فى الترف ، وكل الوان الحــرمان الذى عانته نفســها ، وزواجهــا المزرى ، وحياتها المنزلية المتواضعة ، وتردى احلامها فى الوحل كما تتردى العصافير الجريحة .. وكل ما كانت تصبو إليه ، وكل ما حرمت نفســها منه ، وكل ما كان فى وسعها ان تناله .. لماذا ؟ .. لماذا ؟

وفى غمرة السكون الذى ران على القرية ، انبعثت فى الهواء صرخة تفتت الاكباد ، فشحب « بوفارى » وكاد يهوى مغشيا عليه .. بينما قطبت « ايما » فى حركة عصبية ، ثم عادت تستأنف افكارها : كان ذلك كله من اجله .. من اجل هذا المخلوق .. من اجل هذا الرجل الذى لم يفهم شيئا ، ولم يشعر بشىء ! .. فها هو ذا يجلس ساكنا ، دون أن يدور بخلده ان الزراية التى ستلحق باسمه ، ستلحق باسمها هى الأخرى من الآن فصاعدا .. لقد بذلت جهدا لتحمل نفسها على أن تحبه، ولقد ذرفت الدموع ندما وتكفيرا عن استسلامها لسواه !

* * *

● وهتف « بوفارى » فجاة ، وهو مستغرق فى افكاره : « ولكن ، لعله كان التواء إلى الخارج ! » .. وارتجفت «ايما» للصدمة غير المرتقبة التى احدثها سقوط هذه العبارة على فكرها وكأنها رصاصة سقطت على صفحة فضية ! .. ورفعت راسها لتستبين ما كان يعنيه بقوله .. ورمق كل منهما الآخر فى صمت ، وكأنه فى دهشة لوجوده ، إذ كانت افكارهما قد نأت بكل منهما عن الآخر .. وحملق فيها « شارل » ــ بتلك النظرة الزائغة التى تبدو فى عينى السكير ــ بينما كان يصغى دون حراك إلى آخر صيحات المريض ، الذى كانت ساقه تبتر ، وقد تتابعت فى نغمات مستطيلة ، تتخللها صرخات تشنجية حادة ، وكأنها عواء ينبعث عن بعد من وحش يقتل ! .. وعضت « ايما » شفتها الممتقعة ، واخذت

تقلب بين أصابعها قطعة من المرجان كانت قد كسرتها ، وهى تسلط على « شارل » مقلتيها الحادتين وكأن سهمين من نار بوشكان أن ينطلقا منهما ! .. لقد أصبح كل ما فيه يثير اعصابها : وجهه ، ثوبه ، الكلام الذى لم ينطق به .. كل شخصه ، وكيانه .. وندمت على عفتها فى الماضى كما تندم على جريمة ، وتبدد ما كان قد تبقى من هذه العفة تحت ضربات كرامتها المهتاجة .. وابتهجت لكافة ما كان لفجورها المنتصر من سخريات شريرة ، خبيثة .. وعاودتها ذكرى عشيقها ، مع غوايات فيه بهرتها فارتمت فيها بكل روحها ، وتركتها تحملها إلى ذلك الطيف فى تحمس متجدد .. وبدا لها « شارل » مقصيا عن حياتها ، وكأنه غائب إلى الأبد .. وكأنه قد فنى .. أو كأنه موشك على الموت ، يحتضر تحت بصرها !

وتردد وقع خطى فى الطريق ، فاطل « شارل » .. ومن خصاص مصراعى النافذة راى عند ناصية السوق ــ فى وضح ضياء الشمس ــ الدكتور « كانيفيه » يمسح جبينه بمنديله ، و « هوميه » خلفه يحمل صندوقا أحمر كبيرا ، وهما يسعيان، إلى دار الصيدلى .. وإذ ذاك ، تحول « شارل » فى حنان واستخذاء طارئين ، قائلا لزوجته : « أواه ! .. قبلينى يا حبيبتى ! ».. فقالت وقد احتقن وجهها غضبا : «دعنى!» .. فتساءل مذهولا : « ماذا جرى ؟ .. اسكتى ! .. تمالكى نفسك ! .. إنك لتعرفين تماما اننى احبك ، فهيا ! » .. وصاحت بلهجة قاسية ، « كفى ! » .. واندفعت خارجة من الغرفة ، مغلقة الباب وراءها فى عنف جعل « البارومتر »

يهوى من الجدار فيتهشم ! .. وعاد «شارل» يتهالك فى مقعده حائرا ، يحاول ان يستبين ما اصابها . وخيل إليه أنها أصيبت بمرض عصبى ، فأخذ يبكى ، وداخله شعور غامض بأن شيئا مشئوما ، لا سبيل إلى إدراكه ، يجرى حوله ..

وعندما جاء « رودولف » إلى الحديقة فى ذلك المساء ، وجد عشيقته فى انتظاره عند أدنى درجات السلم السفلى .. فاحتضن كل منهما الآخر ، وانصهرت كل ضغينة — كأنها الجليد — تحت حرارة تلك القبلة .

الفصل الثانى عشر

● وعادا يتحابان من جديد .. وكثيرا ما كانت « إيما » تكتب إليه بغتة — ولو فى منتصف النهار — ثم تشير إلى « جوستان » من وراء زجاج نافذتها فيخلع مرولته ، ويسرع راكضا بالرسالة إلى (لاهوشيت) .. فلا يلبث « رودولف » أن يحضر ، ليجد أنها ما أرسلت إليه إلا لتنبئه بأنها ضجرة ، وأن زوجها بغيض ، وأن حياتها لا تطاق ! .. وصاح بها ذات يوم ، نافد الصبر : « هل بوسعى أن أفعل شيئا ؟ » ، فأجابته : « آه ، لو شئت ! » ، وكانت تجلس على الأرض بين ركبتيه ، وقد تهدل شعرها ، وزاغ بصرها .. وسألها « رودولف » : « ماذا ، إذن ؟ » ، فتنهدت قائلة : « لنذهب فنعش بعيدا .. فى مكان ما » .. فقال ضاحكا : « إنك لمجنونة حقا ! .. أو هذا ممكن ؟ » .فعادت تردد قولها .. وإذ ذاك تظاهر بأنه لا يفهم قصدها ، ثم غير مجرى الحديث. كان الذى لم يفهمه هو هذا القلق بشأن مسألة بسيطة كالحب ! .. لقد كان لدى إيما باعث ، ومبرر ، و — فوق هذا — قوة دافعة وراء عاطفتها . والواقع أن هواها أخذ ينمو يوما بعد يوم ، بنمو نفورها من زوجها .. فكلما أسرفت فى منح نفسها للواحد ، اشتد مقتها للآخر ! أبدا لم يكن يبدو لها « شارل » فى مثل البشاعة ، ولا بمثل تلك الأصابع الغليظة الضخمة ، ولا فى هذه البلادة والمسلك السوقى ، كما كان يتراءى لها إذا ما اجتمعا بعد لقائها لرودولف ! .. كانت عندئذ تمثل دور الزوجة ودور العشيقة ، وتكتوى بنار

اللوعة إذ تفكر فى ذلك الراس الذى يتهدل شعره الاسود فى خصلة على جبين لفحته الشمس بالسمرة — راس رودولف — وفى ذلك القوام الذى يجمع بين القوة والرشاقة .. فى ذلك الرجل الذى اوتى — فى إيجاز — كل تلك الحنكة فى تفكيره ، وكل تلك الوقدة فى شهواته ! .. من اجله شذبت اظافرها ودببتها بعناية .. ومن اجله لم تكن تضن على بشرتها بالدهان المرطب الذى يكسبها نعومة ، ولا على مناديلها بالعطور ! وكانت تثقل نفسها بالاساور ، والخواتم ، والقلادات . وعندما يكون قادما ، كانت تملأ آنيتى الزهر الزرقاوين الكبيرتين بالورود ، وتعد مخدعها ونفسها كما لو كانت محظية ترتقب أميرا !

وكانت تشغل الخادم بغسل الثياب وكيها باستمرار ، فلم تكن « فيليسيتيه » لتتحرك طيلة اليوم من المطبخ ، حيث كان « جوستان » الصغير يؤنسها فى اكثر الأحيان ، ويراقبها فى عملها .. كان يعتمد بمرفقيه على الطاولة التى تكوى الثياب عليها، ويحدق بنهم فى كل تلك الثياب النسوية المتناثرة حوله ، من « جونلات » مزركشة ، ومناديل منقوشة ، وياقات ، وسراويل ذات اربطة ، تتسع عند الردفين وتضيق فيما اسفلها .. وكان الفتى يمر بيده على البطانة ، او على المشابك المثبتة ، ويتساءل : « لم هذا ؟ » .. فتجيبه « فيليسيتيه » ضاحكة : « عجبا ، او لم تره من قبل ؟ .. كأنى بعشيقتك — مدام هوميه — لا ترتدى مثله ؟ » .. فكان يقول : « آه ! .. اجل .. مدام هوميه ! » ، ثم يردف وهو مستغرق فى التفكير : « افترينها سيدة كسيدتك ؟ » .. على

أن « فيليسيتيه » كانت لا تلبث أن تضيق برؤيته يحوم حولها .. كانت تكبره بست سنوات ، وكان « تيودور » — خادم السيد « جيومان » — قد بدأ يغازلها ، فكانت تقول وهى تنقل وعاء النشاء الذى تستخدمه فى الكى : « دعنى وشانى ! .. اذهب فاصحن اللوز .. إنك تحوم دائما حول النساء .. الا انتظر ايها الولد الخبيث حتى ينبت الشعر فى ذقنك قبل أن تقحم نفسك فى مثل هذه الأمور ! » .

— على رسلك ، لا تغضبى ! .. ساذهب وانظف حذاءى سيدتك بدلا منك .

ويبادر فيتناول حذاءى « ايما » من على الرف ، وقد كساهما الوحل — من المقابلات الليلية فى الحديقة ! — الوحل الذى كان يتفتت تحت اصابعه ، فيرقبه وهو يتطاير فى رفق فى شعاع الشمس .. وكانت الخادم تقول : « لكم تخشى أن تتلفهما ! » — فما كانت هى تعمد إلى مثل حرصه إذا نظفتهما بنفسها ، لأن السيدة كانت ما تكاد تجد جلد حذاءيها قد فقد ليونته ، حتى تمنحها اياهما ! وكانت « ايما » تملك عددا من الأحذية فى صوانها ، تهبها منها الواحد بعد الآخر ، دون أن يسمح « شارل » لنفسه بأن يلاحظ شيئا ! بل إنه تبرع — بإيحائها — بثلاثمائة فرنك ثمنا لساق خشبية رأت أنها تليق بأن تقدم هدية إلى « هيبوليت » ، وكانت قمتها مكسوة بالفلين، ولها مفاصل لولبية ، وجهاز معقد ، يغطيها سروال اسود ، ينتهى بحذاء لامع . على أن « هيبوليت » لم يجرؤ على أن يستعمل ساقا انيقة كهذه فى كل يوم ، فالتمس من مدام « بوفارى » أن تحضر له ساقا اخرى اكثر مناسبة لحالته ،

فكان على الطبيب أن يتبرع ــ مرة أخرى ، بالطبع ــ بنفقات هذه الساق !

* * *

● وهكذا أخذ السائس يعاود عمله شيئا فشيئا ، فكان يشاهد وهو يهرع فى أرجاء القرية كعهده فيما مضى . وكان « شارل » إذا سمع دقات الساق الخشبية الحادة عن بعد ، بادر إلى تغيير الاتجاه الذى يسير فيه ! وكان السيد « لوريه » ــ التاجر ــ هو الذى تكفل باستحضار الساق ، فأتاح له هذا حجة لزيارة « ايما » . وصار يثرثر معها عن السلع الجديدة التى تسلمها من باريس ، وعن ألف طرفة وطرفة من الطرائف النســوية ، متلطفا كل التلطف ، متحاشيا أبدا طلب نقوده . وانصاعت « ايما » لهذه الطريقة السهلة لاشباع كل أهوائها ، ومن ثم رغبت فى سوط بديع جدا كان معروضا لدى صـــانع مظلات فى (روان) ، لتقدمه هدية إلى « رودولف » ، فحمله السيد « لوريه » إلى منضدتها فى الأسبوع التالى . على أنه زارها فى غداة ذلك اليوم ، ومعه كشف حساب بمائتين وسبعين فرنكا ، عدا السنتيمات ! وذهلت « ايمـــا » ، فقد كانت كل أدراج المكتب خالية من النقود ، وكانا مدينين للبستيبودوا بأجر فترة تزيد على خمسة عشر يوما ، وبأجر ستة شهور للخادم ، وبعدة ديون أخرى . وكان « بوفارى » يرتقب بنافد الصبر قبض حساب السيد « ديروزيراى » ، الذى كان من عادته أن يدفع حسابه حوالى عيد « سان بيير » أى فى منتصف الصيف.

ونجحت « ايما » ــ فى البداية ــ فى استمهال « لوريه » . ولكنه فقد صبره فى النهاية ، إذ كان دائنوه بدورهم يطالبونه

بمالهم . وكان رأس ماله قد تبدد ، فكان مضطرا إلى أن يسترد كل ما تلقته منه « ايما » من سلع ، ما لم يتسلم بعض حسابه! فقالت له : « حسنا .. اذن خذها ! » .. اجاب : « أواه ! .. إنما كنت أمزح .. إن الشىء الوحيد الذى آسف عليه هو السوط . لعمرى ، سأطلب إلى السيد أن يرده لى » .. فهتفت فى جزع : «لا ! .. لا !».. وقال « لوريه» لنفسه : «آه !.. ها قد أمسكت بها ! » .. وإذ اطمأن إلى ما اكتشف ، راح يردد لنفسه فى صوت خفيض ، وهو يرسل صفيره الخافت المعهود : « حسنا ! .. لسوف نرى ! .. لسوف نرى !».. وفيما كانت تفكر فى مخرج ــ بعد انصرافه ــ أقبلت الخادم ، فوضعت على رف المدفأة حزمة صغيرة مغلفة بالورق الأزرق ، من لدن السيد « ديروزيراى » . وانقضت عليها « ايما » تفضها ، فإذا بها خمس عشرة قطعة ذهبية من الجنيهـــات النابوليونية ، هى قيمة حسابه . وسمعت « شارل » يصعد السلم ، فألقت بالقطع الذهبية فى جوف درجها ، واحتفظت بالمفتاح !

وعاد « لوريه » بعد ثلاثة أيام ، يقول : « لدى تدبير اقترحه عليك: فلو انك أخذت، بدلا من المبلغ المتفق عليه..». فبادرت تضع فى يده أربع عشرة قطعة نابوليونية ذهبية ، وهى تقول : « هاك ! » .. وذهل التاجر ! ولكى يخفى استياءه ، طفق يهيل الأعذار ، ويعرض خدماته ، و « ايما » ترفض على طول الخط .. ثم مكثت بضع دقائق تتحسس بأصابعها فى جيب مرولتها قطعتى النقود ــ فئة الفرنكات الخمسة ــ اللتين أعطاها اياهما التاجر بعد أن استوفى ما كان له . وعاهدت

نفسها أن تدخر ما استطاعت ، لتعيد المبلغ فيما بعد إلى زوجها ، وهى تقول لنفسها : « آه ! .. إنه لن يفكر فى هذا ثانية ! » .

* * *

● إلى جانب السوط ذى اليد الفضية ، تلقى «رودولف» من « ايما » خاتما نقش عليه : « قلب عاشق » ، فضلا عن ملفحة — « كوفية » — وأخيرا ، علبة للسيجار تشبه تماما علبة « الفيكونت » التى كان « شارل » قد عثر عليها فى الطريق فيما مضى فاحتفظت بها « ايما » . على أن هذه الهدايا كانت تشعره بخسة ، فرفض كثيرا منها ، ولكن « ايما » كانت تلح ، فينتهى به الأمر إلى الانصياع لها ، وهو يحس بأنها جائرة ، شديدة العناد .. ثم أخذت تساورها افكار غريبة ، فكانت تقول له : « إذا دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فعليك ان تفكر فى ! » ، فإذا اعترف بانه لم يفكر فيها ، تدفق العتاب بسخاء ، ثم ينتهى دائما بالكلمة الخالدة : « أتحبنى ؟ » ، فيجيب : « عجبا .. بالطبع احبك » .

— كثيرا ؟ — بالتأكيد ! — أو لم تحب سواى ؟

فكان يهتف ضاحكا : « او تظنين انك اخذتنى بكرا ؟ » .. وكانت « ايما » تبكى ، فيسعى إلى تهدئتها، مرصعا احتجاجاته بالفكاهات ! .. فتقول : « اواه ! .. إننى احبك ! .. احبك حتى اننى لا اقوى على العيش بدونك ، فهل تدرك هذا ؟ .. إننى لأتوق احيانا إلى ان أراك ثانية، فتمزقنى سورة الهوى.. واسائل نفسى : « ترى اين هو ؟ .. لعله يتحدث إلى نساء

اخريات .. يبتسمن له ، فيقترب منهن .. » اواه ! .. لا ، ما من امراة سواى تروق لك ، أليس كذلك ؟ .. هناك من يفقننى جمالا ، ولكنى اكثرهن حبا .. إننى الأفضل هوى .. انا جاريتك ، محظيتك ! .. انت مليكى ، ومعبودى ! .. انت طيب ! .. انت جميل ! .. انت ذكى ! .. انت قوى ! » .

كم من مرات سمع فيها هذه العبارات تقال ، حتى لم يعد يرى فيها طرافة ، فأخذت تفقد رواءها شيئا فشيئا ، كغلالة انزاحت عن الشهوة فاظهرتها عارية فى استرسالها الأبدى الرتيب ، فإذا هى هى ، مهما تباين شكل الغلالة ، وبالتالى ، مهما تباينت اللغة والعبارات ! .. لم يكن ذاك الرجل الكثير التجارب ليميز أن العاطفة تختلف وإن تشابه المظهر . فهو لكثرة ما سمع هذه العبارات تغمغم بها شفاه العاهرات وبائعات الهوى ، لم يؤمن كثيرا باخلاص « ايما » .. كان يرى ان على المرء ان لا يحفل بالعبارات الدافقة التى تنطوى على عواطف معتدلة .. كأنما امتلاء النفس لا يفيض احيانا خلال التعبيرات الخالية من الرواء والتنميق ، إذ ليس فى وسع الإنسان ان يحدد بالدقة التامة مقدار حاجاته ، أو آرائه ، أو أحزانه .. وما الكلام البشرى الا كالاناء المعدنى المصدوع ، الذى ندق عليه الالحان لترقص الدبية ، بينما نحن نصبو إلى أن نهز النجوم !

على أن « رودولف » ، بما أوتى من خبرة ناقدة لا تتاح لغير الشخص الذى لا يحفل بدوام العلاقات ويحجم عن التعلق بالروابط ، لمح فى هذا الغرام مباهج جديدة راق له أن يتعرفها ، فاستهان بكل حياء اعترضه ، وراح يعامل

« ايما » وفق هواه، حتى جعل منها شيئا مبتذلا، مفسودا ! .. اما هى ، فكان تعلقها به نزقا ، مفعما بالإعجاب به ، وباللذة الفاجرة لها .. كانت السعادة قد بهرتها وخدرت عقلها ، فغاصت روحها فى خمر لذتها ، وانكمشت ، ثم غرقت كما غرق « دوق كلارنس » فى دن نبيذه الحلو ! .. ومن ثم تغيرت أخلاق « مدام بوفارى » بتاثير العادات التى اكتسبتها من غرامها هذا وحده ، فإذا نظراتها تزداد جراة ، وحديثها يزداد تحررا ، بل لقد اقدمت على مسلك مستهجن ، إذ تعودت أن تسير مع السيد « رودولف » ، وبين شفتيها سيجارة ، كما لو كانت « تتحدى العالم » ! .. واخيرا ، لم يعد الذين ظلوا فى ريب يرتابون ، إذ رؤيت يوما تهبط من « العصفورة » — عربة البريد — وقد ضم خصرها صديرى كصدارى الرجال !

ولم تكن حماتها — مدام بوفارى الام — التى لجات إلى بيت ابنها بعد شجار محتدم مع زوجها ، باقل النسوة المحتشمات استنكارا لمسلك زوجة ابنها ! .. وكانت ثمة اشياء كثيرة لم ترقها ، اولها ان ابنها لم ياخذ بنصحها ويحرم على زوجته قراءة الروايات .. كما ان سير الأمور فى البيت لم يرضها .. ولقد سمحت لنفسها بابداء بعض ملاحظات قوبلت بغضب ، لا سيما حين مست إحدى ملاحظاتها « فيليسيتيه » ! .. فقد حدث فى الليلة السابقة على ذلك ، ان كانت مدام بوفارى الأم تمر فى الردهة ، وإذا بها تفاجىء الخادمة مع رجل ! كان رجلا ذا ياقة بنية ، فى حوالى الأربعين من عمره ، ما إن سمع خطواتها حتى فر عن طريق المطبخ . عند ذاك اخذت « ايما » تضحك، ولكن المراة الفاضلة ازدادت

حنقا ، وقالت : إن على المرء أن يراقب أخلاق خدمه ، فليست الأخلاق باضحوكة .. فتساءلت زوجة الابن : « فى أى دنيا نشأت ؟ » ، وكانت نظراتها من السلاطة والقحة بحيث دفعت مدام بوفارى إلى أن تسألها عما إذا كانت بذلك تدافع عن حالتها الخاصة ؟ .. فوثبت الشابة من مكانها صارخة : « اخرجى ! » .. وصاح « شارل » محاولا ان يهدىء الموقف: « ايما ! .. ايما ! » .. ولكن كلا من المراتين كانت قد جمحت فى غضبها ، فراحت « ايما » تدق الأرض بقدميها مرددة : « آه ! .. يا للأخلاق ! .. يا لها من فلاحة ! » .. وهرع إلى امه ، فإذا بها قد فقدت زمام عواطفها ، وراحت تقول متلعثمة : « إنها وقحة .. طائشة .. بل لعلها اسوا من هذا ! » .. وعولت على الرحيل فورا ، ما لم تعتذر إليها الأخرى . وعاد « شارل » إلى زوجته ، واخذ يتوسل إليها ان تتساهل ، وركع امامها ، فقالت فى النهاية : « حسنا ! ساذهب إليها » . وفعلا بسطت يدها لحماتها ، فى كبرياء المركيزات ، وقالت لها : « سامحينى يا مدام » .. حتى إذا صعدت إلى غرفتها ، انكفات على سريرها ، واخذت تبكى كالطفلة ، وقد دفنت وجهها فى الوسادة !

وكانت قد اتفقت مع « رودولف » على أن تربط إلى مصراع النافذة — إذا كان ثمة حادث غير عادى — قطعة صغيرة من الورق الأبيض ، حتى إذا صادف إن كان فى (ايونفيل) ومر أمام الدار ، سارع إلى موافاتها فى الحارة الواقعة خلف الدار . وقد علقت الاشارة فى هذه المرة ، وانتظرت حوالى ثلاثة ارباع الساعة ، ثم راته عند ناصية دار

البلدية ، فهمت بأن تفتح النافذة وتناديه ، ولكنه اختفى فى التو ، فتهالكت فى قنوط . بيد انها سرعان ما خالت ان ثمة من يسير تحت النافذة .. لابد انه هو .. وهبطت السلم ، وعبرت الفناء ، فإذا به فى الخارج .. والقت بنفسها فى احضانه ، فقال : « حذار ! » ، ولكنها قالت : « آه ، لو علمت ما جرى ! » .. وشرعت تروى له كل شىء فى عجلة ، وعبارات مفككة ، مبالغة فى تصوير الحقائق ، مفترية ومختلقة الكثير مما لم يحدث ، مسرفة فى العبارات الاعتراضية ، حتى انه لم يفقه شيئا ! .. وقال لها فى النهاية :

— صبرا يا ملاكى المسكين .. تجلدى ! .. اهدئى ! .. صبرا !

— ولكنى صبرت اربع سنوات ، وانا اتعذب .. ان حبا مثل حبنا خليق بأن يعلن حتى عنان السماء ! .. لقد عذبونى ! .. لم اعد احتمل ! .. انقذنى !

وتشبثت برودولف ، وعيناها المليئتان بالدموع تلمعان كلهب تحت موج ، وصدرها يتهدج فى حركات سريعة .. وإذ ذاك احس انه لم يحبها يوما كما احبها ساعتئذ ، ففقد تعقله ، وقال : « وما الذى ينبغى عمله ؟ .. ماذا تريدين ؟ » ، فصاحت : « انقلنى بعيدا ! .. احملنى بعيدا ! .. آه ، اتوسل اليك ! » .. وارتمت على فمه ، وكأنها تريد ان تتلقف منه الموافقة غير المرتقبة ، إذا نفثها فى قبلة .. فقال لها : « ولكن .. » .

— لكن ماذا ؟ — ابنتك ؟

وفكرت لحظات ، ثم اجابت : « سنأخذها معنا ، لا مفر ! » .. فقال لنفسه وهو يراها تهرع مبتعدة نحو الحديقة ، بعد أن سمعت نداء : « يا لها من امرأة ! » .

* * *

● كادت « الأم بوفارى » ان تذهل فى الأيام التالية ، للتغير الذى طرأ على زوجة ابنها . فالواقع ان « ايما » اخذت تبدى لها مزيدا من اللطف ، بل ومضت فى التقرب إليها إلى درجة ان سألتها ان تصف لها طريقة لتمليح الخيار ! .. افتراها استحسنت ان تخدع الأم وابنها ؟ .. ام انها — فى نوبة فلسفية من وحى فجورها — شاءت ان تدع مرارة الأشياء التى كانت توشك ان تهجرها ، تزداد تغلغلا فى نفسها ؟ .. بيد انها لم تعمد إلى الحذر ، وإنما راحت — على العكس — تعيش وكأنها تائهة فى طلائع بهجة سعادتها المقبلة ! .. ولم تكن تكف عن الحديث فى الموضوع إلى « رودولف » ، فكانت تميل على كتفه متمتمة : « آه ! .. متى نكون فى عربة البريد ! .. اتفكر فى هذا ؟ .. اهو ممكن ؟ .. اخالنا سنكون — فى اللحظة التى احس فيها بالعربة تتحرك — وكأننا فى منطاد يرقى بنا ، كما لو كنا راحلين صوب السحاب .. افتعرف اننى اعد الأيام ؟ .. وانت ؟ » .

ابدا لم تكن مدام « بوفارى » فى مثل ما بدت فيه من جمال فى تلك الفترة ، إذ اوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم ، الذى يأتى نتيجة الفرح ، والتحمس ، والظفر .. والذى لا ينشأ إلا عن انسجام المزاج مع الظروف . كانت شهواتها ، وشجونها ، وتذوقها للذة ، واوهامها الدائمة الصبا ، اشبه

بالتربة والمطر والريح والشمس إذ تنمى الزهور .. وهكذا اخذت « ايما » تنمو رويدا ، حتى تفتحت فى النهاية عن كل ما كانت تفعم به طبيعتها . كانت اجفانها تلوح وكأنها صيغت خصيصا لتتمشى مع نظراتها العاشقة الطويلة ، التى كان إنسان العين يغيب خلالها ، بينما تنبعث انفاسها قوية تتفتح لها طاقتا انفها الرقيقتان ، وترتفع حافة شفتها المكتنزة التى يحجبها عن الضوء زغب اسود دقيق .. كان المرء خليقا بان يخال ان فنانا خبيرا بالفساد قد نسق خصلات شعرها على عنقها ، فكانت تتهدل غزيرة ، فى إهمال ، تتباين اشكالها بتباين ظروف الغواية التى كانت لا تنفك تتبدل فى كل يوم .. وازداد صوتها ليونة وتثنيا ، وكذلك قوامها .. كان ثمة شىء من الدهاء — الذى ينفذ إلى اعماقك — ينبعث حتى من ثنايا ثوبها ، وانعطافات قدمها !

* * *

● والفاها « شارل » شهية ، فتانة ، كما كان العهد بها فى الأيام الأولى لزواجهما ! .. لكنه كان لا يجرؤ على ايقاظها إذا عاد فى منتصف الليل . وكان مصباح الليل الخزف يلقى على السقف دائرة من ضوء مرتعش ، والستائر المسدلة على مهد الطفلة تبدو على هذا الضوء ككوخ ابيض يقوم فى الظلام عند حافة السرير . وكان « شارل » يتأمل كل هذا ، فيخيل إليه انه يسمع الأنفاس الخفيفة المنبعثة من الطفلة ، ويروح يتصور ابنته وهى تنمو بسرعة ، مع كل فصل ، ثم يتمثلها مقبلة من المدرسة فى نهاية النهار ، ضاحكة ، وبقع المداد على زيها المدرسى ، وقد حملت حقيبتها تحت ابطها .

ثم يرى ان الأوان قد آن لتلحق بالمدرسة الداخلية ، ولسوف يتطلب هذا نفقات كثيرة ، فما العمل ؟ .. خطر له ان يستأجر مزرعة صغيرة فى الريف المجاور ، يستطيع ان يرعاها بنفسه فى كل صباح وهو ينطلق لعيادة مرضاه .. ثم يدخر دخلها ، ويودعه صندوق الادخار ، ثم يشترى اسهما ما ، فى اية مؤسسة ، فضلا عن أن عملاءه سيزدادون .. وكان يعول على هذا ، لأنه كان راغبا فى ان تحظى «بيرت» بخير تنشئة ، وان تكتسب مواهب ، وان تتعلم العزف على البيانو ، آه ! .. لكم ستكون جميلة فيما بعد ، حين تبلغ الخامسة عشرة ، وتشبه امها ، وترتدى مثلها قبعة واسعة من الخوص فى الصيف ! .. لسوف تبدوان — عن بعد — كما لو كانتا شقيقتين. وكان يتصورها فى الأمسيات وهى تطرز إلى جوار والدتها على ضوء المصباح .. لسوف توشى بشغل الإبرة خفيها (الشبشب) .. وستشغل بشئون المنزل ، وستملأ البيت سحرا وطربا .. ثم يفكران — فى النهاية — فى زواجها ، وإذ ذاك سيبحثان لها عن فتى طيب ، عزيز المركز ، يسعدها .. فتظل هكذا دائما !

وبينما كان بوفارى يستسلم للنعاس ، لم تكن « ايما » تنام ، بل كانت تتصنع النوم ، وتصحو لأحلام اخرى .. فاذا اربعة جياد تحملها راكضة بها نحو بلاد جديدة ، لا عودة منها ! .. وهناك تمضى مع « رودولف » ، وقد اشتبكت ذراعاهما ، وسارا لا ينبسان بكلمة .. ثم يلمحان فجاة من قمة جبل — احيانا — مدينة رائعة ذات قباب ، وجسور ، وسفن ، وغابات تنبت الموالح ، وكاتدرائيات من الرخام

الأبيض ، تحمل ابراجها المدببة اعشاش الطيور .. ويمضى السائر فيها بخطى منتظمة على الأرض المرصوفة ببلاط كبير ، وقد تناثرت باقـــات الورد التى تقدمها اليك نساء يرتدين صدارى حمراء . ويسمع العاشقان رنين الأجراس ، ونهيق البغال ، مع دمدمة « الجيتار » ووسوسة ميـــاه النافورات التى تنعش برذاذها العالى اكواما من الفاكهـــة نسقت على شكل اهرامات ، تحت تماثيل باهتة تبتسم تحت عيون الماء !

.. ثم يغدان ذات ليلة على قرية من قرى صائدى السمك ، حيث تنتشر الشـــباك البنية لتجف فى الهواء على الســـفوح امام الاكواخ .. وهناك يكفان عن الترحال ليستقرا ، فيقيمان فى بيت منخفض ذى سقف مســـطح مستو، تظله نخلة ، فى طرف خليج بجانب البحر .. هناك يخرجان للنزهة فى جندول ، ويتارجحان فى مضاجع معلقة بين الأشجار ، ويغدو عيشهما سهلا ، فضفاضا كثيابهما الحريرية ، الدافئة ، المزركشـــة بالنجوم كتلك الليالى الناعمة التى يهنآن بتأملهـــا .. ولكن ، فى هذا المستقبل الهائل الذى كانت تتصوره « ايما » ، لم يكن ليحدث شىء ذو بال .. كانت الأيام كلهـــا رائعة ، تتـــوالى متشابهة كالأمواج ، وتترنح عند الأفق اللانهائى ، البهيج ، الصافى الزرقة ، الغارق فى ضياء الشمس ..

* * *

● على أن الطفلة كانت لا تلبث أن تســعل فى مهدها ، او يشتد غطيط « بوفارى » ارتفاعا .. اما « ايما » فلا تنام إلا فى الصباح ، حين يبدو بياض الفجر خلال زجاج النافذة ، وحين يشرع الفتى « جوســـتان » فى إزاحـــة مصـــاريع الصيدلية ..

وذات يوم ، استدعت الســـيد « لوريه » وقالت له : « إننى بحاجة إلى معطف .. معطف واسع ، ذى ياقة عالية ، مزدوجة » .. فسألها : « امســـافرة أنت فى رحلة ؟ » .. فقالت : « لا ! .. ولكن .. هذا لا يهم .. ساعتمد عليك ، أليس كذلك ؟ .. فعجـــل ! » .. وانحنى موافقا ، بينمـــا استطردتْ هى قائلة : « كذلك ساكون بحاجة إلى حقيبة .. ليست من النوع الثقيل ، بل سهلة الحمل » .

— أجل ، أجل .. فهمت .. حـــوالى اثنين وتسعين سنتيمترا ، فى خمسين .. من ذلك النـــوع الذى يصنعونه فى هذه الأيام ..

— وحقيبة كبيرة للسفر ..

فقال « لوريه » لنفسه : « لابد ان ثمة شقاقا هنـــا ، بالتاكيد ! » .. بينما استطردت مدام بوفارى وهى تتنـــاول ساعتها من حزامها : « وخذ هذه . تستطيع أن تتقاضى من ثمنها حسابك » .. ولكن التاجر صاح بانها كانت على خطا ، فإن كلا منهما يعرف الآخر جيدا ، فهل تراه ارتاب بصددها فى شىء ؟ .. اذن ، فما هذا التصرف الصبيانى ! .. بيد انهـــا اصرت على ان يأخذ ولو السلسلة على الاقل . وكان «لوريه» قد دسها فى جيبه فعلا ، وتأهب للخروج ، حين نادته قائلة وعليها امارات التفكير : « سيكون عليك ان تبقى كل هـــذه الأشياء عندك .. اما المعطف ، فلا تحضره هو الآخر ، بل تستطيع أن تعطينى عنوان الصانع ، وأن تطلب إليه ان يعده ويحتفظ به رهن الطلب .. » (٥)

.. وكان الشهر التالى هو موعدهما للفرار ، فكان على « ايما » ان تبرح (ايونفيل) وكأنها ذاهبة لبعض الشئون فى (روان) .. ويكون « رودولف » قد حجز لهما مكانين ، واعد جوازى السفر ، بل وكتب إلى باريس ليحجز عربة البريد باسرها لهما حتى (مرسيليا) ، حيث يبتاعان عربة ، ويمضيان من هناك دون توقف إلى (جنوا) . اما هى فستعنى بارسال متاعهما إلى « لوريه » ، لينقل من هناك مباشرة إلى « العصفورة » ، حتى لا يحدس احد من الأمر شيئا . ولم يرد ذكر للطفلة فى كل هذا قط ، إذ كان «رودولف» يتفادى الحديث عنها ، ولعله لم يعد يفكر فى أمرها .. وما لبث أن رغب فى إمهاله اسبوعين ليدبر بعض شئونه ، وفى نهاية الأسبوع الأول طلب خمسة عشر يوما اخرى ، ثم قال انه مريض ، وقام بعد ذلك برحلة .. وانقضى شهر اغسطس .. وبعد كل هذا الإرجاء ، قررا ان يحددا اليوم الرابع من سبتمبر ، موعدا لا يعدلان عنه .. وكان يوم اثنين .

* * *

● وحان اخيرا يوم السبت السابق على ذلك الاثنين . واقبل « رودولف » فى المساء مبكرا عن العادة ، فسألته إيما « هل كل شىء معد ؟ » .. فأجابها : « أجل » .. وما لبثا ان سارا حول حوض فى الحديقة ، واتجها ليجلسا على مقربة من رصفة على حافة السور .. وقالت ايما : « أراك حزينا ! » ، فتساءل كالمفكر : « لا .. لماذا ؟ » .. وكان فى تلك الأثناء يرمقها بنظرة غريبة ، وبشكل مفعم بالحنان .. فعادت تسأله : « احزين لأنك راحل ؟ .. لأنك مفارق ما اعتدت أن تحب

حياتك ؟ .. آه ، إننى أفهم .. اما انا فلم تمنحنى الدنيا شيئا ! .. انت كل شىء لى ، ومن ثم ساكون كل شىء لك .. ساكون لك اسرة .. وطنا .. سأعنى بك ، وساحبك ! » ، فاحتواها بين ذراعيه قائلا : « لكم انت فاتنة ! » ، فقالت فى ضحكة خليعة : « احقا ؟ .. أوتحبنى ؟ .. اذن ، فاقسم! » .

— كم أحبك ! .. كم احبك ! .. بل اننى اعبدك باغرامى !

وشرع القمر يبزغ عند حافة الأرض — فى اقصى المروج — بدرا ، ارجوانى اللون . ثم ارتفع سريعا بين افنان شجر الحور التى كانت تخفيه من مكان إلى آخر ، كأنها ستار اسود تتخلله ثغرات ! ثم تألق فى بياض باهر ، فى السماء الخالية التى اشرقت بالنور ، وراح يمخر عبابها فى هوادة ، مرسلا على النهر رقعة كبيرة من ضوئه تكسرت إلى نجوم لا حصر لها ، ولاح البريق الفضى يتلوى متغلغلا إلى الأعماق ، كثعابين مارقة ، تكسوها قشور مضيئة ! .. بل إنه كان يشبه ايضا ثريا هائلة ، تسيل عليها قطرات متلاحقة من ماس ! .. ولفهما الليل البديع .. وانبثت خلال الأغصان كتل من الظلال .. وراحت « ايما » — وقد اغمضت عينيها نصف إغماضة — تتنسم الهواء العليل الذى كان يهب فى جرعات عميقة . ولم ينبسا بكلمة ، إذ استغرقا فى احلامهما المتدافعة .. وقد عادت إلى قلبيهما عواطف الايام السالفة ، عارمة ، صامتة ، كالنهر المنساب ، فى تلك النعومة التى يحسها المرء فى عبير الورود الهادئة ، فالقت على ذاكرتيهما ظلالا اعظم واحلك من ظلال اشجار الصفصاف الساكنة التى كانت تمتد على العشب .

وكثيرا ما كان يزعج العاشقين حيوان من حيوانات الليل — قنفذ او عرسة تبحث عن صيد — او كانا يسمعان فى بعض الأحيان صوت ثمرة ناضجة من الكمثرى وهى تهوى من تلقاء نفسها .

وقال « رودولف » : « آه ! .. يا لها من ليلة بديعة !»، فاجابت « ايما » : « سننعم بليال غيرها ! » ، ثم استطردت وكانها تحدث نفسها : « اجل ، ان الرحيل خير ، ومع ذلك ، فلم يثقل الحزن قلبى ؟ .. اهذا هو الخوف من المجهول ؟ .. اثر التخلى عن الأشياء المالوفة .. او ، تراه .. ؟ لا ، بل هو فيض الهناءة . يا لى من ضعيفة . الست كذلك ؟ .. الا اغفر لى ! » .. فصاح : « لا يزال هناك وقت ، ففكرى .. ربما ندمت ! » ، فهتفت باستنكار : « ابدا ! » .. ثم اقتربت منه ، وقالت : « أى تعاسة تحيق بى ؟ .. ما من صحراء ، ولا وهاد ، ولا محيط احجم عن اجتيازها معك طالما عشنا معا . ستكون حياتنا كعناق يشتد فى كل يوم ، ويزداد انطباقا ! لن يكون هناك ما يضايقنا ، فلا هموم ، ولا عقبات ! .. سنكون وحدنا ، ولنفسينا ، إلى الأبد .. اواه ، الا تكلم .. رد على ! » .. وكان يجيب فى فترات منتظمة : « اجل .. اجل .. » ، ودست يديها فى شعره ، وراحت تردد فى صوت كصوت الطفل ، رغم الدموع الكبيرة التى كانت تتساقط من عينيها : « رودولف ! .. رودولف ! .. اواه ، يا رودولف ، يا صغيرى الحبيب ! » .

ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فقالت : « انتصف الليل ! .. هيا ! .. لقد اصبحنا فى الغد ! .. لم يبق سوى

يوم واحد ! » . ونهض لينصرف .. وكأنما كانت حركته الاشارة المبشرة بفرارها ، فقالت « ايما » وقد غشيها ابتهاج طارىء : « هل الجوازان معك ؟ » .. قال : « اجل » .

— لم تنس شيئا ؟ — لا .

— امتأكد انت ؟ — كل التاكد .

— إنه فندق « بروفانس » الذى ستنتظرنى فيه .. اليس كذلك ؟ .. عند الظهر ؟

فهز راسه .. وقالت « ايما » وهى تعانقه للمرة الأخيرة : « إلى الغد اذن ! » .. واخذت ترقبه وهو يبتعد .. ولم يلتفت وراءه . فهرعت خلفه ، ومالت على حافة الماء ، بين شجيرات العوسج ، وصاحت : « إلى غد ! » .. وكان قد اجتاز النهر ، وسار حثيثا فى المراعى .. وبعد بضع دقائق ، وقف « رودولف » ، فلما رآها فى ثوبها الأبيض تغيب شيئا فشيئا فى جوف الظلام كالطيف ، راح قلبه يخفق فى عنف ، حتى لقد اضطر إلى أن يستند إلى شجرة كى لا يهوى على الأرض . وقال فى حنق : « يا لى من غبى ! .. ولكن ، لا باس .. لقد كانت خليلة جميلة ! » .. وفى الحال عاوده جمال « ايما » ، ومتع حبهما ومسراته .. فرقت عواطفه لحظة ، ثم عاد يتمرد عليها ، قائلا وهو يهز كتفيه : « ما كنت — رغم كل شىء — لأستطيع أن أعيش منفيا ، وان احمل هم طفلة ! » .. قال لنفسه هذه العبارات ليقوى من عزيمته ، ثم اردف : « وهناك — إلى جانب الهم — النفقات .. آه ، لا ، لا .. الف مرة لا ! .. كان الأمر سيغدو غباء بالغا ! » .

الفصل الثالث عشر

● ما كاد «رودولف» يبلغ داره ، حتى بادر بالجلوس إلى مكتبه ، تحت راس الوعل المعلق إلى الجدار . ولكنه حين امسك بالقلم بين اصابعه ، لم يجد فى راسه ما يسطره ، ومن ثم اعتمد على مرفقيه ، واخذ يفكر . لقد اصبحت « ايما » تلوح له وكانها نات فى ماض سحيق .. كانما اقام القرار الذى اتخذه مسافة شاسعة بينهما ، فجاة ! .. ولكى يسترجع شيئا عنها ، اخرج من الصوان المجاور للسرير صندوقا قديما من صناديق بسكويت « ريمس » ، اعتاد أن يحفظ فيه خطابات النساء ، فانبعثت منه رائحة الغبار الجاف والورود الذابلة ! ولمح اولا منديلا صغيرا من مناديل الجيب ، مليئا ببقع صغيرة باهتة .. كان هذا المنديل لها .. فقد نزفت دما من انفها مرة ، وهما يتنزهان .. وقد نسى كل شىء عنه ! وإلى جواره ، كانت الصورة الصغيرة المهداة من « ايما » ، وقد تآكلت من كل زواياها .. ولاح له ان فى زينتها بهرجة مسرفة ، وان نظراتها المنكسرة توحى بذوق سقيم . ولطول ما تأمل الصورة ، مستذكرا معالم الأصل ، اخذت ملامح « ايما » تختلط فى راسه شيئا فشيئا ، وكان الوجه الحى والوجه المرسوم قد احتكا حتى محا كل منهما الآخر ! .. وانتهى إلى قراءة بعض رسائلها .. كانت جميعا مليئة باحاديث تتعلق برحلتهما ، وقد كتب فى إيجاز ، وبتعبيرات عملية ، وخط سريع ، كخطابات الاعمال . ورغب فى أن يرى الرسائل الطويلة مرة اخرى ـ رسائل الايام الخالية !ـ ولكى يبحث عنها فى قاع الصندوق ، عبث بنظام

كل الرسائل الأخرى ، واخذ بحركة آلية ينقب وسط هذا الركام من الورق والأشياء ، مصادفا خليطا من الزهور ، ورباط جورب مما تستعمله النساء ، وقناعا اسود ، ودبابيس ، وشعرا .. شعورا لسمراوات ، ولشقراوات ، اشتبك بعضها بمفصلات الصندوق فتقطعت حين فتحه !

هكذا اخذ يعبث بالتذكارات ، متأملا خطوط واساليب الرسائل المتباينة بتباين كاتباتها : كانت بينهن الرقيقة الحنون ، والبشوش الضاحكة ، والمازحة الماجنة ، والحزينة المكتئبة .. وكانت هناك من ترجو حبا ، ومن تسال مالا .. وبوحى كلمة كان يتذكر وجوها ، وحركات معينة ، ولهجة صوت .. على أنه ، فى بعض الحالات ، لم يكن يتذكر شيئا على الاطلاق ! .. والواقع أن اندفاع هؤلاء النسوة إلى ذهنه مرة واحدة ، جعل كلا منهن تعدو على الأخرى ، وتغض من ذكراها ، حتى لاح انهن جميعا كن فى مستوى واحد من الحب يسوى بينهن . ومن ثم أخذ « رودولف » يغترف الخطابات المختلط بعضها ببعض ، ويتسلى بان يفلتها لتهوى من يده اليمنى إلى يده اليسرى كمياه الشلال .. واخيرا ـ إذ مل وتعب ـ حمل الصندوق فرده إلى الصوان ، قائلا لنفسه : « يا لها من نفايات متراكمة ! » .. وكانت هذه خلاصة رايه . إذ ان الملذات ـ كالتلاميذ فى ساحة المدرسة ـ لم تبق على شىء أخضر فى قلبه لكثرة ما وطانه .. وكل من اجتاز هذا القلب فى طيش وعدم اكتراث ، لم يخلف ـ على العكس من الأطفال فى المدرسة ـ ادنى اثر .. ولا اسمه محفورا على الجدار !

* * *

● وقال « رودولف » لنفسه أخيرا : « هيا ! .. لنبدأ ! » ، ثم كتب ! « تشجعى يا ايما ! .. تشجعى ! .. ما كنت لأحيل حياتك إلى شقاء » .. وحدث « رودولف » نفسه : « هذا حق ، رغم كل شىء .. اننى إنما اعمل لصالحها .. اننى أمين ! » .

وعاد يستأنف الكتابة : « هل تدبرت قرارك بعناية ؟ اتعرفين إلى اية هوة كنت اجرك ايها الملاك المسكين ؟ لا ، اليس كذلك ؟ كنت مقبلة فى ثقة وغير خوف ، مؤمنة بالسعادة فى المستقبل .. آه ! .. ما اتعسنا من اخرقين ! » .. وتوقف « رودولف » هنا ليفكر فى حجة طيبة . هل يكتب : « أن كل ثروتى قد تبددت ! » ؟ .. اوه ، لا .. ثم ان هذا لن يمنع من الأمر شيئا .. لسوف يضطر إلى ان يعود إلى هذا فيما بعد .. وهل فى وسع امرىء ان يحمل هذا الصنف من النساء على الاصغاء لصوت العقل ؟ .. وتروى ، ثم عاد يكتب : « لن انساك قط .. ثقى من هذا .. وساظل ابدا أكن لك ونماء عميقا ، على ان هذا الوجد الجانح لن يلبث يوما — إن عاجلا او آجلا — ان يخف ولا شك (فهذه شيمة العواطف البشرية) ، وعندئذ يعترينا الفتور .. ومن ادرانى باننى قد لا اضطر إلى ان اعانى الألم الفظيع ، الم مشاهدة ندمك ، والمساهمة فيه بنفسى ، ما دمت السبب فيه ؟ .. ان مجرد التفكير فى الحزن الذى سينتابك ، يعذبنى يا ايما ! .. فسامحينى ! لماذا قدر لى ان اعرفك ؟ لماذا كنت جميلة بهذا الشكل ؟ أهو ذنبى ؟ اواه يا الهى ! .. لا ، لا ، لا تتهمى سوى القدر ! » .

وقال لنفسه : « ها هى ذى كلمة تحدث دائما الأثر

المنشود ! » .. واستأنف الكتابة : « آه ! لو انك كنت من أولئك النساء المستهترات اللاتى يصادفهن المرء ، لأقدمت انا بالتأكيد — وبدافع من الأنانية — على خوض هذه التجربة ، لأنها لن تكون ذات خطر عليك فى هذه الحال . ولكن هذه النشوة العذبة ، التى تفتنك وتعذبك فى آن واحد ، حالت بينك وبين ان تفهمى ، ايتها المعبودة ، زيف مركزنا فى المستقبل .. كما لم افكر انا من ناحيتى فى هذا ، فى بداية الأمر ، بل استطبت ظلال هذه السعادة المثالية كما يستطيب المرء ظلال شجرة وارفة ، دون تقدير للتبعات والنتائج ! » .

وقطع رودولف الكتابة ليسائل نفسه : « ربما ظنت اننى اتخلى عنها بدافع من البخل .. آه ! .. لا باس ! لا ضير ! لابد من انهاء الأمر ! » .. ثم استأنف : « إن الدنيا قاسية يا ايما . وكان لابد من ان تضطهدنا اينما ذهبنا . وسيكون عليك ان تتحملى الأسئلة الطائشة المثيرة ، والافتراء ، والازدراء ، وربما الإهانة .. الإهانة التى تمسك ! .. آه ! .. اما انا ، الذى يود لو رفعك إلى عرش ! .. انا الذى احمل ذكراك معى كتميمة ! فلسوف أعاقب نفسى بالنفى والتغرب ، لقاء كل ما فعلت من شر ! سارحل . إلى اين ؟ .. لست أدرى ! .. فلقد فقدت عقلى ! .. وداعا ! .. ولتهنأى دائما بالخير ! احتفظى بذكرى التعس الذى فقدك . لقنى طفلتك اسمى ، ودعيها تردده فى صلواتها » .. واهتز إذ ذاك لهب الشمعتين ، فنهض « رودولف » ليغلق النافذة ، ثم قال لنفسه وهو يجلس ثانية : « يلوح لى ان هذا غاية ما هناك .. آه ! .. لأضف هذه العبارة ايضا ، خشية ان تسعى ورائى

وتضايقنى ! » : « سأكون بعيدا عندما تقرئين هذه السطور الحزينة ، إذ وددت أن أفر بأسرع ما أستطيع ، تخلصا من الإغراء الذى يدفعنى لأن أراك مرة أخرى — فلا ينبغى أن نستسلم للضعف ! — لكنى سوف أعود يوما ، ولعلنا نستطيع فيما بعد أن نتحدث معا ، فى منتهى الهدوء ، عن حبنا القديم . فوداعا ! » .. وعاد يضيف كلمات : « فى رعاية الله » ، إذ رآها تنم عن ذوق بديع ، ثم قال لنفسه : « والآن ، بماذا أوقع الخطاب ؟ .. بكلمة : « الوفى » ؟ .. لا ! بل : « صديقك » ؟ .. أجل ، فليكن ! .. » .. وكتب : «صديقك» .. ثم عاد يقرأ خطابه ، فبدا له مناسبا . وراح يقول لنفسه فى إشفاق : « يا للمرأة الصغيرة المسكينة ! سترانى أقسى من الصخر ! كان لابد من ذرف بعض الدموع على ذلك ، ولكنى لا أستطيع البكاء ، وليس هذا ذنبى » . وما لبث أن صب بعض الماء فى كوب ، ثم غمس أصبعه فيه ، وترك قطرة كبيرة تسقط منه ، فكونت بقعة باهتة على المداد — كأنها دمعة — ثم بحث عن خاتم يحكم به إغلاق الرسالة ، فصادفه الخاتم الذى نقش عليه ! « قلب عاشق » !

— هذا لا يصلح إطلاقا للظرف .. آه ! .. أف ! .. لا بأس !

ودخن بعد ذلك ملء غليونه ثلاث مرات ، ثم أوى إلى فراشه .

* * *

● وعندما استيقظ فى اليوم التالى ، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر — إذ كان قد نام متأخرا — أمر باقتطاف ملء

سلة من المشمش ، ووضع الرسالة فى قاعها ، تحت بعض أوراق الكرم ، ثم أمر «جيرار» — الحوذى — بأن يحملها فورا إلى « مدام بوفارى » ، مترفقا — وكان قد ألف استخدام هذه الطريقة للتراسل معها ، بإرسال بعض الفواكه أو الطيور التى يصطادها إليها ، تبعا للفصل — وقال للحوذى : « إذا سألتك عنى فقل إننى سافرت فى رحلة . ويجب أن تقدم السلة إليها بشخصها ، فى يديها .. هيا ، وكن على حذر ! » .

وارتدى « جيرار » قميصه الجديد ، وعقد منديله حول سلة المشمش ، ثم سار فى خطى ثقيلة واسعة ، منتعلا حذاءيه الطويلين المعززين بالقطع الحديدية ، ويمم شطر (ايونفيل) ، وحين وصل إلى دار « بوفارى » ، كانت ربة البيت تنسق مع « فيليسيتيه » حزمة من الملابس الداخلية ، على منضدة المطبخ ، فقال الحوذى : « هاك شيئا أرسله مخدومنا إليك » .. واستولى عليها جزع ، وفيما كانت تبحث فى جيبها عن بعض القطع النقدية الصغيرة ، أخذت تتأمل الفلاح بعين قلقة ، بينما كان هو نفسه يرمقها فى دهشة ، لا يفقه كيف تؤدى مثل تلك الهدية إلى ارتباك امرىء ما ؟ ! .. وانصرف أخيرا ، بينما بقيت « فيليسيتيه » . ولم تقو « إيما » على الاحتمال ، فهرعت إلى قاعة الجلوس ، متظاهرة بأنها تنقل المشمش إلى هناك ، ثم قلبت السلة ، ونبشت أوراق الكرم ، فعثرت على الرسالة ، وفتحتها ، ثم بادرت هاربة إلى غرفتها مذعورة ، وكأنما كانت خلفها نيران رهيبة تطاردها !

وكان « شارل » موجودا .. رأته ، وتحدث إليها ، ولكنها لم تسمع شيئا ، بل مضت ملهوفة تصعد السلم ،

لاهثة ، شاحبة ، مسلوبة الرشد ، متشبثة طيلة الوقت بتلك الورقة الرهيبة ، التى كانت تقرقع بين أصابعها كأنها صفحة من حديد ! .. وإذ بلغت الطابق الثانى ، توقفت لدى باب مخزن الحبوب ، الذى كان موصدا ، ثم حاولت أن تهدىء من انفعالها .. وتذكرت الخطاب ! .. يجب أن تفرغ منه ، ولكنها لا تجرؤ .. وأين ؟ .. وكيف ؟ .. قد يراها أحد .. وقالت لنفسها : « آه ، لا .. هنا سأكون بخير ! » ، ودفعت الباب ، ودخلت .. وكان السقف ذو الألواح الأردوازية يشع فى الداخل حرارة انصبت عمودية على صدغيها ، فكادت تختنق .. وجرت نفسها إلى كوة مغلقة ، فرفعت رتاجها ، وإذا الضوء الباهر يندفع إلى الداخل .. وأمامها ، كان الريف يمتد خلف أسطح المبانى إلى أقصى مرامى البصر .. وتحت ناظريها مباشرة ، كان ميدان القرية خاويا ، وأحجار الطريق تلمع ، وأجهزة الإرشاد إلى الرياح فوق الدور ساكنة .. وعند ناصية الطريق ، كان ينبعث من مبنى منخفض خرير مسترسل ذو صوت حاد منكر . كان « بينيه » يدير آلاته !

* * *

● واستندت إلى حافة النافذة ، وعادت تقرأ الخطاب فى تهكم غاضب .. وكلما ازداد تركز انتباهها عليه ، ازدادت أفكارها ارتباكا .. وتمثلت «رودولف» مرة أخرى، وسمعته وطوقته بذراعيها فى الخيال ، وأحست بدقات قلبها تتتابع فى عنف خلف صدرها ـ كدقات المطارق ـ وهى تزداد سرعة ، فى فترات غير منتظمة .. وتلفتت حولها وهى تتمنى لو أن الأرض انهارت وتهدمت ! .. لم لا تنهى كل شىء ؟ .. ما الذى



واستندت إلى حافة النافذة ، وعادت تقرأ الخطاب فى تهكم غاضب ..

يصدها ؟ .. إنها طليقة . وتقدمت تطل على الشارع المرصوف ، وهى تقول لنفسها : « هيا ! هيا ! » .. كانت الأشعة المنعكسة عن الأرض تجتذب ثقل جسمها إلى الهاوية ! .. ولاح لها ان ارض الميدان المهتزة — تحت وهج الشمس — ترتفع بطول الجدران، وأن أرض الغرفة تغوص من أقصاها، كسفينة يتقاذفها الموج .. وصارت عند الحافة ، تكاد تكون معلقة فى الهواء ، محوطة بفراغ شاسع .. وبهرتها زرقة السماء ، وأخذ الهواء يلف فى راسها الأجوف ، ولم يكن عليها سوى ان تنصاع .. ان تستسلم .. وزئير مخرطة « بينيه » لا ينقطع ، وكأنه صوت غاضب يدعوها .. وكان « شارل » يصيح ! « يا زوجتى ! .. يا زوجتى ! .. » فأمسكت متريثة ، بينما استطرد « اين انت ؟ .. تعالى ! » .. وكادت تهوى مغشيا عليها لفرط الذعر ، إذ فطنت إلى انها أفلتت من الموت .. فأغمضت عينيها ، ثم ارتجفت إذ أحست بيد تمس كمها .. وكانت يد « فيليسيتيه » التى قالت لها : « إن السيد ينتظرك يا سيدتى ، وقد قدم الحساء على المائدة » .. فاضطرت إلى الهبوط ، وإلى الجلوس إلى المائدة !

وحاولت ان تأكل ، ولكن اللقمات كانت تسد حلقها .. ثم بسطت منشفتها كأنها تفحص مواضع البلى فيها ، وودت فعلا ان تنهمك فى هذا العمل ، فأخذت تحصى خيوط النسيج . وما لبثت ذكرى الخطاب أن عاودتها ، افتراها اضاعته ؟ .. واين تجده ثانية ؟ .. ولكنها احست بهبوط وتقاعس، اقعداها حتى عن ان تنتحل عذرا لتغادر المائدة . وعندئذ غشيها جبن ، وداخلها خوف من « شارل » . من المؤكد انه كان يعلم كل

شىء ! .. والواقع انه قال فى لهجة غريبة : « ليس من المحتمل — على ما يظهر — أن نرى السيد رودولف قبل وقت طويل » ، فقالت مرتجفة : « من قال لك هذا ؟ » ، فأجاب فى دهشة لردها السريع : « من قال لى ! .. عجبا ! .. إنه « جيرار » الذى قابلته لتوى عند باب مقهى « فرانسيه » . لقد سافر « رودولف » فى رحلة ، أو هو على وشك ! » .. وإذ شهقت ، قال : « ما الذى يدهشك فى هذا ؟ .. إنه يرحل هكذا من آن إلى آخر ، للترويح عن نفسه ، ولعمرى ، انى لأراه على صواب .. عندما يكون لدى المرء ثروة ، ويكون اعزب ! .. فضلا عن أن صاحبنا يمتع نفسه ! : .. إنه رجل لهو وعبث .. لقد روى لى السيد لانجلوا .. » ، ثم امسك من قبيل الأدب ، لوجود الخادم التى كانت قد اقبلت واخذت تعيد المشمش المتناثر على الرف إلى السلة . وطلب «شارل» المشمش — غير منتبه إلى احتقان وجه زوجته — وتناول واحدة فأنشب فيها أسنانه وقال : « آه ، رائع! .. تذوقى! » .. وقرب منها السلة ، فدفعتها فى رفق .. وعاد يقول وهو يقرب المشمشة من انفها عدة مرات : « إذن ، شمى .. يا للعبير ! » . فوثبت صائحة : « إننى اختنق ! ».. ثم غالبت النوبة فى جهد وعزيمة ، وقال : « لا شىء .. لا شىء ! .. إنها الأعصاب ! .. الا اجلس ، وكل ».. فقد خشيت ان يشرع فى سؤالها ، وفى العناية بها ، وأن لا تخلو إلى نفسها ابدا !

* * *

● وجلس شارل ليرضيها ، ولفظ بذور المشمش فى راحتيه ، ليضعها بعد ذلك فى طبقه .. وفجأة ، مرت عبر

الميدان عربة زرقاء منطلقة بسرعة ، فندت من «ايما» صرخة ، ثم هوت على الأرض مستلقية على ظهرها ، متيبسة الأطراف ، والواقع أن « رودولف » كان قد قرر — بعد تفكير طويل — ان يرحل إلى (روان) ، ولما لم تكن ثمة طريق بين (لاهوشيت) و (بوشى) سوى (ايونفيل) ، فقد اضطر إلى أن يجتاز القرية ، نعرفته « ايما » على أضواء مصابيح العربة التى مرقت خلال الغسق كالبرق . واسرع الصيدلى «هوميه» إلى الدار ، حين انبعثت الجلبة فيها ، فاذا المائدة قد انقلبت بكل ما عليها من اطباق ، وإذا الصلصة ، واللحم ، والسكاكين، والملح ، وقنينة الزيت ، قد تناثرت فى ارجاء الغرفة .. و « شارل » يصيح طالبا النجدة ، و « بيرت » تبكى مذعورة ، و « فيليسيته » — التى كانت يداها ترتعشان — تفك إزار سيدتها التى كان جسمها كله يختلج فى تشنج .. وقال الصيدلى : « سأجرى إلى معملى لأحضر بعض خل الورد » .

وإذ فتحت « ايما » عينيها ، حين تنسمت الزجاجة ، قال : « كنت واثقا من أن هذا كفيل بان يوقظ الميت ! » . وقال شارل : « كلمينا .. افيقى .. ها أنذا ، شارل حبيبك .. الذى يحبك ! .. افعرفتنى ؟ .. انظرى ! .. هاك ابنتك الصغيرة ! .. الا قبليها ! » ، وبسطت الطفلة ذراعيها نحو امها لتتعلق برقبتها ، ولكن « ايما » اشاحت عنها ، وقالت فى صوت متهدج : « لا ، لا .. لا اريد احدا ! » .. وأغمى عليها مرة اخرى، فنقلت إلى سريرها ، حيث ظلت ممددة فاغرة الفم، مطبقة الأجفان ، مفتوحة الراحتين ، بلا حراك ، وقد ابيض لونها كتمثال من الشمع .. وكانت الدموع تجرى من عينيها ،

وتسقط فى بطء على الوسادة .. وكان « شارل » واقفا فى اقصى المخدع — والصيدلى على مقربة منه — وقد اخلد إلى ذلك الصمت المليء بالتفكير ، الذى يرتاح إليه المرء فى ظروف الحياة الخطيرة .. وما لبث الصيدلى أن قال وهو يلمس مرفقه: « اطمئن .. اعتقد أن النوبة قد انقضت » . فاجاب « شارل » وهو يراقبها فى نومها : « أجل ، إنها الآن ترتاح قليلا .. يا للمسكينة ! .. مسكينة ! .. لقد استغرقت الآن فى النعاس ! » .

وإذ ذاك تساءل « هوميه » كيف وقع الحادث ، فاجاب « شارل » بأن المرض دهمها فجأة وهى تأكل بعض ثمار المشمش . فقال الصيدلى : « عجيب ! .. ربما كان المشمش سبب الإغماء ، فمن الناس من أوتوا طبيعة حساسة تأثر من بعض الروائح ، وهو موضوع ممتع للدرس ، سواء من ناحية علم طبيعة الأمراض ، او من ناحية طبيعة الأجسام . ولقد عرف الكهنة ما لهذا من اهمية ، فاذا هم يطلقون البخور دائما فى طقوسهم ، وذلك لتخدير الحواس ، ولإحداث الانجذابات الروحية . وهو أمر سهل جدا ، لا سيما مع افراد الجنس اللطيف ، إذ أنهن ارق من غيرهن . بل يقال إن هناك من يصاب بالاغماء لرائحة الذرة إذ تشوى ، او لرائحة الخبز الطازج .. » . فقال « بوفارى » بصوت خفيض : « حذار ، وإلا ايقظتها ! » .. واستطرد الصيدلى قائلا : « وليس الآدميون وحدهم عرضة لمثل هذا الشذوذ ، بل الحيوانات كذلك . وما اظنك تجهل ما لمادة « النبيتا كاتاريا » — التى يسميها العامة « حشيش القط » — من مفعول عجيب فى إثارة

الحواس الجنسية لدى حيوانات الفصـــيلة القطية . كما ان هناك مثلا أستطيع ان أؤكد صحته ، فان « بريدو » — وهو من اصدقائى القدامى ، وقد استقر الآن فى شارع (مالبالو) — يمتلك كلبـا تنتابه التشنجات بمجرد ان تمســك امامه علبة سعوط ! وكثيرا ما يجرى هذه التجربة بمشهد من اصدقائه فى البيت الذى اقامه للاستجمام فى غابة جيوم . فهل يصدق احد ان مادة للعطاس كهذه تحدث مثل هذا الضرر بأجهزة جسم حيوان من ذوات الأربع ؟ .. إنه أمر غـاية فى الغرابــة .. اليس كذلك ؟ » .

فقال « شارل » الذى لم يكن ينصت إليه : « اجل » .. فاستأنف الآخر حديثه مبتسما فى شىء من الرضى عن النفس : « هذا يبين لنا الوان الشذوذ التى لا حصر لها ، فى الجهـاز العصبى . اما بالنسبة للسيدة ، فاعترف انها تبدو لى دائما مرهفة للغاية . ومن ثم فلست انصحك ياصديقى العزيز بشىء من تلك الأدوية المزعومة التى تؤثر على التركيب الجسمى ، تحت زعم التأثير على الأعراض . لا ، لاداعى لأدوية لا نفع لها ! بل يكفى اللجوء إلى تنظيم التغذية ، وهذا غاية ما فى الامر ! .. وهناك بعض المسكنات والملينات ، والملطفات .. ثم ، الا ترى ان من المحتمل ان يكون الوهم مستوليا عليها ؟ » .. فتســاءل « بوفارى » : « من اية ناحية ؟ » .

— آه ، هذه هى المسالة ! .. هذه هى المشكلة فعلا ! .. كما قرات اخيرا فى الصحيفة ..

* * *

● على ان « ايمـــا » لم تلبث ان افـــاقت صـــائحة : « الخطاب ! .. الخطاب ! » . وخيل إليهمـــا انها تهذى .. وكان الليل قد انتصف .. ثم ثبت انها اصيبت بحمى مخية .. وظل « شارل » لا يفارقها ثلاثة وأربعين يوما ، وقد أهمل كل مرضاه ، ولم يعـــد ينام فى فراشه .. كان لا ينفك يتحسس نبضها ، ويضع اللصقات والمكمدات بالماء البارد . وكان يوفد « جوستان » إلى (نيوشاتل) بحثا عن الثلج ، فكان الثلج يذوب فى الطريق ، فيوفده من جديد ! .. واستدعى الســـيد « كانيفيه » لاستشـــارته ، واحضر من (روان) الدكتـــور «لاريفيير» استاذه القديم .. كان قانطا . وكان اشد ما ازعجه ضعف « ايما » وخورها ، حتى انها كانت لا تتكلم ، ولا تسمع شيئا .. بل كان يلوح انها لا تحس بالألم ! .. وكأنمـــا كان جسدها وروحها قد أخلدا معا إلى الراحة بعد كل متاعبهما ..

وحوالى منتصف اكتوبر ، اصبح فى وسعها ان تجلس فى سريرها ، تحوطها الوسائد . وبكى «شارل» حين رآها تأكل اول لقمة من الخبز والمربى . واخذت قواها تعـــود إليهـــا ، فاستطاعت ان تبرح سريرها لبضع ساعات بعد ظهـــر كل يوم . وعندما تحسنت ، حـــاول يوما ان يصحبها لتتمشى فى الحديقة معتمدة على ذراعه . وكانت رمال دروب الحديقة قد اختفت تحت أوراق الشجر الجافة .. وســـارت « ايما » فى بطء تجر خفيها ، مستندة إلى كتف « شارل » ، وكانت تبتسم طيلة الوقت .. وسارا حتى اقصى الحديقة ، على مقربة من رصفة السور .. وكانت هى تتحامل على نفسها فى تؤدة ،

وقد اظلت عينيها بيدها لتستطيع أن تبصر . وارسلت بصرها بعيدا ، إلى أبعد ماوسعها ، ولكن ، لم تلمح عند الأفق سوى نيران هائلة تبعث دخانها فوق التلال .. النيران التى اوقدت لاجتثاث الأعشاب .

وقال بوفارى : « لسوف تتعبين نفسك يا حبيبتى ! » . ودفعها برفق ليحملها على دخول الخميلة ، قائلا : « اجلسى على هذا المقعد ، لتستريحى » . فقالت فى صوت واهن : « لا ! .. لا ! .. ليس هنا » . وتولاها دوار ، وعاودها مرضها منذ تلك الليلة ، بشكل لا تتضح منه حقيقته ، وباعراض غامضة ، غير جلية ! فهى تألم احيانا من قلبها ، واحيانا من صدرها ، ومن راسها ، ومن اطرافها .. وكانت تنتابها نوبات قىء ، خيل لشارل انه راى فيها مبادىء السرطان .. وكان المسكين — علاوة على كل هذا — يعانى الهموم من جراء المسائل المالية !

الفصل الرابع عشر

● كان — اولا — لا يدرى كيف يدفع للسيد « هوميه » نفقات كل الادوية التى امده بها .. ومع انه — كطبيب — لم يكن ملزما بدفع أثمانها ، إلا انه كان يخجل من مثل هذا الدين . ثم كانت هناك نفقات بيته ، فان الطاهية حين غدت ربة للبيت صارت « فظيعة » فى إسرافها .. واخذت كشوف الديون تتدفق على البيت ، وشرع التجار يتذمرون ، بل إن السيد « لوريه » — بوجه خاص ، راح يزعجه . والواقع انه — فى عنفوان مرض «ايما» — استغل الظروف ليزيد من قيمة دينه ، فأسرع باحضار المعطف ، وحقيبة السفر الصغيرة ، وحقيبتين كبيرتين بدلا من واحدة ، وعدة أشياء اخرى ، وكان من السهل على « شارل » أن يقول إنه لا يريدها ، ولكن التاجر أجاب فى تحرش بأنها طلبت منه ، فلا يستطيع أن يستردها .. فضلا عن ان هذا قد يسوء السيدة فى فترة نقاهتها ، ومن ثم يخلق بالسيد ان يفكر جيدا فى الأمر . ومجمل القول انه كان مصرا على أن يرفع الأمر إلى القضاء ، حتى لا ينزل عن حقوقه ويسترد السلع . وإزاء هذا أمر « شارل » من ناحيته برد السلع إلى حانوت التاجر .. ولكن « فيليسيتيه » نسيت ، وشغل هو بأمور اخرى ، فلم يعد يفكر فى ذلك . وعاد مسيو « لوريه » إلى المطالبة ، مهددا مرة ، ومتباكيا اخرى ، حتى افلح بمناوراته فى حمل « بوفارى » على توقيع سند تعهد فيه بالدفع فى خلال ستة شهور . على انه لم يكد يوقع ، حتى خطرت له فكرة جريئة : تلك هى أن يقترض الف فرنك من « لوريه » . ومن ثم سأله محرجا إن كان من الميسور أن

يوافيه بهذا المبلغ ، على ان يعتبر هذا الدين لمدة عام ، وباية فائدة يريد احتسابها ! فهرع « لوريه » إلى متجره ، وعاد بالمبلغ ، واملى وثيقة اخرى تعهد فيها « بوفارى » بأن يدفع لأمره فى أول سبتمبر التالى الفا وسبعين فرنكا ، إذا اضيفت إلى المائة والثمانين التى اتفقا عليها من قبل ، غدا المجموع الفا ومائتين وخمسين . وهكذا ، باحتساب الفائدة بسعر ستة فى المائة ، فضلا عن عمولة بمعدل الربع ، إلى جانب ربح فى السلع يصل إلى الثلث على الأقل ، فان هذه الصفقة كانت كفيلة بأن تدر على التاجر فى اثنى عشر شهرا ربحا قدره مائة وثلاثين فرنكا . وراوده الأمل فى أن لا تقف المسألة عند هذا الحد ، وأن لا يدفع الدين ، ومن ثم يتجدد ، وهكذا يتغذى المبلغ الهزيل لدى الطبيب — كما لو كان فى مصحة ! — فيعود إليه سمينا ، تتفتق لبدانته حافظته !

وفوق ذلك ، فان كل أموره اخذت تزداد نجاحا ، فقد فاز فى مناقصة توريد شراب التفاح — « السيدر » — لمستشفى (نيوشاتل) ، ووعده السيد «جيومان» ببعض أسهم فى مناجم (جومسنال) ، فاخذ يحلم بانشاء نظام جديد للمواصلات السريعة بين (اركوى) و (روان) ، لن يلبث أن يقضى ولا شك على العربة المتداعية التابعة لفندق « الأسد الذهبى » . كما أن السفر السريع ، بنفقات زهيدة ، مع إمكان اصطحاب مزيد من المتاع ، سيضع فى يديه كل تجارة (ايونفيل) .

* * *

● وسأل « شارل » نفسه مرات عديدة : انى له ان يدفع مثل هذا المبلغ فى العام المقبل ؟ .. وراح يفكر ، ويتصور

سبلا للعون ، كأن يلجأ إلى ابيه ، او يبيع شيئا .. ولكن اباه كان يصم اذنيه ، كما أنه لم يكن يمتلك شيئا يباع .. وكان إذ ذاك يتصور المتاعب المقبلة فيبادر إلى إقصاء مثل هذا الموضوع غير المستحب عن ذهنه ، ويلوم نفسه لنسيانه « ايما » كأنما كانت كل افكاره ملكا لهذه المرأة ، بحيث يكون عدم قصر افكاره عليها باستمرار ، استلابا لبعض حقوقها !

● وكان الشتاء قارسا ، ونقاهة مدام بوفارى بطيئة . وكانت — إذا تحسن الجو — تدفع فى مقعدها إلى النافذة المطلة على الميدان ، إذ اصبحت تشعر بنفور نحو الحديقة ، حتى اصبحت المصاريع المطلة عليها مغلقة على الدوام . ورغبت فى ان يباع الجواد .. واصبح كل ما اعتادت ان تحبه فى الماضى ، يسوؤها الآن ! ولاح كأنما اقتصرت كل افكارها على العناية بنفسها ، فكانت تمكث فى الفراش ، مقتصرة على تناول وجبات خفيفة ، وتدق الجرس للخادم لتسألها عن شرابها أو لتثرثر معها . وكان الجليد المتراكم على سقف السوق يعكس على الحجرة ضوءا ناصعا ، ساكنا .. ثم بدأ موسم الأمطار ، فكانت « ايما » ترتقب فى غرفتها يوميا — بذهن مفعم بالتلهف — الأنباء التى لابد منها عن بعض الأحداث التافهة التى لا علاقة لها بها ، وكان اهمها وصول « العصفورة » فى المساء ، فكانت ربة الفندق ترفع إذ ذاك عقيرتها بالصياح ، فترد عليها الأصوات الأخرى .. بينما يومض مصباح « هيبوليت » كالنجمة فى الظلام ، وهو يخرج الصناديق من مؤخرة العربة .. وكان « شارل » يفد عند الظهيرة ، ثم يعود للخروج ، وتتناول

هى — عقب ذلك — بعض الحساء .. وحوالى الساعة الخامسة ، يبدأ النهار فى الرحيل ، ويعمد الأطفال العائدون من المدرسة — وهم يجرون نعالهم الخشبية على الرصيف — إلى طرق «شناكل» المصاريع بمساطرهم ، واحدا بعد الآخر ..

تلك كانت الساعة التى اعتاد الأب « بورنيسيان » أن يفد فيها ليراها ، فيسأل عن صحتها ، ويفضى إليها بالانباء ، ويرشدها إلى أمور دينها ، فى صوت خافت ، رخيم ، لا يخلو من سحر . بل إن مجرد التفكير فى مسوحه ، كان يشيع فى نفسها ارتياحا . ولقد حدث ذات يوم — فى عنفوان مرضها — أن ظنت أنها تحتضر ، فطلبت أن تتناول القربان المقدس ، وبينما كانت الإجراءات تتخذ فى غرفتها لاعدادها للمراسم ، وقد حولت المنضدة الحافلة بأنواع الشراب إلى مذبح ، وأخذ فى نثر زهور « الداليا » على الأرض ، شعرت « ايما » بشىء قوى يمر عليها ، فيستل منها آلامها ، وكل فكر ، وكل حس .. وإذ تخفف جسدها من الفكر ، بدأت حياة أخرى ، فخيل إليها أن كيانها يرقى صاعدا إلى الله ، حيث يتلاشى فى ذلك الحب ، كالبخور المحترق إذا ما انصهر وغدا بخارا . ونثر الماء المقدس على الفراش ، وأخرج القس من العلبة المقدسة رقاقة الخبز الربانى الأبيض ، فانتشت « ايما » بهذه الغبطة السماوية ، حتى أنها مدت شفتيها لتتلقى « جسد المخلص » الذى قدم إليها . وكانت ستائر المخدع تتطاير حولها فى رفق كأنها السحب ، والشمعتان المشعلتان على المنضدة تتألقان كأنهما هالتان باهرتان .. وما لبثت أن طوحت برأسها إلى الخلف ، متوهمة أنها تسمع فى الفضاء أنغام الموسيقى الملائكية ..

وفى السماء اللازوردية — على عرش ذهبى وسط قديسين ممسكين بالسعف الأخضر — خيل إليها أنها تلمح ، الله ، الأب ، محوطا بالجلال ، وقد أوفد إلى الأرض — باشارة منه — ملائكة ذوو أجنحة من لهب ، ليحملوها فى أحضانهم صاعدين ..

* * *

● واستقرت هذه الرؤيا الرائعة فى ذاكرتها كأجمل ما يمكن أن يرى فى الأحلام ، ومن ثم راحت تجاهد لتستجمع حواسها ، التى ظلت باقية رغم ذلك ، وإن كانت قد فقدت الكثير من طابعها الشخصى ، واكتسبت رقة وعذوبة عميقتين . ووجدت نفسها ، التى عذبها الغرور ، راحة فى التواضع المسيحى ، فلما تذوقت لذة الضعف ، رأت انهيار الإرادة فى أعماقها ، مما فتح ولا بد طريقا واسعا إلى المسالك المفضية إلى النعم الإلهية والتسامح الربانى .. وفى مكان السعادة ، قامت مباهج أعظم .. حب يفوق كل حب ، لا ينقطع ولا ينتهى ، وإنما يظل فى نمو إلى الأبد ! .. وأبصرت وسط رؤى الأمل الخيالية ، حالة من الطهر والنقاء ، تطفو فوق الأرض ، وتختلط بالسماء ، فتاقت إلى أن ترقى إليها .. تمنت أن تغدو قديسة .. وابتاعت مسابح ، وحملت الأحراز والتمائم ، ورغبت فى أن يوضع فى حجرتها — إلى جوار سريرها — صندوق للذخائر القدسية ، مرصع باليواقيت ، لتقبله فى كل ليلة ..

وانتشى القس بهذه الروح ، وإن خال أن تدين « ايما » قد ينتهى — لفرط تحمسها — إلى التخبط بين البدع والمغالاة .. وإذ لم يكن على تفقه كبير بهذه الأمور ، فقد بادر بمجرد تجاوزها حدا معينا ، بالكتابة إلى السيد «بولار» — بائع كتب

المطران ـ يسأله أن يوافيه بما « يصلح لسيدة جمة الذكاء » . وفى غير اكتراث ــ كما لو كان يرسل سلعا لزنـــوج ــ حزم المكتبى كل الكتب الدينيـــة التى كانت مقروءة إذ ذاك ، دون تمييز .. فاذا هى بعض الكتب الموجزة لتعليـــم الدين عن طـــريق الأسئلة والإجابـــات ، وبعض النشرات التى كتبت بأسلوب متهجم على طريقة « مسيو دى ميستر » ، وبعض روايات ذات اغلفة وردية ، واسلوب معسول ، من وضـــع رجال الاكليروس الشـــعراء الفرســـان ، أو التائبين ذوى الجوارب الزرقاء .. فكان بينها : « فكر فى هذا جيدا » ، و « رجل الدنيا عند قدمى مريم، بقلم السيد ... ، مزينا ببعض الدرجات الكهنوتية » ، و « اغلاط فولتير ، ليفيد منها الشباب » .. الخ . ولم يكن ذهن مدام بوفارى قد صفا إلى الدرجة التى تجعلها تعكف جادة على اى شىء ، فضلا عن انها بدأت قراءة هـــذه الكتب فى عجلة لا تسمح باستيعابهـــا .. فسرعـــان ما ضايقها فقه اصول الدين ، وساءتها حدة المؤلفات الجدلية ، لإمعانها فى مهاجمة اناس لم تكن تعـــرف عنهم شـــيئا .. اما القصص الدنيوية الموضوعة لاغراض دينيـــة ، فقد لاح لهـــا ان تاليفها قام على جهل بالدنيا ، حتى انها جعلتهـــا تنفر من الحقائق التى وضعت لإثباتهـــا ! .. ولكنهـــا ــ مع ذلك ــ واظبت على القراءة .. وكانت ــ إذا انزلق الكتاب من يدها ــ تتوهم نفسها وقد تملكتها أرق ألوان الأسى الكاثوليكى التى يمكن ان تصل إليها روح متسامية ..

* * *

● اما عن ذكرى « رودولف » فقد طوحت بها إلى قاع

قلبها ، فظلت هناك اكثر جلالا وجمودا من مومياء ملك فى مقبرة اثرية ! .. كان يتصاعد من هذا الغرام المحنط عبير يتخلل كل شىء ، ويعبق بالحنان ذلك الجو القدسى الذى كانت تصبو إلى أن تعيش فيه . وكانت إذا ركعت فى مركعها الذى صنع على الطراز القوطى ، وجهت إلى الرب عين الكلمات الوالهة التى كانت تتمتم بها فيما مضى إلى حبيبها ، فى فوارت مجونها .. كانت تفعل ذلك لتجتذب الايمان ، ولكن شيئا من المباهج لم يكن يهبط عليها من الســماء ، فكانت تنهض وقـــد اضنى الركوع اطرافها ، وتولاها شـــعور غامض بأنها مغبونة إلى درجة هائلة .. وكانت ترى أن هذا السعى وراء الايمان ليس سوى فضيلة واحدة من الفضائل ، فأخذت فى عنفوان زهوها بولائها وتقواها ، تقارن نفســـها بأولئك السيدات الجليلات اللائى عشن فى الماضى البعيـــد ، واللائى كانت تحلم بمجدهن إذا ما رأت لوحة من لوحات « لافاليير » ، واللائى كن يجررن اذيالهن الموشاة بالدانتيلا ، فى جلال عارم ، وهن يأوين إلى خلواتهن ليرقن على قدمى المسيح دموع قلوبهن التى جرحتها الحياة !

وتحولت بعد ذلك تكرس نفسها لعمل الخير على نطاق واسع . فكانت تخيط الثياب للفقراء ، وترسل الوقود للنسوة اللائى فى المخاض . ووجد «شارل» ــ عند عودته إلى البيت ذات يوم ــ ثلاثة من الأفاقين جالسين إلى المـــائدة فى المطبخ يتناولون الحساء . وأمرت باستعادة ابنتها ـ التى كان زوجها قد أرسلها ثانية إلى المربية ابان مرضهـــا ــ إذ رغبت فى ان تعلمها القراءة . ولم تعد تضيق بكثرة بكاء « بيرت » ، فقد

وطنت نفسها على التسامح والرحمة الشاملين . واصبح حديثها عن كل شىء مليئا بالمصطلحات المثالية ، فكانت إذا سألت ابنتها عن حالها ، قالت : « هل فارقك المغص .. يا ملاكى ؟ » . ولم تعد مدام بوفارى الأم تجد ما تنتقده اللهم سوى ذلك الانصراف التهوسى إلى نسج السترات لليتامى بدلا من أن ترتق بياضات منزلها .. ولكن النزاع العائلى كان قد اضنى العجوز الطيبة ، فراق لها هذا البيت الهادىء ، حتى لقد مكثت إلى ما بعد عيد الفصح ، فرارا من سخريات « بوفارى » المسن الذى لم يتخل قط فى يوم الجمعة اليتيمة عن طلب سجق من امعاء الخنزير !

* * *

• وإلى جانب صحبة حماتها ، التى قوت من عزيمتها بعض الشىء بصواب آرائها ، ورزانة اساليبها ، اصبحت « ايما » تستقبل كثيرا من الزائرات فى كل يوم تقريبا ، وكانت من هؤلاء مدام لانجلوا ، ومدام كارون ، ومدام دوبروى ، ومدام توفاش .. وفيما بين الساعة الثانية والساعة الخامسة من بعد الظهر — بانتظام — كانت تستقبل مدام « هوميه » الفاضلة ، التى لم تصدق قط — من ناحيتها — شيئا من النميمة التى كانت تقال عن جارتها ! وكان ابناء « هوميه » يأتون ايضا لزيارتها ، يصحبهم « جوستان » ، فكان يصعد معهم حتى مخدعها ، ويظل واقفا بجوار الباب ، لا يحير حراكا ، ولا ينبس ببنت شفة ، حتى لقد كانت مدام بوفارى كثيرا ما تشرع فى زينتها ، غير عابئة به . وكانت تبدأ بتناول مشطها ، فتهز شعرها بحركة سريعة . وعندما رأى للمرة

الأولى كل ذلك الشعر الغزير الذى انسدل إلى ركبتيها فى خصلات سوداء ، خيل للفتى المسكين انه وقف فجاة على شىء جديد ، غريب ، ارهبه بهاؤه !

ولا شك فى ان « ايما » لم تكن تلاحظ اهتمامه الصامت ، ولا تهيبه الخجول ، فما خطر ببالها ان الحب الذى تلاشى من حياتها كان قائما ينبض إلى جوارها ، تحت القميص الخشن ، فى ذلك القلب المراهق الذى تفتح على عبير جمالها ! .. ثم انها اصبحت تلف كل شىء بغلالة من عدم الاكتراث ، فغدت لها تعبيرات رقيقة متلطفة ، تصحبها نظرات متكبرة مترفعة ، واساليب متناقضة من هذا القبيل ، تجعل المرء عاجزا عن ان يميز فيها بين الأنانية والخير ، وبين الفساد والتقوى . ففى ذات مساء — مثلا — غضبت من الخادم التى طلبت الإذن بالخروج ، وتلعثمت حين همت بأن تنتحل عذرا .. وفجاة ، سألتها « ايما » : « إذن فأنت تحبينه ؟ » .. واستطردت دون أن تنتظر ردا من « فيليسيتيه » — التى تضرج وجهها حياء : « هيا .. أجرى .. متعى نفسك ! » .

وأمرت — فى مطلع الربيع — بأن تقلب ارض الحديقة من اولها لآخرها ، رغم معارضة « بوفارى » .. على انه اغتبط — مع ذلك — إذ رآها اخيرا تبدى رغبة ، ايا كانت هذه الرغبة ! واخذت كلما ازدادت قوة ، تبدى مزيدا من العناد والصلابة .. فبدأت بانتهاز فرصة لطرد الام « روليه » — المربية — التى كانت خلال نقاهتها قد اعتادت الاكثار من التردد على المطبخ مع الرضيعين والصغار الذين فى حضانتها ، والذين اوتوا اسنانا تفوق اسنان اكلة البشر ! .. ثم تخلصت

من زيارات أسرة « هوميه » ، وسرحت الزائرات الأخريات تباعا ، بل وغدت اقل مثابرة على التردد على الكنيسة ، مما تحمس الصيدلى لتحبيذه ، فقال لها فى لهجة ودية : « لقـد كنت موشـكة ان ترتـدى المسـوح ! » .. على ان الاب « بورنيسيان » ظل يتردد عليهـا يوميا – كعادته من قبل – بعد أن يفرغ من تلقين الدين لتلاميـذه الصغار . وكان يؤثر البقاء خارج جدران البيت ، ليستنشق الهواء فى « البستان » كما كان يسمى الخميلة .. وكان هذا موعد عودة « شارل » إلى البيت . وحين كانا يشعران بالحر ، كان يؤتى بشراب التفاح الخفيف ، ويشربان معا نخب اكتمال شفاء السيدة ..

وكان « بينيه » يحضر هذه الجلسات .. او بالأحرى ، كان يصيد السمك ، على مسافة بسيطة من سياج الحديقة ، فيدعوه « بوفارى » إلى كأس .. وكان خبيرا بفض سدادات القنينات المصنوعة من الفخار ، فيقول وهو يلقى نظرة راضية على كل ما حوله ، إلى آخر أطراف المنظر : « يجب أن تمسك الزجاجة فى وضع رأسى على المنضدة ، وبعد أن تقطع الخيوط ، اضغط السدادة إلى أعلى ، فى دفعات بسـيطة ، فى رفق ، وشيـئا فشيئا ، كمـا يفعلون فى المطاعم لفض سدادات زجاجات الميـاه المعدنية » .

● لكن شراب التفاح كثيرا ما كان يندفع – خلال هـذا الشرح – متناثرا على وجوههم ، فلم تكن النكتة تفوت رجل الدين قط ، بل كان يقول وهو يطلق ضحكة غليظة : « ان جودته تقفز إلى البصر ! » .. كان رجلا طيبا ، فلم يستنكر ما نصح به الصيدلى شارل – ذات يوم – من أن يتيح

لزوجته شيئا من الترويح يسليها ، بأن يصحبها إلى المسرح فى (روان) ليسمعا المغنى الشهير « لاجاردى » ، ودهش « هوميه » لصمت القس ، فأراد أن يعرف رأيه ، وإذ ذاك صرح القس بأنه يرى الموسيقى اقل خطرا على الأخـلاق من الأدب .. غير أن الصيدلى انبرى يدافع عن الأدب ، فقال : إن المسرح يعمل على محاربة الخرافات والأباطيل ، وانه يدعو إلى الفضيلة من تحت ستار اللهو . ومضى يقول : « إنه يقوم العادات عن طريق الضحك يا سيد بورنيسيان ! .. الا تأمل الدور الجليل الذى لعبته مسرحيات «فولتير » .. لقد رصعت بالأفكار الفلسفية ببراعة ، مما جعلها مدرسة يتلقى عنهـا الشعب الأخلاق والديبلوماسية » .

فقال « بينيه » : لقد شهدت مرة مسرحية كان اسـمها «فتى باريس» ، ترى فيها شخصية ضابط كبير مسن ، يضرب ضربا مبرحا ، إذ يتشاجر مع شاب مدلل اغوى عاملة ، أقدمت فى النهـاية .. » ، فقاطعة « هوميه » مواصلا حديثه : « من المؤكد ان ثمة ادبا سيئا ، كما أن هناك صيدلة سيئة ، ولكنى ارى أن اتهام اهم الفنون الجميلة – فى مجموعه – بالافساد ، بلاهة .. تعصب اعمى يليق بذلك العصر البغيض الذى قضى فيه على « جاليليو » بالسجن ! » .. فقال القس معارضا : « إننى اعرف تماما ان هناك مؤلفات طيبة ، ومؤلفين طيبين ، ولكن .. لو ان الأمر اقتصر على تلك الشخصيات من الجنسين المختلفين ، تجتمع فى غرفة فاتنة ، مزينة بأسباب الترف الدنيوية ، وتلك الأصوات الناعمة .. فان كل هذا لابد أن يؤدى على طول الزمن إلى شىء من الفجور الذهنى ،

ويثير افكارا بعيدة عن الحشمة ، وإغراءات غير طاهرة .. هذه ، على اية حال ، فكرة رجال الدين جميعا » . ثم اردف وقد اتخذ نجاة لهجة رجل الدين ، وهو ينسق على ابهامه قبضة من السعوط : « واخيرا ، إذا كانت الكنيسة تستنكر المسرح ، فلابد ان لديها ما يبرر ذلك ، وعلينا أن نرضخ لأوامرها » .. فتساءل الصيدلى : « ولماذا تقضى الكنيسة على الممثلين بالحرمان .. فى حين انهم كانوا فيما مضى يساهمون جهرا فى الطقوس الدينية ؟ .. اجل كانوا يمثلون ويقدمون فى قلب المحراب انواعا من التهريج اسموها اسرارا ، وكانت قوانين الحشمة والحياء كثيرا ما تنتهك فيها ! » .. واكتفى رجل الكنيسة بأن بعث انينا خافتا ، بينما مضى الصيدلى يقول : « كذلك الحال فى التوراة ، فهناك .. كما تعلم .. اكثر من رواية شائكة ، عن اشياء .. فى الواقع .. خليعة ! » .. وإذ صدرت من الأب « بورنيسيان » حركة منفعلة ، قال : « آه ! .. إنك ولابد تقر بأنه كتاب ينبغى ان لا يوضع بين يدى فتاة صغيرة .. ولسوف يغضبنى ان « اتالى » .. » . فصاح الآخر وقد نفد صبره : « ولكن البروتستانت — لا نحن — هم الذين يفرضون التوراة » .

فقال «هوميه» : هذا لا يهم .. إننى لأدهش إذ ارى فى ايامنا هذه ، فى عصر النور ، من لا يزال يصر على ان يلعن — دون تبصر — وسيلة من وسائل الترويح الذهنى ، لا ضرر منها ، وإنما هى خلقية ، بل وصحية احيانا .. اليس كذلك يا دكتور ؟ » .. فأجاب الطبيب فى غير اكتراث — إما لانه كان يعتنق الراى ذاته ولم يشا ان يغضب احدا ، او لانه لم

يكن على راى ما البتة : « بلا شك ! » .. ولاح ان النقاش اوشك أن ينتهى ، عندما راق للصيدلى ان يطلق سهما اخيرا من جعبته ، فقال : « اننى لأعرف قساوسة يرتدون الثياب العادية ، ليسعوا إلى رؤية الراقصات وهن يحركن سيقانهن ! » .. فقال القس : « كفى ، كفى ! » .. فعاد «هوميه» يكرر : « اجل عرفت بعضهم ! » ، ثم ردد العبارة ، مفرقا كلماتها : « عرفت .. بعضهم ! » .. فقال « بورنيسيان » ، موطنا نفسه على ان يسمع اسوا ما فى الأمر : « فليكن .. لقد كانوا على خطا ! » .. وصاح الصيدلى : « لعمرى .. إنهم لياتون ما هو اكثر من هذا ! » ، فاجاب رجل الكنيسة : « سيدى ! » ، وتبدى فى عينيه غضب أرهب الصيدلى ، فقال فى لهجة اقل قسوة : « إنما قصدت أن اقول إن التسامح هو اضمن الطرق لاجتذاب الناس إلى الدين » .. فاجاب الرجل الصالح : « هذا حق ! .. هذا حق ! » .. وعاد يجلس فى مقعده ، ولكنه لم يمكث سوى لحظات قلائل ..

وما إن انصرف ، حتى قال السيد هوميه للطبيب : « هذا ما يسمى صراع الديكة ! .. لقد مرغته فى الهزيمة ، كما رايت ! .. على اية حال ، صدقنى واصطحب السيدة إلى المسرح ، ولو لتغيظ مرة فى حياتك واحدا من هؤلا الغربان المناكيد ! .. لو اننى وجدت من يقوم بعملى ، لصحبتكما بنفسى ! .. ولا تضيعا الوقت ، فان « لاجاردى » لن يقيم سوى عرض واحد ، لانه متعاقد فى إنجلترا لقاء اتعاب ضخمة .. إنه — على ما يؤكدون — يطير إلى حيث يكون المال ! ..

إنه ليتمرغ فى الذهب ! .. ولسوف يصحب معه ثلاث عشيقات وطاهية ! .. إن هؤلاء الفنانين الكبار جميعا يوقدون الشمعة من طرفيها ، فهم يسعون إلى حياة داعرة تتمشى بعض الشىء مع خيالهم ، حتى إذا حان اجلهم ، ماتوا فى المستشفيات ، لأنهم لم يؤتوا من التعقل فى شبابهم ما يوحى إليهم بالادخار والاقتصاد ! .. والآن ، طاب عشاؤك ، وإلى الغد ! » .

* * *

● اخذت فكرة المسرح تختمر سريعا فى راس «بوفارى» ، فبادر بنقلها إلى زوجته ، التى رفضت فى البداية ، متعللة بالتعب والخور والنفقات .. ولكن « شارل » — على غير عادته — لم يتراجع . فقد قدر ان هذا النوع من الترفيه سيكون عظيم النفع ، ولم ير ما يحول دونه ، إذ كانت أمه قد ارسلت لهما ثلاثمائة فرنك لم يكن شديد الحاجة إليها بعد أن قلت ديونه الجارية ، كما ان موعد استحقاق سندى « لوريه » كان بعيدا بحيث لا تدعو الحاجة إلى التفكير فيهما فى الوقت الراهن . هذا فضلا عن انه توهم أن « ايما » كانت ترفض من قبيل المجاملة او الاشفاق ، فازداد إصرارا ، حتى انتهت إلى ان لا خلاص من إلحاحه إلا بالقبول .. من ثم رحلا فى الساعة الثامنة من اليوم التالى ، مستقلين « العصفورة » ، وتنهد الصيدلى إذ رآهما يتحركان ، فما كان ليبقيه فى (ايونفيل) سوى شعوره بأن ليس فى وسعه ان يتزحزح عنها .. وقال لهما : « هيا .. رحلة طيبة ايها السعيدان ! » .. ثم خاطب « ايما » — التى كانت ترتدى ثوبا من الحرير الأزرق ذا اربع ثنيات — قائلا : « انك لتبدين فى جمال آلهة الجمال ، وما احسبك إلا ستبهرين روان ! » .

ونزلا فى فندق « الصليب الاحمر » بميدان (بو فوازان) . وكان ككل فنادق الريف ، ذا حظائر كبيرة ، ومخادع صغيرة ، وتسرح الدواجن فى فنائه ملتقطة الحب من تحت حواف عربات التجار المتجولين ، الملطخة بالوحل .. كان بيتا عتيقا ، ينخر السوس شرفاته التى كانت تبعث صريرا إذا ما هبت الريح فى ليالى الشتاء .. وكان يحفل دائما بالناس والضجة، والآكلين .. وكانت موائد الفندق السوداء ملطخة ببقع القهوة والخمر ، وقد استحال لون زجاج نوافذه السميك إلى الصفرة من اثر الذباب ، وتندت المناشف التى يقدمها لنزلائه بالنبيذ الرخيص ، ففاحت منها روائح الريف ، وبدت كملابس أهل المدن التى يرتديها عمال الزراعة فى ايام الآحاد ! .. كما كان به مقهى يطل على الشارع ، والحقت به — من ناحية الحقول — حديقة زرعت بالخضر . وبادر « شارل » لتوه إلى المسرح ، ليحجز مقعدين ، فراح يخلط بين المقاعد الامامية ومقاعد « الصالة » ، وبين « البلكون » و « الألواج » واستفسر فلم يفهم ، واحيل من نافذة الحجز إلى مدير المسرح ، ثم عاد إلى الفندق ، ورجع ثانية إلى المسرح ! .. وهكذا اجتاز البلدة بطولها عدة مرات ، من المسرح إلى الميدان .. اما زوجته ، فابتاعت قبعة وقفازين وباقة ورد . وكان السبد فى خوف شديد من ان تفوتهما بداية العرض ، فلم يضيعا وقتا فى احتساء قدح من الحساء .. وكانت النتيجة ان وصلا إلى ابواب المسرح وهى ما زالت بعد مغلقة !

———— ● ————

الفصل الخامس عشر

● كان الناس يستندون إلى جدران المسرح فى الانتظار ، وقد اصطفوا بين السياجين القائمين عند المدخل .. وعند نواصى الشوارع المجاورة كانت لوحات الإعلان الضخمة تحمل بحروف ملتوية زخرفية : «لوسى دى لامرمور .. لاجاردى .. اوبرا .. الخ » .. وكان الجو بديعا ، ولكن الناس ما لبثوا ان شعروا بالحر ، فاخذ العرق يسيل بين غدائر شعور النساء ، وظهرت المناديل من جيوب الرجال لتجفف الجباه المحمرة . وكانت تهب من النهر بين آن وآخر نسمة حارة ، فتهز فى رفق اللافتات المعلقة عند ابواب الحانات .. ومع ذلك ، وعلى مسافة بسيطة ، كان المرء يجد تيارا باردا ينعشه ، معبقا بروائح الشحم والجلد والزيت .. روائح شارع « ديه شاريت » الملىء بالحوانيت السوداء الكبيرة ، حيث تصنع البراميل ..

وخشيت « ايما » ان يثير وقوفهما الضحك ، فرغبت فى ان تتمشى فى الميناء ، قبل دخول المسرح . ولكنهما ما لبثا ان ولجا المسرح ، فاخذ قلب «ايما» يخفق بمجرد ان بلغا البهو . وابتسمت فى زهو ـ على الرغم منها ـ إذ رات الجمهور يتدافع يمينا خلال ردهة اخرى ، بينما كانت تصعد درجات السلم إلى مقعديهما المحجوزين . وابتهجت فى غبطة الطفل وهى تتحسس باصابعها الباب المبطن بالسجاد ، واستنشقت بكل قوتها العبير الممتزج بالغبار المتصاعد من الردهات ، حتى إذا جلست

فى مقصورتهما ، مالت إلى الأمام فى بساطة كما لو كانت احدى الدوقات ! .. واخذ المسرح يمتلىء ، واخرجت منظارات الأوبرا المقربة من حافظاتها ، واخذ اصحاب المقصورات المحجوزة طوال الموسم يتبادلون النظرات والتحيات .. لقد جاءوا ينشدون فى الفنون الجميلة ترويحا ، بعد مشاغل « البورصة » ، ولكنهم لم يستطيعوا ان ينسوا العمل ، فظلوا يتحدثون عن الأقطان ، او الخمور ، او النيلة (المادة التى تستخدم فى الصباغة) . وكانت وجوه الكهول ترى خالية من اى تعبير ، تعلوها سكينة مطمئنة ، وقد بدوا بشعورهم الفضية وبشراتهم كالأيقونات ، او الميداليات الفضية التى تعرضت لبخار القصدير ! .. وكان الشبان المتأنقون يجوسون خلال « الصالة » ، يعرضون ـ خلال فتحات صداريهم ـ ربطات العنق الوردية ، او تلك التى فى لون التفاح الأخضر .. وكانت مدام « بوفارى » تتبعهم فى إعجاب ـ من عل ـ وهم يتكئون على عصيهم ذات المقابض الذهبية التى تبرز خلال ايديهم المكسوة بالقفازات الصفراء ..

وما لبثت مصابيح مقصورة الفرقة الموسيقية ان اضيئت ، وكانت احدى الثريات تتدلى من السقف ، ناشرة بتالق جوانبها بهجة مفاجئة على المسرح .. ثم اقبل الموسيقيون واحدا بعد آخر .. وسمع فى البداية ضجيج النغمات الغليظة من « الكمنجات » الكبيرة ، ثم الانغام الرفيعة من « الكمنجات » العادية ، ودوى الأبواق ، وصفير الناى والمزمار .. على انه لم تلبث ان انبعثت على منصة المسرح ثلاث دقات ، فارسلت الطبول دقات متتابعة ،



وشعرت ((إيما)) بنفسها ترتد إلى ما كانت تقرأ فى صباها .. إلى غمار قصص ((وولتر سكوت)) ..

وصدرت بعض ألحان من الآلات النحاسية .. ثم رفعت الستار، فكشفت عن منظر ريفى : ملتقى طرق فى غابة ، ونافورة — إلى اليسار — تظلها شجرة بلوط ، وفلاحين ، وسادة تعلو اكتافهم أشرطة ، ويرددون معا إحدى أغنيات الصيد . ثم ظهر فجأة قائد رفع يديه إلى السماء ، يستعين بروح الشر .. وما لبث أن ظهر شخص آخر ، فانصرفا معا ، وعاد الصيادون من جديد !

* * *

● وشعرت « ايما » بنفسها ترتد إلى ما كانت تقرأ فى صباها .. إلى غمار قصص « وولتر سكوت » .. وخيل إليها انها تسمع خلال الضباب أنغام موسيقى القرب الأسكتلندية ، تتردد فوق المرج . ثم ساعدها تذكر الرواية على أن تفهم ما كان يجرى على المسرح ، فراحت تتتبع القصة عبارة بعد عبارة ، بينما بددت الموسيقى فى الحال الأفكار المبهمة التى راودتها .. واطلقت نفسها مع الألحان الرخيمة ، فخيل إليها أن كيانها يتذبذب ، كما لو كانت أقواس « الكمنجات » تجرى على أعصابها ! .. ولم تكن عيناها تسعفانها لتحيط بكل الأزياء ، والمناظر والممثلين ، والأشجار المرسومة التى كانت تهتز إذا اقترب منها احد ، والقلنسوات المخملية ، والأوشحة ، والسيوف .. وكل تلك الأشياء الخيالية التى راحت تطفو مع الأنغام المنسجمة وكأنها تحلق فى جو عالم آخر . وما لبثت أن ظهرت امرأة شابة ، وهى تلقى كيسا إلى فارس فى زى أخضر ، ثم بقيت وحيدة ، وسمع الناى يرسل أنغاما كخرير النافورة ، أو تغريد العصافير .. وعزفت

« لوسى » على قيثارتها نغما عاليا ، واخذت تشكو الهوى ، وتتوق إلى جناحين .. وتمنت « ايما » بدورهـا ان تنطلق كذلك طائرة ! .. وفجاة ظهر « ادجار لاجاردى » .. كان على شىء من ذلك الشحوب البديع الذى يخلع رواء المرمر على ابناء الجنوب النشيطين . وكان صدره البادى الفتـوة يحتويه صديرى محكم الالتفاف ، ذو لون بنى ، وقد تدلى على فخده الايسر خنجر صغير ذو نصل عريض . وراح يجـول بنظراته فيما حوله وهو يبتسم ، كاشفا عن اسنان بيضاء .. كان يقال ان اميرة بولندية سمعته ذات ليلة يغنى على شاطىء بياريتز ، حيث كان يصلح القـوارب ، فتدلهت فى هواه ، وافسدت حياتها على نفسها من اجله .. ثم هجرها هو من اجل نساء اخريات ! .. ولم تؤد هـذه السمعة العاطفيـة إلا إلى إذكاء شهرته الفنية ، حتى لقد اعتاد هـذا الماجن الواسع الحيلة ان يدس دائمـا فى اعلاناته بعض عبـارات شاعرية عن فتنة شخصـه ، وإرهاف عواطفه .. كان فى هذا الدجال الرائع نتاج صوت عذب ، وهدوء رصين ، ووليد مزاج اكثر منه ذكاء ، وإلقاء اكثر منه غنـاء .. وقد خلقت له هذه الصفات طبيعة فاتنة ، يشوبها شىء من طباع الحـلاق ومصارع الثيران !

ومنذ الفصل الأول الهب المشـاعر ، إذ ضم « لوسى » بين ذراعيه ، ثم افلتها .. وبدا قانطا .. وانتابته فورات من الغضب .. وراح يصدر آهات حزينة لا حد لعذوبتهـا .. وكانت الأنغام المنسابة من حلقه زاخرة بالنهنهة والقبلات .. ومالت «ايما» إلى الامام لتراه ، وهى تتشبث ــ باظافرها ــ

بالمخمل الذى يكسـو المقصـورة .. كانت تملأ فؤادهـا بهذا الغناء الحزين الذى صحبته انغـام من الكمان الكبيرة ، بدت كأنها صرخات غريق فى عنفوان الأنواء ! .. وتذكرت كل النشوة وكل الشجن اللذين كادا يقتلانهـا .. ولاح لهـا ان صوت الممثلة الأولى لم يكن سوى اصداء نفسها ، وان هذا التمثيل الذى اشجاها لم يكن إلا قطعة من صميم حياتها .. ولكن احدا فى الدنيا لم يولها مثل هذا الحب .. لم يبك كمـا بكى « ادجار » ــ الممثل الأول ــ فى الليـلة المقمرة الأخيرة ، وهو يودع حبيبته ! .. واهتزت ارجاء المسرح بالهتاف، فاعيد المشهد من جديد .. وراح العاشقان يتحدثان عن الزهـور التى يتمنيان ان تظلل قبرهما ، وعن العهـود ، والبعـاد ، والقدرة ، والآمال .. حتى إذا تبادلا الوداع الأخير ، ندت من « ايما » صرخة حادة ، ضاعت فى ضجيج الأنغام الأخيرة ، فتساءل بوفارى : « عجبا .. هل ظلمها ذلك السيد ؟ » .. فاجابت ايما : « لا ، لا ! .. إنه حبيبها ! » .

ــ ولكنه يقسم أن ينتقم من اسرتها ، فى حين أن السيد الآخر الذى ظهر قبله كان يقول : « إننى احب لوسى .. وهى تحبنى ! » .. كما انه خرج متأبطا ذراع ابيها .. إذ لابد ان ذاك الرجل الضئيل الجسم ، القبيح الوجه ، والذى يضـع ريشة فى قبعته ، هو ابوها ؟

وعلى الرغم من ايضاحات ايما لموضوع المسرحيـة ، فان شارل لم يكد يرى خاتم الخطبة الزائف الذى اعد لخداع « لوسى » ــ عندما راح « جلبير » يقترح لمولاه « اشتون »

مناوراته الخبيثة ــ حتى ظن انه هدية غرامية ارسلها « ادجار » .. بل لقد صرح ــ فوق ذلك ــ بانه لم يفهم القصة لأن الموسيقى كانت تطغى على الكلام كثيرا .. فقالت « ايما »: « وما قيمة هذا ؟ .. الزم الصمت ! » فقال وهو يميل على كتفها : « إنما احب ان افهم ما يجرى كما تعلمين» . فصاحت فى ضيق : « اسكت ! .. اسكت ! » .

وتقدمت « لوسى » ، تكاد وصيفاتها يحملنها ، وفى شعرها إكليل من زهور البرتقال ، وقد كاد شحوبها يغلب على بياض ثوبها الحريرى .. وتذكرت ايما يوم زفافها ، وتمثلت نفسها ثانية فى قريتها ، بين حقول القمح التى كانت تحف بالطريق الذى ساروا فيه إلى الكنيسة . آه ، لم لم تقاوم وتتوسل كهذه المرأة ؟ .. لقد كانت ــ على العكس ــ مغتبطة ، لا تبصر الهوة التى كانت تلقى بنفسها فيها . آه ! .. لو انها استطاعت فى نضارة شبابها ــ قبل ادران الزواج، وقبل ان تتبدد الآمال التى عقدتها على علاقتها الفاسقة برودولف ــ ان تقيم حياتها على قلب كبير قوى ، لامتزجت الفضيلة ، والفجور ، والحنان ، والواجب ، فى حياتها ، ولما هوت من مثل هذه الهناءة الرفيعة !

على ان هذه الهناءة ولابد اكذوبة موهومة لكبح كل شهوة . لقد اصبحت تدرك مدى ضآلة العواطف التى يبالغ الفن فى تصويرها . ومن ثم اخذت تجاهد لتتحول عن افكارها ، وقد قررت الا ترى فى هذا التمثيل ــ الذى يصور لها اشجانها ــ اكثر من إنتاج تصويرى يمتع الأبصار ..

حتى انها لم تلبث ان ابتسمت فى رثاء مترفع حين رات ، تحت الستائر المخملية فى مؤخرة المسرح ، رجلا فى معطف اسود ، سرعان ما سقطت قبعته الأسبانية العريضة الحواف بحركة من يده . وفى الحال ، انطلقت الانغام العالية من الآلات الموسيقية ومن المغنين ، فاستشاط « ادجار » غضبا ، ورفع عقيرته بالغناء ، فطغى صوته الجهورى على الجميع .. فانبرى له « اشتون » بعبارات مثيرة ، قاتلة .. وارسلت « لوسى » ضراعتها بصوت صارخ .. وكان « آرثر » يؤدى دوره ــ على حدة ــ بصوت متوسط الجرس ، بينما انساب صوت القس خفيضا كأنه الأرغن ، فكانت أصوات النساء تردد كلماته فى غناء جماعى بهيج ..

كانوا جميعا فى شجار ، وقد اختلطت اشاراتهم ، بينما كان الغضب ، والانتقام ، والغيرة ، والفزع ، والذهول ، تنبعث جميعا فى وقت واحد من افواههم المفتوحة .. وراح العاشق يلوح بسيفه المشهر ، وزوائد « الدانتيلا » التى توشى قميصه تهتز مع تهدج صدره ، وقد اخذ يسير من اليمين إلى اليسار بخطى واسعة ، وهو يدق الأرض بمهمازين فضيين ثبتا إلى حذاءيه الرقيقين .. وخيل لايما ان معين الحب لديه لا ينضب ، والا ما راح يغدق منه على الجمهور بمثل هذه الطلاقة ! .. وتوارت الأخطاء التافهة التى كانت تحصيها عليه فى روعة التمثيل التى استولت على لبها . واخذت تشعر بأن سحر شخصية ذلك الرجل يجتذبها إليه .. وحاولت ان تصور لنفسها حياته .. تلك الحياة المدوية ، العجيبة ،

الرائعة ، التى كان من الممكن ان تكون حياتها هى ، لو ان القدر شاء فجعلهما يتعارفان ، ويحب كل منهما الآخر .. انها إذ ذاك كانت تطوف معه بكل ممالك اوربا ، متنقلة من عاصمة إلى عاصمة ، تشاطره التعب والمجد ، وتلتقط الزهور التى تلقى عليه ، وتوشى بأشغال ابرتها ثيابه .. وتلوذ — فى كل ليلة — باحدى المقصورات ، تعب فى نهم انطلاقات روحه التى تتمثل فى اغان يشدو بها لها وحدها ، ويتطلع إليها وحدها ، وهو يؤدى دوره على المسرح !! .. وما لبثت ان تملكتها فكرة جنونية أوحت إليها بأنه يتطلع إليها بالفعل .. بالتأكيد .. وتاقت إلى ان تجرى إلى احضانه ، وأن تاوى إلى قوته الفتية ، وكان الحب قد تجسد فى شخصه .. وأن تقول له ، بل تصيح فيه : « خذنى بعيدا ! .. احملنى معك ! لنرحل ! .. انت ، انت ، كل وجدى وكل احلامى ! » .. وفى ذلك الوقت اسدلت الستار !

* * *

● واختلط عبير غاز الاستصباح بالأنفاس ، ولم تزد المراوح الجو إلا ثقلا خانقا ، فرغبت «ايما» فى الخروج ، ولكن الناس كانوا يملأون الردهات ، فتهالكت فى مقعدها الوثير ، وراحت انفاسها تتعثر فى حلقها حتى كادت تخنقها . وخشى « شارل » ان يغمى عليها ، فجرى إلى المقصف ليحضر لها كوبا من ماء الشعير .. ووجد عناء شديدا فى العودة إلى مقعده ، إذ كان مرفقاه يصدمان فى كل خطوة بسبب الكوب الذى كان يحمله ، حتى انه سكب ثلاثة ارباعه على منكبى سيدة من (روان) كانت ترتدى ثوبا قصير الكمين ، فما إن احست

بالسائل البارد يجرى إلى ردفيها ، حتى اخذت تصرخ كالطاووس ، كما لو كانت تذبح ! .. واندفع زوجها — وكان من اصحاب مصانع النسيج — إلى صاحبنا المرتبك ، وبينما كانت تمسح البقع عن ثوبها الأنيق المصنوع من نسيج من «التافتاه» فى لون « الكريز » ، راح يتحدث مغضبا عن الخسارة ، والنفقات ، والتعويض . وبلغ « شارل » مكان زوجته اخيرا ، فقال وهو يلهث : « لعمرى ! .. لقد خيل إلى اننى ساظل هناك ! .. باللخلق .. باللحشد » .. ثم اردف قائلا : « احدسى .. من قابلت هناك ! .. السيد ليون ! » ، فهتفت : « ليون ! » .. قال : « بالذات ! .. انه آت ليقدم تحياته ! » . وما إن اتم كلماته ، حتى ولج المقصورة ، الشاب الذى كان من قبل كاتبا فى (ايونفيل) ، فبسط يده بطريقة السيد المهذب الراقى ، وبسطت مدام « بوفارى » يدها فى حركة آلية ، منصاعة لجاذبية ارادة قوية بلا شك .. لم تكن قد مست يده منذ تلك الليلة من ليالى الربيع ، التى سقط فيها المطر على اوراق الشجر الخضراء ، وهما يتبادلان تحية الوداع لدى النافذة . على انها ما لبثت أن تذكرت مقتضيات الموقف ، فطرحت عنها عبء الذكريات فى جهد ، واخذت تتمتم متلعثمة ، متعجلة ، ببضع كلمات : « آه ! .. طاب يومك ! .. عجبا ! .. انت هنا ؟ » .. وتصاعدت من « الصالة » اصوات تصيح : « صمتا ! » ، إذ كان الفصل الثالث قد بدأ ..

— اذن ، فانتما فى روان ؟

— اجل .. — ومنذ متى ؟

واخذ الناس يتطلعون نحوهم .. وصاحت اصوات :

« اخرجوهم ! اخرجوهم ! » ، فلاذوا بالصمت .. بيد ان « إيما » لم تعد تسمع شيئا منذ تلك اللحظة .. كانت اغانى المدعوين لحفلة الزفاف (فى الرواية) ، والمشهد الذى جرى بين « اشتون » وخادمه ، والمشهد الغنائى الكبير .. كل هذه كانت بعيدة عن سمعها ، وكانما كانت الالات الموسيقية تزداد خفوتا ، والممثلون يزدادون نأيا .. وتذكرت لعب الورق فى دار الصيدلى ، والسعى إلى دار المرضعة ، والقراء فى الخميلة ، والأحاديث الخافتة إلى جوار المدفأة .. كل هذا الحب البائس، بما كان يتصف به من هدوء ، وتردد طال أمده ، وتعقل وتكتم ، ورقة وحنان .. ومع ذلك فقد نسيته ! .. ولماذا عاد الشاب ؟ .. اية ظروف تجمعت لتعيده إلى حياتها ؟ .. وكان هو يقف خلفها ، مستندا بكتفه إلى جدار المقصورة ، فاخذت تحس — بين آن وآخر — برجفة تحت الانفاس الحارة التى تنساب من انفه إلى شعرها .. وانحنى مقتربا منها ، حتى مست ذؤابة شاربه خدها ، وسالها : « أو يروق لك هذا ؟ » .. فاجابت فى غير اكتراث: « آه يا الهى ! .. لا ! .. لا يروق كثيرا ! » .. وإذ ذاك اقترح ان يخرجوا من المسرح ، وأن يذهبوا إلى اى مكان فيتناولوا بعض المثلجات ، فقال «بوفارى»: « لا .. لم يحن الوقت .. فلنمكث ! .. ان شعرها غير منسق .. ان هذا الفصل يوحى بالمأساة ! »

على أن الفصل « الحافل » لم يلذ لايما على الاطلاق ، ولاح لها تمثيل المطربة مليئا بالمغالاة ، فقالت وهى تلتفت إلى « شارل » الذى كان منصرفا للاصغاء : « انها تصرخ بصوت

مرتفع » ، فاجاب وهو موزع بين رضائه عن التمثيل وبين احترامه لراى زوجته : « اجل .. بعض الشىء ! » .. وما لبث « ليون » ان قال وهو يزفر : « ان الحر .. » ، فاكملت «ايما» عبارته : « لا يطاق ، حقا ! » .. فسالها بوفارى : « هل تضايقت ؟ » .. اجابت : «اجل، إننى اختنق .. لننصرف!».

وطرح السيد « ليون » على كتفيها — برفق — الشال الطويل المصنوع من « الدانتيلا » ، وخرج ثلاثتهم ليجلسوا فى هواء الميناء الطلق ، خارج الواجهة الزجاجية لأحد المقاهى .. وتحدثوا فى البداية عن مرض « ايما » ، وإن راحت هى تقطع على « شارل » الحديث من آن لآخر ، خشية ان يثقل على السيد « ليون » . وقال لهما هذا انه جاء ليقضى عامين فى (روان) ، فى مكتب كبير ليحظى بمران متين ، تاهبا لممارسة مهنته ، نظرا لأن القضايا فى (نورماندى) كانت تختلف عما يدرس فى باريس . ثم سأل «ليون» مدام بوفارى عن «بيرت» ، وآل « هوميه » ، والأم « لوفرانسوا » . وما لبث الحديث أن توقف ، إذ لم يعد لديهما مزيد من الكلام الذى يستطيعان ان يتبادلاه فى حضور الزوج ! .. ومر على الرصيف بعض من كانوا فى المسرح ، وهم يترنمون فى خفوت ، او باعلى اصواتهم باغنية : « اواه ياملاكى الجميل .. يا حبيبتى لوسى » ! .. إذ ذاك تحول « ليون » إلى الحديث عن الموسيقى ليوحى بانه يهواها .. كان قد رأى « تامبورينى » ، و« روبينى » ، و « برسيانى » ، و « جريسى » ، وقال إن « لا جاردى » رغم تالقه لا يقارن بهم .. فقاطعه « شارل » — الذى كان يرشف شرابه فى بطء — قائلا : « ومع ذلك ، يقال انه فى الفصل الأخير

اروع ما يكون . إننى لآسف إذ انصرفت قبل النهاية، لأن التمثيل كان قد بدا يلذ لى » . . فقال الكاتب : « اطمئن ، فلسوف يقيم حفلة اخرى قريبا » . . ولكن « شارل » قال إنهما راجعان فى غدهما ، ثم استدرك ملتفتا إلى زوجته : « اللهم الا إذا شئت ان تبقى وحدك يا قطيطتى ! » .

وبادر الشاب إلى تغيير اساليبه ازاء هــذه الفرصة غير المرتقبة التى تتفق مع آماله ، ومن ثم أخذ يسهب فى إطراء دور « لاجاردى » فى الفصل الأخير ، قائلا إنه خارق ، راق . . وإذ ذاك راح شارل يلح : « تستطيعين ان تعودى يوم الاحـــد . . هيا ، بتى فى الأمر . . إذا شعرت ان هذا يروق لك فمن الخطا أن ترددى » . . وكانت الموائد حولهما قد بدات تخلو ، واقبل ساق ، فوقف بالقرب منهم متحرجا . وبادر « شارل » ـــ الذى ادرك سر وقوفــه ـــ فأخرج كيس نقـــوده ، ولكن الكاتب رد ذراعه . . ولم ينس أن يترك قطعتين من العملة الفضية ـــ رنا على الرخام ـــ فوق الحساب . . فقال « بوفـــارى » : « إننى مستاء حقا ، لهذه النقود التى . . » فأشار الآخر بسكته فى ود ، وتناول قبعته قائلا : « اتفقنا . . اليس كذلك ؟ . . سنلتقى فى السادسة من مساء غد ! » . . واعتذر « شارل » مرة اخرى ـــ عن نفسه ـــ بانه لا يستطيع ان يطيل غيابه ، ولكن لا شىء يمنع « ايما » . . فقالت متلعثمة ، وهى تبتسم ابتسامة غريبة : « ولكنى لست متاكدة . . »

ـــ لا بأس ! . . يجب أن تفكرى فى الامر ! . . سوف نرى ما يكون ، فالليل جلاب للآراء !

ثم خاطب « ليون » الذى كان يسير معهما قائلا : « اما وقد اصبحت فى منطقتنا ، فآمل أن تأتى لتتناول معنا العشاء بين وقت وآخر » . . فأكد الكاتب انه لن يتوانى عن ذلك ، لا سيما وانه مضطر إلى الذهاب إلى (ايونفيل) لبعض مهام المكتب الذى يتدرب فيه . ثم افترقوا عند ممر « سان هربلان » ، وساعة الكاتدرائية تدق معلنة منتصف الحادية عشرة .

———— ● ————

- ٣ -

الفصل الأول

● كان السيد « ليون » ــ خلال دراسة القانون ــ قد اكثر من غشيان مرقص الطلبة المسمى « لاشوميير » ، حيث قدر له ان يظفر بنجاح كبير بين الفتيات اللائى راين فى مظهره ما يميزه عن سواه .. كان الطف الطلبة مسلكا ، وكان يقص شعره بحيث لا يدعه مسرفا فى الطول ، ولا شديد القصر . ولم يكن ينفق كل مصروفه فى اليوم الأول من الشهر ، كما كان على علاقات طيبة باساتذته . اما عن التطرف فى نزواته ، فهذا ما كان يحجم عنه دائما ، جبنا منه وترفعا ، فى آن واحد .. وكثيرا ما كان يمكث فى غرفته للقراءة .. كما كان كثيرا ما يترك كتاب القانون يهوى إلى الأرض ــ وهو جالس فى بعض الأمسيات تحت اشجار الزيزفون فى حدائق لوكسمبورج ــ حين تعاوده ذكرى «ايما» ! .. على ان هذا الشعور لم يلبث ان تضاءل ، واخذت تعدو عليه شهوات اخرى ، وإن ظل يتارجح فوقها .. فان « ليون » لم يفقد كل امل ، بل ظل لديه فى الواقع رجاء مبهم يطفو على صفحة المستقبل ، كثمرة ذهبية تتدلى من شجرة خيالية ! .. فلما رآها بعد غياب ثلاث سنوات ، عاد وجده

يستيقظ . وخطر له ان يعمل ــ اخيرا ــ على ان ينالها ، لا سيما وان حياءه كان قد انجاب نتيجة اتصاله بزملائه المرحين ، فعاد إلى الريف وهو يستصغر كل من لا يطا ارض الشوارع بحذاءين لامعين !

وما كان ثمة شك فى ان الكاتب المسكين كان يرتجف كالطفل ، لو اتيح له ان يجلس إلى جوار امراة باريسية انيقة ، فى حجرة الجلوس بمنزل طبيب لامع اوتى اوسمة ، واوتى عربة .. اما هناك، فى (روان)، وعند الميناء، وامام زوجة طبيب صغير ، فقد شعر بانه عزيز الجانب ، وتاكد مقدما من ان نجمه لامع .. فان الثقة بالنفس تتوقف على الوسط الذى يوجد فيه المرء .. ونحن لا نتكلم فى الطابق الأول بعين اللهجة التى نتكلم بها فى الطابق الرابع .. والمراة الغنية ، تبدو وكان اوراقها المالية تحوطها لتصون عفتها !

وعندما غادره « بوفارى » وزوجته ، اقتفى خطاهما عن كثب خلال الطرقات ، حتى إذا رآهما يلجان فندق « الصليب الأحمر » نكص على عقبيه ، وقضى الليل يفكر فى خطته . فلما كان اليوم التالى ، نفذ فى نحو الساعة الخامسة إلى مطبخ الفندق ، وقد شحب صدغاه ، واحس بانه يختنق ، وإن تملكه ذلك العزم الذى يواتى الانذال الذين لا يتورعون عن شىء ! .. واجابه الخادم ، إذ ساله : « إن السيد غير موجود» .. ورأى

فى هذا غالا طيبا ، فصعد السلم .. ولم تنزعج «ايما» لمقدمه ، بل إنها – على العكس – اعتذرت لكونهما غفلا عن إنبائه بالمكان الذى نزلا فيه ، فقال : « آه .. لقد حدسته بالتخمين ! » .. وزعم انه اهتدى إليها بالحظ ، بالغريزة .. وبدات تبتسم ، فبادر – لإصلاح زلته – إلى إنبائها بأنه قضى النهار يطوف بفنادق البلدة جميعا – واحدا إثر الآخر – سائلا عنها . واستطرد قائلا : « هل قررت البقاء ؟ » .. قالت « اجل ، وانى لمخطئة فى ذلك . فما ينبغى للمرء ان يمنح نفسه متعا مستحيلة ، عندما يكون وراءه الف مطلب وعمل .. » .

– آه .. إننى ادرك ..

– آه ! .. لا ، لانك رجل ..

.. لكن للرجال – هم الآخرون – همومهم .. واتجه الحديث بهما نحو بعض الأفكار الفلسفية . وراحت « ايما » تسهب فى الحديث عن بؤس العواطف الدنيوية ، والعزلة الأبدية التى يظل الفؤاد دفينا فيها . وبدافع من الرغبة فى التظاهر ، أو لمجرد مسايرة هذا الأسى الذى اثار اساه ، ذكر الشاب انه كان يعانى سأما فظيعا طيلة دراسته .. فكان القانون يثقل على نفسه ، وكانت ثمة مهن اخرى تجتذبه ، وكانت امه لا تكف عن مضايقته فى كل خطاب . وفى سياق حديثهما ، اخذ كل منهما يزداد إفصاحا عن بواعث أساه . ويضمنها هذا الاعتراف المطرد . على أنهما كانا فى بعض الأحيان يمسكان ، إذ يوشكان أن يكشفا فى جلاء تام عن افكارهما ، ثم يسعيان مع ذلك إلى ابتكار عبارة تترجم تلك الأفكار .. ولم

تعترف « ايما » بأنها تعلقت بسواه ، ولا قال « ليون » إنه نسيها ! .. ولعله لم يعد يذكر عشاءه مع الفتيات بعد حفلات الرقص التنكرية .. كما أنها لم تعد تذكر – بلا ريب – تلك اللقاءات الماضية ، حين كانت تجرى عبر الحقول فى الصباح إلى بيت عشيقها . وكان ضجيج البلدة لا يكاد يصل إليهما ، ولاحت الغرفة صغيرة ، وكأن صغرها كان متعمدا ليقرب بين عزلتيهما .. وكانت « ايما » فى ثوب من البفتة ، وقد طوحت براسها إلى مسند مقعد وثير عتيق ، ورسم ورق الحائط الأصفر إطارا ذهبيا خلفها ، وانعكست صورة راسها العارى على المرآة ، وقد بدا مفرق شعرها أبيض ، وبرزت حافتا أذنيها خلال ثنايا شعرها ..

وما لبثت ان قطعت الصمت قائلة : « ولكن معذرة .. من الخطأ ان اثقل عليك بشكاياتى الأبدية » .. فقال ! « لا ، ابدا .. ابدا » .. قالت وهى ترفع عينيها الجميلتين إلى السقف وقد ترقرقت فيهما دمعة : « لو علمت كل ما كنت احلم به ! » .

– وانا ! .. اواه .. انا الآخر تعذبت ! .. كثيرا ما كنت اخرج ، فاذهب بعيدا ، واجر نفسى على طول ضفة النهر ، واهيم فى ضجيج الناس ، دون ان اقوى على دفع العبء الذى يجثم على صدرى .. وفى حانوت حفار أختام فى الطريق ، عثرت على رسم إيطالى لإحدى الحوريات ، متشحة بغلالة ، وقد راحت تتطلع إلى القمر ، والزهور تتخلل شعرها المسترسل .. وكانت ثمة قوة خفية تدفعنى إلى هناك باستمرار ، حيث اقضى ساعات طوالا ..

ثم أردف بصوت مرتجف : « كانت تشبهك قليــلا » . . فاشاحت مدام « بوفارى » بوجهها حتى لا يرى الابتسامة التى احست بها تقفز إلى شفتيها دون ان تقــوى لهــا دفعــا . . واستطرد يقول : « وكثيــرا ما كنت اكتب رســائل لا البث ان امزقها » . . ولم تجب ، فواصل الحديث : « وكنت اخال احيانا ان المصادفات قــد تسوقك ، فكنت اتوهم اننى المحك عنــد منعطفات الطرق ، وكنت اجــرى وراء كل العربات التى المح خلال نوافذها شالا او قناعا يشبهان ما لديك ! » . . وبدا انها تنوى ان تدعــه يتكلم دون أن تقاطعه ، إذ عقدت ذراعيهــا ، ونكست راسها ، وراحت تتأمل نقوش خفيها ، وتحرك اصابع قدميها داخلهما ، بين وقت وآخــر . . واخيرا ، تنهدت قائلة : « ولكن الأدعى للأسى، هو ان تحمل عبء حياة لا جدوى منها ، كما افعل . . اليس كذلك ؟ لو ان آلامنا كانت تعود بالنفع على احد ، لوجدنا عزاء فى فكرة التضــحية » . . فانطلق يطنب فى امتداح الفضيلة ، والواجب ، والتضحية الصامتة ، قائلا : إنه يشعر برغبة جامحة للتضحية بالنفس ، لا يدرى كيف يشبعها !

وقالت ايما : « لكم اتــوق إلى ان اكــون ممرضـــة فى مستشفى ! » ، فقال : « وا اسفاه ! ليس للرجال شىء من هذه المهام ذات القداسة ، فلست ارى لها شبيها فى مهنة . . اللهم الا مهنة الطب » . . فقطعت « ايما » عليه حديثه بهزة خفيفة من كتفها ، وتحولت تتحدث عن مرضها الذى اوشك ان يقضى عليها . . وليته فعل ، فانها ما كانت لتعانى ما تعانى الآن من آلام ! . . وبادر « ليون » يحسد القبر لهدوئه وسكينته، قائلا:

إنه كتب ذات ليلة وصــيته ، طالبا ان يكفن فى تلك السجادة البديعة ذات الخطوط المخملية التى تلقاها منها مرة ! . . وهكذا كانا يتمنيان ان تسير الأمور : كل منهما يقيم من نفسه مثلا اعلى يحاول به اعادة تشكيل ماضيه ليتسق مع هذا المثل ! . . فضلا عن ان الحديث ــ كحجر المسن ــ يشحذ الشعور ! . . على ان « ايما » لم تتمالك ان سالت عندما سمعت فرية السجادة : « ولمــاذا ؟ » ، فقال فى تردد : « لمــاذا ؟ . . لاننى . . لاننى احبك ! » . . وغبط نفسه إذ اجتاز العقبة ، وراح يرقب وجهها بنظرة مختلسة من ركن عينه . . كان وجههــا كالســماء التى دفعت نسمة من ريح بعض السحب عن صفحتها . . فاذا ركام الأفكار الحزينة الذى كان يرين على عينيهــا قد انجاب ، وإذا وجهها بأسره يشرق ! . . وظل « ليون » يرتقب . . واخيرا ، قالت : « كنت دائما احدس هذا » !

ثم أخذا يستعرضان كل الأحداث التافهة التى اكتنفت تلك الحياة الماضية ، التى اجملا افراحها واشجانها فى كلمة واحدة . . تذكرا « تكعيبة » نبات « الداليا » الشوكى ، والثياب التى كانت ترتديها ، وأثاث حجرتها ، والبيت بأسره .

ــ وشجيرات الصبار المسكينة ، اين هى ؟

ــ قتلها البرد فى هذا الشتاء .

ــ آه ، اتعرفين اننى كثيرا ما فكرت فيهــا ! . . كنت كثيرا ما اتمثلها كعهدى بها فى الماضى ، حين كانت الشمس فى صباح أيام الصيف تطــرق مصراعى نافذتك . . وكنت ارى فى الخيال ذراعيك العاريتين تنتقلان بين الزهور . .

فمدت يدها إليه هاتفة : « يا صديقى المسكين ! » .. فضغط « ليون » شفتيه إلى يدها برفق .. وبعد ان ملا صدره بعبيرها ، قال : « كنت لى إذ ذاك قوة غامضة ـ لم ادرك كنهها ـ استولت على حياتى . فمثلا ، ذهبت مرة كى اراك .. ولكنك ولا ريب لا تذكرين هذه المناسبة » .. قالت : « بل اذكرها .. قل ! » .

ـ كنت فى الحجرة الصغيرة بالطابق الارضى ، تستعدين للخروج ، وقد اتخذت كل اهبة .. فكنت تضعين قبعة ذات زهور زرقاء صغيرة .. وعلى الرغم من نفسى ، ودون دعوة منك ، خرجت معك .. على اننى فى كل لحظة كنت ازداد شعورا بطيشى ، فظللت أسير ، لا أجرؤ على ان اتبعك ، ولا استطيع أن افارقك .. وإذ ولجت حانوتا ، وقفت فى الشارع انتظرك ، وانا اراك خلال النافذة تخلعين قفازيك ، وتعدين النقود على منضدة البائع .. ثم دققت جرس بيت مدام « توفاش » ، فدعيت للدخول ، بينما ظللت انا واقفا كالغبى امام الباب الكبير الضخم الذى اغلق خلفك !

* * *

● دهشت مدام « بوفارى » إذ خيل إليها ، وهى تنصت ان احداث الماضى ـ حين بعثت فى ذاكرتها ـ راحت توسع من نطاق حياتها ، وتضاعفه .. كأنما كانت ترتد إلى فيض عاطفى تدفقت به هذه الأشياء .. وكانت بين آن وآخر تقول بصوت خافت ، وقد اطبقت جفنيها فى نصف إغماضة : « اجل ، هذا

صحيح .. حقا .. حقا ! » .. وسمعت الساعات المختلفة فى حى (بوفوازان) ـ الحافل بالمدارس والكنائس والقصور الكبيرة الخالية ـ تدق معلنة الثامنة . وكفا عن الكلام ، ولكنهما احسا ـ وكل منهما يرمق الآخر ـ ان ثمة دويا فى راسيهما ، كأنما كان ينبعث من عينى كل منهما شىء ذو رنين .. وكانت يد كل منهما فى يد الآخر ، وقد اختلط الماضى بالمستقبل ، والذكريات بالاحلام ، فى عذوبة هذه الغيبوبة العاطفية .. واخذ الليل يزحف على الجدران التى ظلت الوانها الثقيلة تبدو فى أربع صور متوارية فى الظلام ، وتمثل أربعة مناظر من (تور دونل) ، وتحتها كلمات بالاسبانية والفرنسية .. وخلال الجزء العلوى من النافذة ، بدت رقعة من السماء المعتمة ، بين السقوف المدببة ..

ونهضت ايما فاوقدت شمعتين على صوان الملابس ، ثم عادت إلى الجلوس ، فهتف ليون : « وبعد ؟ ! » .. فرددت : « وبعد ؟ ! » .. وكان يفكر فى وسيلة لاستئناف ما انقطع من الحديث، حين سألته : «كيف حدث ان إنسانا ما لم يبح لى حتى اليوم بمثل هذه المشاعر ؟ ! » .. فقال الكاتب : إن النفوس ذات الفطرة المثالية تستعصى على الإدراك .. فهو قد احبها منذ اللحظة الأولى ، وكان يشعر بالقنوط كلما فكر فى السعادة التى كان من الممكن ان ينعما بها ، لو ان الحظ قادهما إلى الالتقاء قبل ذلك فارتبطا بارتباط لا انفصام له . .فقالت : « انا الاخرى خطر لى هذا » .. فغمغم : « يا له من حلم ! » .. واخذ يلمس

باصبعه — فى رفق — الحافة الزرقاء المحيطة بحزامها الأبيض، ثم أردف : « وما الذى يحول دون ان نبدأ من جديد ؟ » .. فأجابت : « لا يا صديقى ، إننى الآن كبيرة السن ، وانت فى باكورة الشباب .. الا انسنى ! لسوف تحبك اخريات ، وسوف تحبهن ! » .. فصاح : « لن احبهن كما احبك ! » .

— يا لك من طفل ! .. فلنتعقل ! .. هذه رغبتى !

وبينت له استحالة غرامهما ، وانهما يجب ان يظلا على ما كانا عليه من قبل .. مجرد صداقة اخوية .. افكانت فى هذا جادة ؟ .. لا شك فى ان « ايما » ذاتها لم تكن تدرى ، وهى مستغرقة فى سحر الإغراء ، شاعرة بضرورة الدفاع عن نفسها إزاءه .. ورمقت الشاب بنظرة اشفاق وتأثر ، وهى تصد المحاولات الخجلى التى بذلتها يداه المرتعشتان لتطويقها .. فهتف وهو يتراجع : « آه ! .. اغفرى لى ! » .

واستولى على « ايما » خوف مبهم من هذا الحياء ، الذى بدا لها اخطر من جراة « رودولف » حين كان يسعى إليها باسطا ذراعيه .. قط ما لاح لها رجل فى مثل جمال هذا الشاب الخجول الذى اسبل اهدابه الطويلة الناعمة التى كانت اطرافها تنثنى إلى اعلى .. وخطر لها ان تورد بشرة خده الناعمة ، كان بتأثير اشتهائه لها ، فأحست بشوق جارف لأن تلصق بها شفتيها .. وما لبثت ان مالت نحو الساعة ، كأنها تتعرف الوقت ، وقالت : « لكم تأخر الوقت ! .. يا إلهى : كم الهانا الحديث ! » .. وفهم ايعازها ، فتناول قبعته .. بينما

استطردت : « بل اننى نسيت التمثيل ! .. مع ان بوفارى المسكين خلفنى هنا خصيصا لذلك ! .. إن السيد « لومرو » — من شارع (جران بون) — لن يلبث ان يفد ليقلنى مع زوجته إلى المسرح » .. وهكذا كان مقدرا للفرصة ان تضيع ، إذ انها كانت راحلة فى اليوم التالى .. فهتف ليون : « حقا ؟ » .. قالت : «أجل» .. فقال : « ولكنى يجب ان اراك مرة اخرى .. إذ اريد ان انبئك ... » .

— بماذا ؟

— بأمر .. هام ، جدى .. آه ، لا ! .. ما اراك راحلة ، لا يمكن ! .. لو عرفت .. الا انصتى لى .. إنك لم تفهمينى إذن ؟ .. إنك لم تحدسى إذن ..

قالت ايما : « مع انك تكلمت فى وضوح » .

— آه ! .. اتمزحين ! .. كفى ، كفى ! .. بحق الرحمة دعينى اراك ثانية .. مرة واحدة .. واحدة !

قالت : « حسنا .. » ، ولكنها امسكت ، ثم اردفت وكأنها فكرت فى الأمر : « آه ! .. ليس هنا ! » .. فتساءل : « وأين تحبين ؟ » .. فقالت : « اتحب .. » ، وبدا عليها التفكير ، ثم قالت فى إيجاز : « غدا ، فى الساعة الحادية عشرة ، فى الكاتدرائية » .. فصاح متشبثا بيديها وهى تحاول التملص : « سأوافيك هناك ! » .. وإذ كانا واقفين — هو خلفها ، وهى منكسة الراس — فقد انحنى على عنقها ، وطبع قبلة طويلة على قفاها ، فقالت فى ضحكات قصار ، بينما تضاعفت قبلاته : « ولكن هذا طيش منك ! آه إنك احمق ! »

.. واطل برأسه فوق كتفها، كما لو كان يريد أن يقرأ فى عينيها انصياعها ، فاذا عيناها ترمقانه فى كبرياء باردة ! .. وتراجع لينصرف .. ثم توقف لدى الباب ، وهمس فى صوت متهدج : « إلى غد ! » .. فاجابت بهزة من راسها ، واسرعت كالطائر تختفى فى الحجرة الداخلية ..

***

● كتبت « ايما » فى ذلك المساء خطابا طويلا للكاتب ، تحللت فيه من الموعد .. إذ انتهى كل شىء ، ولا يجب — من اجل سعادتهما — ان يلتقيا مرة اخرى . ولكنها لم تكد تفرغ من الخطاب حتى تولتها حيرة ، لأنها لم تكن تعرف عنوان « ليون » ، ولكنها قالت : « سأسلمه إياه بنفسى ، فهو لابد آت » .

وفى الصباح التالى ، اخذ «ليون» ينظف حذاءيه بنفسه ، مسبغا عليهما عدة طبقات من الطلاء ، وقد فتح نافذة غرفته ، واخذ يهمهم باغنية خافتة .. وارتدى بنطلونا ابيض ، وجوربين رقيقين ، وسترة خضراء وافرغ كل ما كان يمتلك من عطور فى منديله ، ثم سعى إلى الحلاق فطلب ان ينسق شعره فى تجاعيد ، وعاد فطلب بسطها ليكتسب الشعر رواء طبيعيا ! .. ونظر إلى ساعة الحلاق التى كانت تشير إلى التاسعة ، وقال لنفسه ! « لا يزال الوقت جد مبكر » .. ومن ثم تصفح جريدة قديمة للأزياء ، وخرج فدخن سيجارا ، وذرع ثلاثة شوارع ، ثم خطر له ان الوقت قد حان ، فسار على مهل إلى فناء « نوتردام » .. وكان الصباح بديعا ، من ايام الصيف ، والحلى الفضية تتالق فى وجهات محال المصوغات ، والضوء يسقط على

الكاتدرائية بانحراف ، فيضفى على اركان الأحجار السمراء بريقا ، وسرب من الطيور يحوم فى السماء الزرقاء حول ابراج الأجراس ذات اللون الأخضر ، والمكان يعج بالأصوات ، ويتضوع بشذى الأزهار التى كانت تحف بأرصفته ، من ورود ، وياسمين ، وزهر الخشخاش ، ونرجس ، وسوسن ، وقد نبتت على مسافات غير متساوية بين النعناع البرى ، والشيح .. وكانت النافورات فى الوسط تبعث خريرا ، وتحت مظلات واسعة — وسط البطيخ الذى تراكم فى اكوام — راحت بائعات الزهور يلففن الورق حول حزم البنفسج وهن عاريات الرؤوس .. وابتاع الشاب حزمة .. كانت اول مرة يبتاع فيها زهورا لامراة ، فانتفخ صدره زهوا وهو يتنسمها ، وكان هذا التكريم الذى قصد به غيره ، قد ارتد إليه !

على انه كان فى خوف من ان يراه احد ، فولج الكنيسة .

وكان الحارس السويسرى يقف إذ ذاك على العتبة ، فى منتصف الباب الأيسر ، تحت تمثال « ماريان الراقص » — وقد بدا فى قلنسوته ذات الريش ، وسيفه المتدلى حتى عرقوبيه ، اكثر جلالا من اى كردينال ، واشد لمعانا من علبة الأسرار المقدسة — وتقدم صوب « ليون » وقال وهو يبتسم ابتسامة التملق الحميد التى يصنعها رجال الدين حين يستجوبون الأطفال : « لا شك ان السيد ليس من هنا ؟ .. افيحب السيد ان يرى تحف الكنيسة ؟ » .. فقال الآخر : « لا ! » .. وجاس فى البداية خلال الردهة الخارجية ، ثم خرج ليلقى نظرة على الميدان ، ولكن « ايما » لم تكن وصلت بعد ، ومن ثم دخل ثانية وسار حتى المحراب .

وكانت صورة صحن الكنيسة منعكسة على أحواض

التعميد المترعة ، وقد ظهرت مقدمة الاقواس ، وبعض اجزاء من النوافذ الزجاجية . ولكن صور اللوحات الزيتية كانت تتكسر على حافة الرخام ، لتستقيم بعد ذلك على البلاط ، فتبدو كبساط متعدد الالوان . وكان ضوء النهار الساطع ينساب إلى داخل الكنيسة فى ثلاثة خطوط ضخمة ، خلال ثلاث كوات مفتوحة . ومن وقت لآخر ، كان احد خدم الكنيسة يمر فى الطرف الأقصى ، فيركع عند المذبح فى انحراف ، كما يفعل الاتقياء المتعجلون ! .. وكانت الثريات البلورية تتدلى ساكنة، وفى المحراب كان ثمة مصباح فضى مشتعل . وفى بعض الأحيان ، كانت تنبعث من الممرات الجانبية والبقاع المعتمة اصوات كانها التنهدات ، يصحبها صوت ارتطام نافذة تغلق ، فيتردد الصدى متموجا تحت القبة الفخمة ، وسار « ليون » بخطى ورعة فى محاذاة الجدران .. ابدا لم تبد له الحياة اطيب مما كانت إذ ذاك .. إن « ايما » لن تلبث أن تأتى ، فاتنة ، منفعلة ، تتلفت خلفها إلى الأبصار التى تتبعها ، وقد ارتدت ثوبها ذا الزوائد الهفهافة ، ونظارتها الذهبية ، وحذاءيها الرفيعين ، وكل مستلزمات الأناقة التى لم يستمتع بها ابدا من قبل ، تحف بها ما للعفة المستسلمة من غواية فاتنة .. والكنيسة كمخدع هائل يحيطها ! والاقبية تنحنى وكانها تنصت — فى الظلام — إلى اعتراف حبها ، والنوافذ تسمح للضوء بالانسحاب لينير وجهها ، والبخور يتصاعد ، وهى تبدو كالملاك وسط الدخان الذكى الشذى !

ولكنها لم تات .. فجلس على مقعد ، ووقعت عيناه على نافذة ذات زجاج ازرق يمثل ملاحين يحملون سلالا .. واطال تاملها فى تمعن ، واخذ يحصى زعانف الاسماك ، وعدد العرى فى

الصدارى ، بينما كانت افكاره تحلق نحو « ايما » .. وكان الحارس — الذى وقف جانبا — حانقا فى نفسه على هذا الشخص الذى اباح لنفسه ان يتامل محاسن الكاتدرائية بنفسه .. كان يبدو له انه يفرض نفسه ظلما ، وانه يسلبه بعض ما هو حق له .. بل ينتهك حرمة مكان العبادة ! .. على ان « ليون » ما لبث ان انتبه إلى حفيف حرير على البلاط ، وحافة قبعة ، ومعطف .. كانت هى ! .. ونهض جاريا ليلقاها .. فاذا هى شاحبة ، تسير بسرعة .. وقالت وهى تبسط له ورقة : « اقرا .. اواه ، لا ! » .. وسحبت يدها فى عجلة ، لتلج مصلى العذراء ، حيث ركعت وشرعت تصلى .. واحس الشاب بانفعال لهذه النزوة المتدينة .. وعلى انه لم يلبث ان شعر بشىء من الفتنة وهو يراها تغرق فى العبادة — خلال موعد غرامى — كمركيزة اندلسية ! .. ثم بدا يضجر ، إذ بدا له انها لن تفرغ !

* * *

● اخذت « ايما » تصلى — او بالأحرى تحاول جاهدة ان تصلى — أملا فى ان تهبط عليها من السماء عزيمة مفاجئة ! .. ولكى تستمد العون الالهى ، ملأت عينيها حتى اغرقتهما ببهاء المحراب ، وملأت صدرها بشذى الزهور المتفتحة التى كانت فى الأوانى الكبيرة ، واصغت إلى سكون الكنيسة الذى جعل لغط قلبها يبدو اكثر جلاء لاذنيها .. ثم نهضت . وفيما كانا يهمان بالانصراف اقبل الحارس وقال فى عجلة : « إن السيدة ليست من هنا ولا شك . هل تحبين يا سيدتى أن تتفرجى على تحف الكنيسة ؟ » .. فقال الكاتب :« آه ، لا ! » .. قالت

وهى تتشبث بعفتها المتداعيـة ، وبالعذراء ، والتمـاثيل ، والأضرحـة .. واى شىء : « ولم لا ؟ » .. ولكى يتفرجـا ـ حسب الأصول المرعية ـ قادهما الحارس إلى المدخل القريب من الميدان ، حيث أشار بعصاه إلى دائرة من الأحجار السوداء لا تعلوها كتابة ولا نقوش ، وقال فى جلال : « هذا محيط جرس « امبرواز » البديع .. إنه يزن اربعين الف رطل ، ولم يكن له صنو فى أوربا كلها .. ولقد مات الرجل الذى نحته فرحا ... » .

وهنا قال ليون : « لننصرف ! » .. ولكن الحارس عاد بهما إلى مقصـورة العذراء ، وبسـط ذراعيه بحركة تمثيلية فاخرة ، وهو اكثر زهوا من احد اعيان الريف إذ يعرض ثيرانه ، وقال : « هذا الحجر يغطى « بيير دوبريزيه » ، سيد (فارن) و (بريسـاك) ، والمارشال الأكبر لبواتو ، وحاكم نورماندى ، الذى مات فى معركة (مونتليرى) ، فى ١٦ يوليو سنة ١٤٦٥ » .. وعض « ليون » شفته وهو ينفخ غضـبا ، بينما استطرد الرجل : « وإلى اليمين مباشرة حفيدة « لوى دوبريزيه » سيد (بريفـال) و (مونشوفيه) ، وكونت دى مولفرييه ، وبارون دى مونى ، أمين الملك ، وعضـو نظـام الفرسان ، وحاكم نورماندى ايضا .. هذا هو السيد المكسو كله بالحديد ، على جواد رفع ساقه فى خطوة متخطرة .. مات فى ٢٣ يوليو سنة ١٥٣١ ، وكان يوم احد ، كما تنبىء بهذا السطور المنقوشة .. وتحته ، هذا الشخص الذى يهم بالنزول إلى القبر ، انه يمثل نفس السيد .. من غير الميسور ان تريا تمثالا اكمل تبيانا للفناء من هذا » .. ورفعت مدام « بوفـارى » نظارتهـا .. وبقى «ليون» جامدا يرقبها ، وقد كف عن محاولة الاتيان باية حركة ،

حتى عن ان ينبس بكلمة ، او يصدر اشـارة ! .. واحس بقنوط ازاء هذين الندين اللذين انهمكا فى الثرثرة واتفقا على عـدم الاكتراث به !

ومضى الدليل الأبدى فى شرحه : « وبالقرب منه ، هـذه المراة الراكعة التى تبكى .. إنها زوجته « ديانا دى بواتييه » ، كونتة (بريزيه) ودوقة (فالنتانوا) ، ولدت فى ١٤٩٩ ، وماتت فى ١٥٦٦ .. وإلى اليسـار ، هذه التى تحمل الطفل .. إنمـا العذراء المقدسة . والآن ، فلنعرج إلى هذه الناحية .. ها هى ذى قبور آل « امبرواز » الذين جمعوا بين مطرانية واسقفية (روان) ، كان هذا وزيرا فى عهد لويس الثـانى عشر ، وقد قام بأعمال جليلة للكاتدرائية ، وترك فى وصيته ثلاثين الفا من الدنانير الذهبية للفقراء .. ودفعهما الدليل — دون ان يتوقف عن السير او الكلام — إلى مقصورة مليئة بالحواجز التى اقصى بعضها ، فكشف عن كتلة من الصخر لابد انها كانت يوما تمثالا ردىء النحت .. ثم قال فى صـوت حزين : « لقد كانت تزين ـ حقا ـ قبر ريتشـارد قلب الأسد، ملك إنجلترا ودوق نورماندى . كان الكلفانيون (١) يا سيدى هم الذين شوهوه بهذا الشكل . وقد دفنوه ـ للنكاية ـ فى جوف الأرض ، تحت المقعد الأسقفى لصاحب النيافة . انظرا ! .. هذا هو الباب الذى كان الأسقف يجتازه إلى بيته .. لنمر بسرعة كى نرى النوافذ الميزابية » . بيد أن « ليـون » اسرع يخرج بعض قطع العملة الفضـية ،

(١) اتباع مذهب « كلفن » القائل ان الخلاص من الذنوب يتأتى بنعمة الله وليس بالاعمال ..

وامسك بذراع « ايما » . ووقف الحارس مذهولا ، لا يكاد يفقه سر هذا السخاء الذى اظهره الشاب فى غير موعده ، إذ كانت لا تزال هناك كثيرا من الاشياء التى يتوق الأجانب لرؤيتها .. لذلك اسرع وراءهما صائحا : « سيدى ! .. البرج! البرج ! » .. فقال ليون : « شكرا » ..

ــ ولكنك على خطأ يا سيدى ! .. ان ارتفاعه اربعمائة واربعون قدما ، اى اقل من ارتفاع هرم مصر الأكبر بتسعة اقدام .. كله من الحديد المصبوب ، و ...

وفر « ليون » ، إذ خيل إليه أن هواه الذى ظل ساعتين جامدا داخل الكنيسة كانه حجر ، يوشك الآن ان يتبخر ويتبدد كالدخان فى الفضاء ، متسربا خلال ذلك القمع الأبتر القائم فوق صندوق مستطيل والمتصل بمدخنة تصل إلى الفضاء ، خارجة من مبنى الكاتدرائية بشكل مزر ، كانها محاولة قام بها مهندس للمدافىء مبذر مأفون ! .. وقالت « ايما » : « إلى اين ترانا ذاهبين ؟ » .. ولكنه لم يجب ، بل سار بخطى واسعة .. وكانت مدام « بوفارى » قد غمست اصبعها فى الماء المقدس ، حين سمعا خلفهما انفاسا لاهثة ، يتخللها وقع عصا تطرق الأرض بانتظام ، فالتفت « ليون » ..

ــ سيدى ؟ ــ ماذا ؟

ورأى الحارس السويسرى يحمل تحت إبطه نحو عشرين كتابا كبيرا ، مجلدا ، احتضنها إلى بطنه ليحفظ توازنها .. تلك كانت المؤلفات التى تتعلق بالكاتدرائية .. فزمجر «ليون» وهو يندفع إلى خارج الكنيسة : « غبى ! » .. و كان ثمة صبى يلعب على مقربة ، فصاح به : « اذهب فاستدع عربة ! » ..

فقفز الصبى كالكرة صوب شارع (كاترفانت) ، وبقيا وحدهما بضع دقائق ، وجهـا لوجه ، يسـودهما شىء من الحرج .. وهمست ايما : « آه ! ليون ! .. اننى حقـا .. لا ادرى .. إذا كان ينبغى .. » ، ثم أردفت فى لهجة جادة : « هذا لا يليق البتة .. أفتدرك ؟ » .. فأجاب : « كيف ذلك ؟ انه أمر شائع فى باريس ! » .. فرضخت بعد هذه الكلمات ، وكانها حجة لا تقاوم !

* * *

● ولما لم تأت العربة فى تلك الأثناء ، خشى « ليون » ان تعود « ايما » إلى الكنيسة .. ولكن العربة ما لبثت ان ظهرت اخيرا . وصاح الحارس الذى خلفاه وحيدا لدى الباب :« اذن فاخرجا من الباب الشمالى حتى تريا ــ على الأقل ــ لوحات: البعث ، والحساب الأخير والجنة ، والملك داود ، والمذنبين فى نار جهنم » !!

وقال الحوذى : « إلى اين يا سيدى ؟ » فقال ليون وهو يدفع ايما إلى داخل العربة : « حيثما شئت » .. فانطلقت العربة خلال شارع (جران بونت) ، واجتازت ميدان (ديزار) ، و (وكيه نابوليون) ، و (بونت نيف) ، ثم وقفت عند تمثال (بيير كورنى) ، فصاح صوت من الداخل : « استمر ! » .. وعادت العربة تسير ، حتى إذا بلغت ميدان (كاريفور لافاييت) ، شرعت تهبط السفح ، ودخلت المحطة والجوادان يركضان . وصاح الصوت ذاته : «لا ، أمض فى خط مستقيم ! » .. فاندفعت العربة خلال الأبواب ، وسرعان ما بلغت

(الكورنيش) ولاحت تخطر الهوينى تحت أشجار الدردار .. وجفف الحوذى العرق عن جبينه ، ووضع قبعته الجلدية بين ركبتيه ، ثم قاد العربة فى الطريق الجانبية ـ المجاورة للمرج ـ إلى الطريق الممتدة بجانب الماء .. وسارت العربة فى محاذاة النهر ، فى الدرب الذى ترسو فيه المراكب ، والمرصوف بالحصى الصلب .. وظلت فترة طويلة فى اتجاه (اويسل) ، خلف الجزائر .. ولكنها انحرفت فجاة ، واندفعت عبر (كاترمير) و (سوتفيل) و (لا جراند شوسيه) وشارع (ديلبيف) ، ثم وقفت مرة ثالثة امام حديقة النباتات .. فصاح الصوت فى لهجة اشد حنقا من قبل : « امض فى السير ! » .. وعادت العربة تواصل سيرها ، مارة بسان سيفيه ، عن طريق (كيه ديه كورانديه)، و (كيه اوميل)، وعبرت الجسر مرة اخرى إلى ميدان (شام دومار) ، ثم مضت خلف حدائق المستشفى ، حيث كان الكهول ـ فى سترات سوداء ـ يتمشون فى الشمس ، فى محاذاة سياج قصير كساه اللبلاب بخضرة تامة .. ثم سارت إلى (بوليفار بورفيى) ، ومضت فى (بوليفار كوشواز) ، ثم طافت بمونت ريبوديه كلها ، واتجهت إلى تلال (ديفيل) .

ثم عادت العربة من حيث اتت، وراحت تلف كيفما اتفق، دون ما وجهة معينة ، فشوهدت فى (سان بول) ، و (ليسكور) ، و (مونت جارجان)، و (لاروج مارك) ، وميدان (جارياربوا) ، وشارع (مالادريرى) ، وشارع (ديناندرى) ، مارة بكنائس « سان رومان » ، و « سان فيفيان »، و « سان ماكلو » ، و « سان نيكيز » .. وأمام الجمارك ، وبرج (فييى تور) ،

و (تروا بيب) ، والمقبرة التذكارية . وكان الحوذى يلقى نظرة محسورة على الحانات من وقت لآخر .. لم يكن يفقه اية رغبة طاغية فى التنقل تحدو بالراكبين إلى عدم التوقف ! .. وحاول أن ينبههما ـ بين الفينة والفينة ـ فكانت صيحات الغضب تنبعث من خلفه ، ومن ثم ساط جواديه اللذين كانا يتصببان عرقا ، ولكنه لم يكترث لسيرهما ، بل تركهما يتخبطان هنا وهناك ، غير حافل .. وقد خارت قواه المعنوية ، واوشك ان يبكى لفرط الظمأ ، والتعب ، والضيق ..

وفى الميناء ـ وسط البضائع الثقيلة والبراميل ـ وفى الطرقات ، عند المنعطفات ، كان الناس يحملقون فى دهشة وعجب لمثل هذا المنظر غير المألوف فى الريف .. عربة مسدلة الستائر ، تبدو باستمرار مغلقة كما لو كانت قبرا ، وتتأرجح كأنها سفينة ! .. وحدث ان كانت العربة تسير فى الخلاء ، وقد انتصف النهار ، واخذت الشمس تلهب بقسوة مصباحى العربة العتيقين ، فامتدت يد من خلف الستائر الصغيرة المصنوعة من الخيش الأصفر ، والقت بقصاصات من الورق تناثرت فى الهواء ، ثم تهاوت بعيدا كالفراشات البيضاء على حقل البرسيم الذى تفتحت زهوره الحمراء !

وفى نحو الساعة السادسة ، وقفت العربة فى شارع خلفى بحى (بوفوازان) ، وهبطت منها امراة تسدل على وجهها قناعا ، وسارت دون أن تلتفت ..

الفصل الثانى

● دهشت مدام « بوفارى » إذ لم تر عربة البريد عند وصولها إلى الفندق — وكان السائق قد انطلق فى رحلته بعد أن انتظرها ثلاثا وخمسين دقيقة — ولم يكن ثمة ما يجبرها على الرحيل ، ولكنها كانت قد وعدت بأن تعود فى ذلك المساء ، فضلا عن أن « شارل » كان يرتقبها ، فأحست فى فؤادها بذلك الأسى الناعم الذى يكون بالنسبة لبعض النساء مغالبة للنفس وتكفيرا عن الفجور . وأسرعت تحزم متاعها ، ودفعت حساب الفندق ، ثم استقلت عربة من الساحة ، واستحثت الحوذى ، وراحت توسعه فى كل لحظة سؤالا عن الوقت وعدد الكيلومترات التى قطعها . واستطاع أن يلحق بالعصفورة — عربة البريد — وهى تقترب من طليعة بيوت (كينكامبوا) .. وما إن استقلت ايما إلى عربة البريد ، حتى أغمضت عينيها فلم تفتحهما إلا عند سفح التل ، لترى « فيليسيتيه » عن بعد ، وقد وقفت تنتظر العربة أمام دار الطبيب البيطرى ، فأوقف «هيفير» جواديه ، وتعلقت الخادم بنافذة العربة ، وقالت بلهجة غامضة : « سيدتى ، يجب أن تذهبى فورا إلى السيد هوميه ، فهناك أمر هام » .

وكانت القرية ساكنة كعادتها . وعند تقاطع الطرق ، كانت ثمة أكوام وردية ينبعث منها دخان فى الهواء ، إذ كان موسم صنع المربى قد حل .. وكان أهل (ايونفيل) جميعا يصنعون مؤونتهم منها فى نفس اليوم . على أن المرء كان لا يتمالك أن يعجب بكومة أمام الصيدلية بدت أكبر مما عداها ،

وأفضل منها ، بما لابد أن يتوفر لأى معمل من تفوق على المتاجر العادية ، حتى يتضح الفارق بين حاجة المتجر العام وحاجة الفرد ..

ودخلت « ايما » الصيدلية ، فاذا بالمقعد الكبير مقلوب ، بل وكانت صحيفة « فانال دى روان » ملقاة على الأرض ، بين مدقين (هاونين) .. ودفعت باب الردهة .. وبين الجرار البنية المليئة بالزبيب النباتى المجرد من اعناقه ، وبالسكر المسحوق والسكر البلاط ، وبالموازين على المنضدة ، وبأوانى الطهو على النار ، رأت أسرة هوميه كلها ، صغيرها وكبيرها ، فى مراول تغطى صدورهم حتى الأذقان ، وفى أيديهم شوكات وملاعق ، بينما كان «جوستان» يقف منكس الرأس، والصيدلى يصيح : « من قال لك أن تبحث عنه فى كفر ناحوم (1) ؟ » .. فتساءلت ايما : « ماذا هناك ؟ .. ماذا جرى ؟ » .. فأجاب الصيدلى : « ماذا هناك ؟ .. اننا نصنع المربى ، وهى تنضج على النار ، ولكنها أوشكت أن تفور وتفيض ، إذ زاد العصير ، فأمرت باحضار اناء آخر . فاذا به — اى جوستان — يذهب، بدافع من الخمول والكسل ، فيأخذ — من مسمار فى معملى — مفتاح كفر ناحوم » .. (فهكذا كان الصيدلى يسمى غرفة صغيرة تحت السقف مليئة بالأوعية والسلع الكيماوية . وكثيرا ما كان يقضى ساعات طويلة فيها ، وحيدا ، يلصق بطاقات ، ويفرغ بعض القنينات ، ثم يعيد أحكام سداداتها .. ولم يكن

---

(1) اسم قرية بفلسطين كان المسيح يتردد عليها كثيرا للتبشير برسالته وإظهار معجزاته .

يعتبرها مجرد مخزن ، وإنما كانت فى نظره محرابا قدسيا ، يخرج منه فيما بعد ما يكون قد اعده بيديه من كافة انواع الحبوب ، والجرعات ، والغسيل ، وعصائر الأعشاب ، والأدوية السائلة التى تحمل سمعته فتنتشرها طولا وعرضا !) .. ولم يقدر لمخلوق فى الدنيا ان يضع فى هذه الغرفة قدميه .. فقد كان يعتز بها ، ويكنس ارضها بنفسه .. وإذا كانت الصيدلية — المفتوحة لكل قادم — هى المكان الذى يعرض فيه براعته ، فان « كفر ناحوم » كانت الملاذ الذى يخلو فيه «هوميه» إلى نفسه ، حيث يستمتع بممارسة ميوله وهواياته .. ومن ثم كان تهور « جوستان » يلوح له كامتهان فظيع لحرمة المكان ، فراح يردد ووجهه اكثر احتقانا من الزبيب : « اجل ، من كفر ناحوم ! .. المفتاح الذى يغلق مخزن الأحماض والقلويات الكاوية ! .. إحضار وعاء إضافى .. وعاء ذى غطاء ، قد لا احتاج إلى استخدامه ! .. إن لكل شىء اهمية فى العمليات الدقيقة فى فننا ! .. ولكن ، يا للشيطان ! .. يجب ان يقيم المرء بعض الفوارق ، فلا يستعمل فى اغراض تعتبر منزلية ، اشياء خصصت لأعمال الصيدلة ! .. وإلا ، كان الأمر اشبه باستخدام المبضع لتقطيع دجاجة ، او كقاض .. » .

وهنا قالت مدام هوميه : « الا اهدأ » .. وتشبثت « اتالى » بسترته صائحة : « بابا ! بابا ! » .. فاستطرد قائلا : « دعونى الآن .. دعونى وحدى ! لعمرى ! بشرفى انه لخليق بالمرء ان ينشىء متجرا للبدالة ! .. هكذا .. اذهب ! لا ترع شيئا ! اكسر ، وهشم ، واطلق العلق الذى يمتص

الدم الفاسد ، واحرق المعاجين ، وخلل الخيار فى القماقم ، ومزق الأربطة والضمادات ! » .

وقالت « ايما » : « لكنك .. » .

— حالا ! .. افتعرف لأى شىء عرضت نفسك ؟ .. الم تر شيئا فى الركن ، إلى اليسار ، فوق الرف الثالث ؟ .. تكلم ، اجب .. قل شيئا !

وقال الفتى المتقع ، فى لعثمة : « لست .. لست ادرى » .

— آه ! لست تدرى ! جميل ! اما انا فاعرف ! لقد رايت زجاجة .. زجاجة زرقاء ، مختومة بالشمع الأصفر ، وتحتوى على مسحوق أبيض ، وقد كتب عليها ! «خطر !» .. افتدرى ماذا بها ؟ .. زرنيخ ! .. ثم تذهب فتلمسها .. وتحضر وعاء كان إلى جانبها !

فصاحت مدام هوميه وهى تهز قبضتيها : « إلى جانبها ! .. زرنيخ ! .. كان من المحتمل أن تسممنا جميعا ! » .

وشرع الأطفال يصرخون كما لو كانوا قد شعروا بآلام رهيبة فى احشائهم .. واستانف الصيدلى الحديث : «او تسمم مريضا ! .. افتريد أن ترانى فى قفص الاتهام مع المجرمين فى المحكمة ؟ .. او ان ترانى اساق إلى المشنقة ؟.. الا تعرف اى حذر التزمه فى كل الأمور ، رغم اننى تعودتها تماما ؟ .. إننى كثيرا ما اجزع إذ افكر فى مسئوليتى ، وبخاصة ان الحكومة تظلمنا وتضطهدنا ، والتشريع السخيف الذى يحكمنا ليس سوى سيف ديموكليس المعلق فوق رؤوسنا ! » .

ولم يعد لإيما امل فى ان تسال عما كانوا يريدون منها ..
واستمر الصيدلى فى عبـــارات لاهثة : « اهذا ما تقدمه جزاء كل ما اولينك من كرم ! .. ابهـــذا تكافئنى على الرعايـــة الأبوية الصادقة التى اغدقها عليك ؟ .. من يمدك بالغذاء ، والتعليم ، والثياب ، وكل الوسائل التى تمكنك يوما من ان تكون مكرما فى طبقات المجتمع ؟ ! .. ولكنك يجب ان تشـــد المجذاف بقوة وجهد – كما يقولون – حتى تتورم يداك » ! ..
ثم أردف باللاتينيـــة : « إن العامل الذى لا يعيش من عمله ، يفعل ما يشاء » .. ومضى يتكلم باللاتينية حتى تعب .. وما كان ليحجم عن الكلام باية لغة ، لو انه كان يعرفها ، لأنه كان يمر باحدى تلك النوبات التى تطفح فيها النفس بكل ما تحتوى عليـــه دون تمييز ، كالمحيط الذى يلفظ – فى الأنواء – كل ما فيه من الاعشاب البحرية القريبة من شـــاطئه ، والرمال التى فى اعماقه ! .. وعاد هوميه يقول : « لقد بدأت أعانى ندما شـــديدا إذ كلفتك .. كان يحسن بى بالتـــاكيد ان اتركك للبوار فى فقرك وفى القذارة التى ولدت فيهـــا .. آه ! انك لن تصلح قط لغير رعى الحيوانات ذات القرون ! .. ليس لديك استعداد للعلم ! إنك لا تكاد تعرف كيف تلصق بطاقة ! .. ومع ذلك فانت – كما ترى – تعيش معى نظيفا كالراهب، مرتاحا كديك يسمنه اصحابه ! » .

* * *

● لم تلبث « إيما » ان التفتت إلى مدام هوميه قائلة : « لقد استدعيت .. » .. فقطعت عليها السيدة حديثها قائلة فى لهجة حزينة : « آه ! يا إلهى ! ... كيف ازجى إليك النبأ ؟

.. انه شؤم ! » .. ولم تتم حديثها .. وكان الصيدلى يصيح مهدرا : « افرغها ! نظفها ! اعدها حيث كانت ! اسرع ! » ..
وامسك بـــ « جوستان » من ياقة قميصـــه ، فاوقع كتابا من جيبه . وانحنى الفتى ، ولكن «هوميه» كان اسرع منه . وما إن التقط الكتاب ، حتى تأمل عنوانه بعينين جاحظتين وفم فاغر : « الحب .. الزوجى ! » .. قالها فى تؤدة ، متعمدا ان يفصل بين الكلمتين ، ثم أردف : « آه ! جميل جـــدا ! جميل جدا ! بديع جدا ! .. وصور ايضا ! .. آه ، هذا كثير جدا ! » ..
واقتربت مدام «هوميه» ، فصاح : « لا .. لا تلمسى الكتاب » .. وأراد الأطفال ان ينظروا إلى الصـــور ، فصاح بلهجة آمرة : « اخرجوا من الحجرة ! » ، فخرجوا .. واخـــذ – فى البداية – يسير فى الغرفة رائحا ، غاديا ، والـــكتاب مفتوح بين اصابعه ، يقلب فيه بصره مشدوها ، مستحييا ، وانفاسه تتتابع فى عناء .. ثم اتجه إلى مساعده ، فوقف امامه ، وعقد ذراعيه على صدره ، وقال : « اذن ، فقد اجتمعت فيك كل الرذائل ايها التعس الصغير ! احترس ! .. انك بالتـــاكيد تتردى ! .. افلم يخطر ببالك ان هذا الكتاب الفاضح قد يقع فى ايدى اولادى ، فيشـــعل فى اذهانهم شرارة ، ويلطخ طهر « اتالى » ، ويفسد « نابليون » ! .. لقد دخل مدارج الرجال .. افانت واثق – على الأقل – من انهما لم يقرآه ؟ .. هل تقسم ؟ » .

وقالت ايما : « ولكن يا سيدى .. هل اردت ان تقول لى .. ؟ » .

— اجل ياسيدتى .. ان حماك قد توفى !

* * *

● كان السيد « بوفارى » الاب قد مات بغتة ، فى الليلة السابقة ، من جراء سكتة قلبية . وزيادة فى الحيطة ، وحرصا على مشاعر « ايما » ، التمس « شارل » من هوميه أن ينهى إليها النبأ « الفظيع » فى رفق وحكمة ! .. ولقد فكر هوميه فيما يقول ، ونمق القول ، وصقله ، ووزنه ، حتى جعله تحفة من الحكمة والتدرج ، ومن الحيلة والرقة ، ولكن الغضب كان اكثر بلاغة وبيانا .. وإذ يئست « ايما » من أن تسمع اية تفصيلات ، بارحت الصيدلية . وكان السيد هوميه قد عاد يستأنف السباب والتقريع ، وإن كانت سورة غضبه قد بدأت تهدأ ، واصبح يهدد فى لهجة أبوية — وهو يحرك قلنسوته الاغريقية التماسا للهواء ! .. « ليس معنى هذا اننى لا اقر الكتاب البتة ، فان مؤلفه طبيب ! .. فضلا عن انه يحتوى على مسائل عملية ليس من الضرر ان يعرفها رجل .. بل اننى لاذهب إلى أن على الرجل أن يعرفها .. ولكن ، فيما بعد .. فيما بعد ! .. انتظر على الأقل حتى تغدو رجلا ، وتكمل مداركك ! » .

وعندما قرعت « ايما » باب بيتها ، اقبل « شارل » — الذى كان فى انتظارها — باسطا ذراعيه أمامه ، وقال والدموع تخالط صوته : « آه ، يا عزيزتى ! » .. وانحنى بلطف يقبلها ، ولكن ملمس شفتيه رد ذكرى الرجل الآخر إليها ، فمسحت وجهها براحتها وهى ترتجف . واطلعها على

الخطاب الذى روت فيه أمه الحادث ، دون ما مبالغات عاطفية ، لم تكن آسفة الا على ان زوجها لم يحظ بالمراسم الدينية ، إذ مات فى الطريق — فى (دودفيل) — على باب مقهى ، بعد مادبة وطنية مع الضباط القدامى .. وأعادت « ايما » الخطاب إلى زوجها . وعند العشاء ، تصنعت بعض الزهد للتظاهر بالأسى ، ولكنها اقبلت على الطعام — حين الح عليها أن تحاول — بينما جلس هو منصرفا عن الأكل ، لا يحير ساكنا .. وكان من وقت لآخر يرفع راسه ويرمقها بنظرة طويلة زاخرة بالحزن . وتنهد مرة قائلا : « وددت لو اننى كنت رايته مرة اخرى ! » .. وكانت « ايما » لائذة بالصمت ، ولكنها أدركت أخيرا ان لابد لها من أن تقول شيئا، فسالته : « كم كان عمر ابيك ؟ » .

— ثمانية وخمسين — آه !

وكان هذا كل ما لديهما . وما لبث ان أضاف بعد ربع ساعة : « يا لأمى المسكينة ! .. ماذا سيكون من أمرها الآن ؟ » .. فصدرت من « ايما » اشارة تنم عن انها لا تدرى .. وإذ راى « شارل » وجومها ، خيل إليه انها شديدة التأثر ، فحمل نفسه على الكف عن الكلام ، لكى لا يذكى هذا الأسى الذى تملكها . على انه ما لبث ان قال ليغالب اساه : « هل استمتعت بيوم أمس ؟ » .. فأجابت : « نعم » .. حتى إذا رفعت المائدة ، لم ينهض « بوفارى » ، ولا نهضت « ايما » .. وفيما كانت تنظر إليه ، اخذ جمود المنظر يطرد من قلبها — شيئا فشيئا — كل رثاء واشفاق .. فقد لاح لها زوجها تافها سخيفا ، ضعيفا ، عديم الشخصية .. وقصارى القول :

كان فقيرا ، مسكينا ، من كل النواحى ! .. فكيف تتخلص منه ؟ .. ويا لها من ليلة لا تنتهى ! .. وتملكها شىء مخدر كدخان الأفيون ! .. وما لبثا ان سمعا فى الردهة ضجة ناشئة عن وقع ساق خشبية على الواح الأرضية ، وإذا «هيبوليت» قد اقبل حاملا متاع السيدة . ولكى يضعه على الأرض ، لف فى عناء ، راسما بساقه الخشبية ربع دائرة .. فقالت «ايما» لنفسها وهى تتأمل هذا الشيطان المسكين الذى كان شعره الأحمر الكث يقطر عرقا : « إنه لم يعد يذكر شيئا ! » .. وأخذ « بوفارى » يبحث فى قاع كيس نقوده — عن قطعة من العملة النحاسية ، دون أن يبدو عليه انه يفطن إلى ما هناك من ذلة ومهانة له ، فى مجرد وجود هذا الرجل الذى كان يقف وكأنه تأنيب مجسم للخطأ الذى كان وليد عجز الطبيب ، والذى لا سبيل إلى اصلاحه !

واخيرا ، قال شارل لزوجته : « مرحى ! لقد جئت بباقة جميلة ! » .. فقالت « ايما » فى غير اكتراث : « اجل .. اشتريتها قبيل حضورى ، من متسول » .. فتناول «شارل» الزهور لينعش بها عينيه المحتقنتين من اثر الدموع ، وشمها فى رفق .. فأسرعت «ايما» تأخذها من يده وتضعها فى كوب ماء !

* * *

● وصلت مدام « بوفارى » الأم فى اليوم التالى ، فبكت مع ابنها كثيرا .. بينما اختفت « ايما » بحجة اعطاء تعليمات للخادم . وفى اليوم الذى اعقبه ، تحدثوا عن الحداد ، ثم ذهبوا فجلسوا تحت الخميلة ، بجوار النهر ، وقد حملت

المراتان صندوقى اشغالهما .. واخذ « شارل » يفكر فى أبيه ، فادهشه ان احس بحب جم لذلك الرجل الذى كان يظن — حتى ذاك الحين — انه لا يحفل به كثيرا . كذلك راحت مدام «بوفارى» الأم تفكر فى زوجها .. وبدت لها اسوا ايام الماضى اياما لا تعوض .. نسيت كل شىء فى غمرة حسرتها الغريزية على مثل هذه العشرة الطويلة ! .. وكانت تنحدر على أنفها — من آن لآخر وهى تخيط — دمعة كبيرة تقف عند اسفله لحظة معلقة .. أما « ايما » فكانت تفكر فى انه لم تمض بعد ثمان واربعون ساعة مذ كانت مع « ليون » بعيدين عن الدنيا ، فى نشوة من الغبطة ، وقد ود كل منهما لو كان له مزيد من الأعين ليتملى من الآخر .. واخذت تحاول تذكر ابسط تفصيلات اليوم الأسبق ، ولكن وجود زوجها وحماتها كان يزعجها ، فتمنت ان لا تسمع شيئا ، وان لا ترى شيئا ، حتى لا يضطرب تفكيرها فى حبيبها .. على أن هذا التفكير كان يتبدد فى احاسيسها بما هو خارج كيانها ، رغم كل ما بذلت !

وكانت تفكك بطانة ثوب ، فتناثرت قطع القماش حولها . امام مدام « بوفارى » الأم ، فكانت تحرك مقصها فى نشاط دون ان ترفع راسها ، فى حين كان « شارل » ينتعل الخفين اللذين يستعملهما فى اوقات راحته ، ويرتدى « ردنجوته » الأسمر القديم الذى كان يستخدمه كثوب منزلى ، وقد جلس مغيبا يديه فى جيبيه ، دون أن يتكلم .. وعلى مقربة منهم ، كانت « بيرت » فى مرولة بيضاء صغيرة ، تعبث بمجرفتها فى رمال دروب الحديقة . وفجأة ، راوا مسيو « لوريه » — تاجر الاقمشة — يقبل خلال الباب الخارجى .. جاء يعرض خدماته « فى الظروف

المحزنة » ، فأجابت « ايما » بأنها تظن أن بوسعها أن تستغنى عن الجديد ، بيد أن التاجر لم يسلم بالهزيمة ، بل قال لشارل : « معذرة .. أحب أن أتكلم معك على حدة ! » .. ثم قال بصوت خفيض : « الأمر يتعلق بتلك المسألة .. التى تعرفها » ، فاحتقن وجه « شارل » حتى أذنيه ، وقال :« آه ، أجل ! .. بالتأكيد ! » .. والتفت فى ارتباكه إلى زوجته وقال : « هلا توليت أنت الأمر يا عزيزتى ؟ » .. ولاح أنها أدركت ، إذ نهضت .. فقال شارل لأمه ! انها ليست مسألة ذات بال .. بعض مطالب البيت البسيطة » .. فلم يكن الطبيب راغبا البتة فى أن تعرف أمه شيئا عن قصة السند ، خشية لومها !

وما إن أصبح السيد « لوريه » على انفراد مع « ايما » حتى شرع يهنئها فى عبارات واضحة بالميراث ، ثم تكلم عن مسائل غير ذات بال ، كعرائس النباتات ، والمحصول ، وعن صحته التى كانت دوما بين بين ، فى صعود وهبوط .. وكان مضطرا إلى أن يجد ويعمل جاهدا ، وإن لم يملك أن يكسب ما يدر عليه « غموسا » لخبزه ، رغم ما يقوله كل الناس .. وتركته « ايما » يتكلم .. فما أكثر ما احتملت من مضايقات فى هذين اليومين الأخيرين ! .. ومضى يقول : « وأنت .. هل أصبحت بخير مرة أخرى ؟ .. لعمرى ! .. لقد رأيت زوجك فى حال محزنة .. انه شاب طيب ، وإن كان بيننا سوء تفاهم بسيط » .. فسألته عن سوء التفاهم ، إذ لم يكن شارل قد أنبأها بالنزاع الذى جرى بشأن السلع التى أحضرها لها التاجر ، فصاح « لوريه » : « عجبا ، انك لتعرفينه تماما ! .. كان من أجل رغباتك الكمالية .. حقائب السفر ! » .

وكان قد أرخى قبعته على عينيه ، وعقد يديه خلف ظهره ، وراح يبتسم ويصفر وهو يتفرس فى وجهها بطريقة لا تطاق . أتراه حدس شيئا ؟ .. وتاهت « ايما » فى كل أنواع الهواجس .. غير أنه ما لبث أن عاد يقول: « على أننا سوينا الأمر .. وقد جئت أعرض عليه تسوية جديدة » .. تلك هى تجديد السند الذى وقعه « بوفارى » ، ولا ريب أن الطبيب سيسر لهذا ، إذ ليس عليه أن يزعج نفسه ، لا سيما فى ظروفه الحاضرة التى تشغله بطائفة من الهموم .. « أو أنه ليحسن صنعا لو عهد بهذه المسألة إلى شخص آخر – اليك أنت ، مثلا ! – وهو أمر سهل التدبير إذا أعطاك توكيلا رسميا ، وإذ ذاك نستطيع – أنت وأنا – أن نبرم معا صفقات صغيرة » ! .. ولم تفقه مرماه .. ولاذ التاجر بالصمت ، ثم تحول إلى تجارته ، فقال أن لا بد للسيدة من أن تحتاج إلى شىء ، وأنه سيرسل إليها قماشا أسود ، يكفى اثنا عشر مترا منه لعمل ثوب ، وأردف قائلا : « هذا يصلح للبيت ، ولكنك فى حاجة إلى ثوب للخروج ، وقد لاحظت هذا لأول وهلة حين قدمت .. فاننى أوتيت ما للأمريكيين من سرعة ملاحظة ! » .

* * *

● ولم يرسل القماش ، وإنما أحضره بنفسه .. ثم جاء مرة أخرى ليقيسه .. وأخذ يتردد على المنزل لعلل أخرى ، وهو يحاول دائما أن يتلطف، وأن يبدو ذا نفع – عارضا خدماته فى الوقت المناسب ، كما كان يمكن أن يصفه هوميه – وكان لا يفتأ يشير فى حديثه مع « ايما » إلى « التوكيل الرسمى » . على أنه لم يذكر السند قط ، ولا هى فكرت فيه .. ومن المؤكد



ولم يرسل القماش ، وإنما احضره
بنفسه .. ثم جاء مرة اخرى ليقيسه ..

ان شارل حدثها عنه فى بداية نقاهتها ، ولكن كثيرا من المشاعر والانفعالات تناوبت رأسها ، فلم تعد تتذكره ، فضلا عن انها حرصت على ان لا تتعرض لأية مسائل مالية ، مما ادهش الأم « بوفارى » ، وحملها على أن تعزوه إلى التطور الذى طرأ على مشاعرها الدينية خلال مرضها ! .. ولكن ، ما ان كانت الأم تغيب ، حتى كانت «ايما» تثير دهشة بوفارى بادراكها العملى .. فمن الضرورى الحصول على بعض بيانات ، وتحرى « الرهنيات » ، وتبين ما إذا كانت ثمة فرصة لعمل تصفية او « بيع بالمزاد العلنى » .. وكانت تذكر - عرضا - بعض المصطلحات القانونية ، وتنطق بالكلمات الكبيرة عن الطلب والحوالة ، والمستقبل ، وتدبر العواقب . وتعمد دائما إلى المبالغة فى وصف الصعاب التى تعترض تسوية شئون ابيه .. حتى انتهت ذات يوم إلى أن اطلعته على مسودة توكيل رسمى ينيبها عنه فى أن « تتولى ، وتتصرف فى اعماله ، بما فى ذلك تدبير القروض بانواعها ، وتوقيع وتحويل السندات بانواعها ، ودفع جميع المبالغ ، الخ » .. وهكذا ، كانت قد فهمت دروس « لوريه » !

وسالها «شارل» - فى سذاجة - عن مصدر تلك الورقة ، فقالت : « السيد جيومان » . ثم اردف بغاية الهدوء : « اننى لا اثق فيه كثيرا ، فان لموثقى العقود سمعة سيئة . .وقد يحسن بنا أن نستشير .. ولكننا لا نعرف .. احدا »
.. فأجاب « شارل » مفكرا : « اللهم الا .. ليون » .. على انه كان من العسير مناقشة الأمور بالمراسلة ، ومن ثم تطوعت لأن تسافر ، فشكرها معتذرا ، ولكنها أصرت .. وتباريا فى

التطوع للأمر .. ثم صاحت فى غضب مصطنع : « لا ، ارجوك .. سأذهب أنا » ، فقال وهو يقبل جبهتها : ما اطيبك ! » ..

وفى اليوم التالى ، استقلت « العصفورة » ذاهبة إلى (روان) لتستشير السيد « ليون » .. ومكثت هناك ثلاثة أيام !

الفصل الثالث

● كانت ثلاثة أيام كاملة ، ممتعة ، رائعة .. شهرٌ عسل حقيقى ! .. كانا فى فندق (بولونى) ، عند الميناء .. وهناك ، عاشا بين الستائر المسدلة ، والابواب المغلقة ، والزهور على الأرض ، والمشروبات المثلجة تحمل إليهما كل صباح .. وفى المساء ، كانا يستقلان قاربا غير مكشوف ، ويذهبان للعشاء فى احدى الجزر .. تلك كانت الساعة التى يسمع فيها ـ بجانب ارصفة الميناء ـ صوت المطارق الخشبية وهى تدق جوانب المراكب .. ودخان القار يتصاعد بين الأشجار .. وعلى صفحة الماء تسبح بقع كبيرة شحمية ، وتتموج تحت ارجوان الشمس ، كأنها صفائح من البرونز الفلورنسى .. وكانا يمضيان بقاربهما وسط المراكب الراسية ، التى كانت اسلاكها الطويلة الممتدة بانحراف ، تحتك بعض الشىء بأسفل القارب .. ويأخذ عجيج المدينة فى الخفوت رويدا ، فتتباعد قرقعة العربات ، وهدير الاصوات ، وعواء الكلاب الرابضة على أسطح السفن .. وكانت « ايما » تخلع قبعتها ، ثم يهبطان إلى جزيرتهما ،

فيجلسان فى القاعة ذات السقف المنخفض ، فى احدى الحانات التى اسدلت على ابوابها شباك سوداء .. ويأكلان السمك المقلو ، و « الكريمة »، والكريز ، ثم يستلقيان على الأعشاب ، ويتبادلان القبلات وراء أشجار الحور ، ويتمنيان لو انهما عاشا كطائرين فى هذه البقعة الصغيرة التى يخالاها ـ فى نشوتهما ـ افخم بقاع الأرض ! .. وما كانت هذه أول مرة يريان فيها اشجارا ، وسماء زرقاء ، ومروجا ، أو يسمعان فيها خرير الماء ، وحفيف الريح خلال اوراق الشجر .. ولكنهما لم يعجبا بكل هذا قبل الآن ، وكانما لم يكن للطبيعة وجود من قبل ، أو كانها لم تحظ بالجمال الا منذ استجابا لشهواتهما !

ويعودان فى الليل ، ينساب بهما القارب مارا بشواطىء الجزر ، وقد جلسا معا فى قاعة ، منزويين فى الظلال ، صامتين .. والمجدافان العريضان يرتطمان بالحلقتين الحديديتين ـ اللتين ثبتتا إليهما ـ فيبدو وقعهما فى السكون كدقات مؤذنة بمرور الزمن ، تصدر عن جهاز للتوقيت . .بينما تكف الدفة ـ فى المؤخرة ـ عن حفيفها الرقيق فى الماء . .وحدث أن بزغ القمر مرة ، فلم يفتهما أن يصفاه بعبارات رقيقة ، وأن يعلقا على الكوكب الحزين المفعم بالشاعرية .. بل أن « ايما » شرعت تغنى : « ذات ليلة ـ افتذكر ؟ ـ كنا نمخر عباب الماء .. الخ » .. وضاع صوتها الرخيم الواهن مع الأمواج ، وحملت الريح الصوت المرتعش الذى خاله « ليون » رفيف جناحين حوله ! .. وكانت تجلس أمامه ، متكئة على جدار القارب الذى كان ضوء القمر ينساب خلال نافذته .. وثوبها الأسود الذى انتشر حولها كالمروحة ، يظهرها ارشق عودا ، واهيف

قواما .. وقد ارتفع راســـها ، وانعقدت يداها ، وتطلعت عيناها إلى السماء .. وكانت ظـــلال الصفصـــاف — على شواطئ الجزر التى يمران بهـــا — تغمرها تمامـــا فى بعض الأحيان ، ثم لا تلبث ان تظهر فى ضوء القمر كالطيف !

وعثر ليون — وهو جالس إلى جوارها فى قاع القارب — على شريط من الحرير القرمزى تحت يده ، فتأمله النوتى ، ثم قال : « لعله من مخلفات الجماعة التى كنت اقلها فى اليـــوم السابق .. ثلة من المرحين ، سادة وسيدات ، ومعهم فطائر وشمبانيا وابواق الصيد .. وكل ما يخطر بالبال ! .. وكان بينهم — بوجه خاص — رجل انيق ، ذو شاربين صغيرين ، بالغ الظرف ! .. وكانوا يقولون له : هيا ، ارو لنا شيئا .. يا ادولف .. او لعله رودولف .. على ما أظن »!.. وارتجفت « ايما » فاقترب منها «ليون» قائلا : « هل تشكين من شيء ؟ » .. فقالت : « لا ، لا شيء ! .. انها رطوبة الليل ولا بد ! » .. واضاف النوتى الكهل بصوت خافت ، ظنا منه انه يتلطف إلى الشاب الغريب : « ولم تك تنقصـــه الفتنة التى تدير رؤوس النسـاء ! » .. ثم بصق فى راحتيه ، واكب على مجدافيه ..

ومع ذلك ، كان لا بد من أن يفترقـــا .. وكان الوداع اليما .. واتفقا على أن يرسل خطاباته بعنوان الام «روليه» ، فاوصته بان يحرص على ان يضع كل الرســـالة فى مظروف داخل المظروف الخارجى ، فاطرى — فى إعجاب شديد — هذا الحرص الغرامى !.. وقالت مع قبلتها الأخيرة : « إذن، فانت تؤكد لى ان كل شيء على ما يرام ؟ » .. فاجاب : « اجل .. بالتاكيد ! » .. وراح يسائل نفسه فيما بعد ، وهو يعود وحده

خلال الطرقات : « ولكن ، لمـــاذا هى جد ملهوفة على التوكيل الرسمى ؟ » .

الفصل الرابع

● لم يلبث « ليون » أن ابدى ترفعا إزاء زملائه ، فاخذ يتحاشى صحبتهم ، واهمل عمله اهمالا تامـــا .. وكان ينتظر خطاباتها ، فيقرؤها مرارا ، ثم يكتب إليها ، ويروح يتمثلها بكل ما لشهوته وذكرياته من قوة . واخذ الشوق إلى رؤيتها يزداد بدلا من أن يفتر لطول الفراق ، حتى انتهى به الأمر — فى صباح يوم سبت — إلى الفرار من عمله ، ليزورها ! وما إن ابصر — من أعلى التل — برج الكنيسة فى الوادى ، والراية الحديدية البيضاء الصغيرة التى تعلوه — وهى تتحرك مع الريح — حتى شعر بتلك الغبطة الممتزجة بالغرور المزهو ، والحنو الأنانى .. تلك الأحاسيس التى تستشعرها الملايين من الناس حين يزورون قراهم ! .. وراح يحوم حول بيت « ايما » .. وكان ثمة ضوء ينبعث من المطبخ . واخذ يرتقب ظلها وراء الستائر ، ولكن شيئا لم يظهر !

وأرسلت الأم «لوفرانسوا» فيضا من صيحات العجب ، إذ خيل إليها انه « كبر ، ونحل عوده » ، بينما الفته « ارتميز » على النقيض « ازداد سمنة وسمرة » ! .. وتناول عشاءه فى القاعة الصغيرة ، كعهده فى الماضى ، ولكنه كان وحيدا ، إذ لم يكن محصل الضرائب هناك . فقد سئم «بينيه» ، انتظار عودة

« العصفورة » فى كل مساء ، فقرر أن يقدم موعد عشائه ساعة ، واصبح يتناوله فى الساعة الخامسة بانتظام ، ومع ذلك فلم يكن يكف عن القول بأن « ساعة الفندق العتيقة متأخرة » !

على أن « ليون » لم يلبث ان حزم امره ، فطرق باب الطبيب .. وكانت السيدة فى حجرتها .. اما السيد ، فقد ابدى اغتباطا لرؤيته . وفى ذلك المساء ، رآها «ليون» وحدها — فى ساعة جد متاخرة — فى الدرب الممتد وراء الحديقة .. عين الدرب الذى كانت تقابل فيه « الآخر » ! .. وكانت الليلة عاصفة ، فراحا يتناجيان تحت مظلة ، على وميض البرق .. وكان الفراق لا يطاق ، فقالت ايما : « أن الموت أهون ! » .. وتمرغت فى أحضانه باكية ، وهى تقول : « وداعا ! .. وداعا ! .. متى أراك ثانية ؟ » .. ونكصا على اعقابهما ليتعانقا مرة اخرى .. وإذ ذاك ، عاهدته على أن تدبر عما قريب — بأية وسيلة كانت — فرصة يلتقيان فيها بانتظام — وفى حرية — مرة فى كل اسبوع .. على الاقل ! .. وما ارتابت « ايما » قط فى قدرتها على ذلك ، فضلا عن انها كانت مفعمة بالأمل ، إذ كانت توشك ان تحصل على بعض المال .. وفى ارتقاب وصوله ، ابتاعت لمخدعها زوجا من الستائر الصفراء ذات الخطوط العريضة ، اكد السيد « لوريه » انها حصلت عليهما باقل من ثمنهما . وكانت تحلم بسجادة ، فقال « لوريه » انه ليس بالحلم العسير ، وانها لا تطمع فى « أن تشرب البحر » ، وتولى احضار سجادة لها . ومن ثم لم تعد تستغنى عن خدماته . وكانت ترسل فى استدعائه عشرين مرة فى اليوم ،

فيترك اعماله دون تذمر ليلبى دعوتها .. كذلك لم يعد الناس يدركون سر ذهاب الام « روليه » لتتناول الفطور عندها كل يوم ، ولا سر اختلائها بها فى زياراتها ..

* * *

● وفى تلك الفترة — اى حوالى بداية الشتاء — تملكها شغف كبير بالموسيقى . وفى احدى الليالى ، جلس « شارل » يصغى إليها ، فاذا بها تعيد عزف القطعة ذاتها اربع مرات متواليات ، وهى غير راضية ، مع انه لم يلاحظ فى عزفها اى اختلاف ، فصاح : « مرحى ! .. بديع جدا ! .. انك مخطئة فى ظنك ! .. واصلى ! » .

— آه .. لا .. هذا نشاز .. لقد صدات اصابعى !

ورجاها فى اليوم التالى أن تعزف له ثانية احدى المقطوعات ، فقالت : «لا بأس .. إرضاء لك !» . واعترف « شارل » بأنها خرجت عن اللحن قليلا .. وراحت تخطىء فى توقيع الأنغام ، وتتخبط ، ثم توقفت دون أن تتم اللحن ، وهتفت : « آه ! .. لا فائدة ! .. خليق بى ان اتلقى دروسا ، ولكن .. » .. وعضت شفتها مستطردة : « ولكن عشرين فرنكا للدرس ، مبلغ باهظ ! » .. فقال « شارل » متضاحكا فى غباء : « اجل ، فى الواقع .. بعض الشىء .. إنما يلوح لى ان فى وسع المرء أن يحصل على الدروس بثمن اقل .. إذ هناك فنانون مغمورون ، كثيرا ما يكونون افضل من المشهورين » .. قالت ايما : « ابحث عنهم ! » .

وعندما عاد إلى البيت فى اليوم التالى ، رمقتها بنظرة خبيثة ، وما لبث ان عجز عن كتمان ما لديه ، فقال : « كم انت عنيدة فى بعض الأحيان ! .. لقد كنت فى (بارغوشير) اليوم .. حسنا ! .. لقد انبأتنى مدام » ليبجار « ان بناتها الثلاث اللاتى يدرسن فى معهد الرحمة — « لاميزيريكورد » — يتلقين دروسا بمعدل خمسين سو (اى فرنكين ونصف) للحصة .. وعلى يدى استاذة مشهورة كذلك ! » .. فهزت كتفيها ، ولم تعد تفتح معزفها . ولكنها كانت كلما مرت به — و « بوفارى » موجود — زفرت قائلة : « آه .. يامعزفى المسكين ! » .. وإذا زارها احد ، لم تكن تقصر فى إشعاره بأنها هجرت الموسيقى ولم تعد قادرة على العودة إليها ، لأسباب قاهرة . فكان الزائر يقول : « يا للخسارة ! .. كيف ذلك وهى التى أوتيت هذه الموهبة البديعة ! ؟ » .. بل كان الزائرون يتحدثون إلى « بوفارى » ، ويخجلونه .. لاسيما الصيدلى الذى كان يقول : « انك على خطأ ، فما ينبغى للمرء قط ان يترك المواهب الطبيعية مهملة . ثم تذكر ، يا صديقى الحميم ، انك إذ تحمل زوجتك على الدراسة ، إنما تقتصد نفقات التعليم الموسيقى لطفلتك فيما بعد ! فانا أعتقد أن على الأمهات ان يعلمن اطفالهن بانفسهن ! .. هذا راى « روسو » .. ولعله لا يزال رايا مستحدثا ، ولكنى متاكد من انه لن يلبث ان ينتصر فى النهاية ، كما انتصر الراى الخاص بلبن الأم ، وبتطعيم الأطفال ! » .

وهكذا عاد شارل مرة اخرى إلى موضوع « البيانو » ، فقالت «ايما» فى جفاء: إن من المستحسن بيعه.. وبدا لبوفارى

ان التفريط فى هذا المعزف — الذى طالما ارضى كبرياءها — ليس سوى قتل لجزء من كيانها دون مراء ، ومن ثم قال : « إذا كنت بحاجة إلى درس — من وقت لآخر — فما اظن هذا يبهظنا كثيرا » ، فأجابت : « ولكن الدروس لا تجدى الا إذا تتابعت فى مثابرة » .

وبهذه الطريقة ، استطاعت ان تحصل على اذن من زوجها بأن تذهب إلى (روان) مرة كل اسبوع ، حيث كانت تلتقى بعشيقها .. وما انقضى شهر ، حتى بدا انها احرزت تقدما كبيرا فى العزف !!

الفصل الخامس

● كان اليوم الذى خصص للدراسة هو يوم الخميس من كل اسبوع .. فكانت تنهض من نومها وترتدى ثيابها فى هدوء ، حتى لا توقظ «شارل» الذى كان ولابد سيدهش ، لانها تتاهب للرحيل فى وقت جد مبكر ! .. وكانت بعد ذلك تروح وتجىء ، وتذهب إلى النوافذ فتطل على الميدان .. والفجر الوليد يحبو بين اعمدة السوق ، وبيت الصيدلى ، حيث تكون المصاريع مغلقة .. وعلى ضوء الفجر الشاحب ، تبدو الحروف الكبيرة التى كتبت بها لافتة الصيدلى .. فاذا ما أشارت الساعة إلى الربع بعد السابعة ، قصدت إلى فندق « الأسد الذهبى » ، فتفتح لها « ارتميز » بابه وهى تتثاءب ، ثم تحرك لها الفحم القابع تحت رماد المدفاة .. وتبقى « ايما » فى المطبخ وحيدة ، تخرج من آن لآخر ، و « هيفير » يسرج جواديه فى تراخ ، مصغيا — بجانب ذلك — إلى الأم « لوفرانسوا » التى تدفع

راسها بقلنسوة النوم القطنية خلال كوة ، وتكلفه بالمهام ، وترهقه بايضاحات كانت كفيلة بان تثير غيظ اى إنسان آخر .. وتظل « ايما » تدق رصيف الفناء بنعلى حذاءيها .. واخيرا ، يرتدى الحوذى معطفه ــ بعد ان يكون قد تناول حساءه ــ ويشعل غليونه ، ويقبض على سوطه ، ثم يستقر على مقعده فى « العصفورة » ، فتبدا هذه رحلتها فى خطى بطيئة ، متوقفة هنا وهناك ــ خلال الميل الأول ــ لتلتقط المسافرين الذين يكونون فى انتظارها وقوفا على حافة الطريق، امام ابواب افنية دورهم .. وكان الذين حجزوا لانفسهم مقاعد فى الليلة السابقة ، يتركون العربة تنتظرهم .. بل كان منهم من ينتظرها وهو فى سريره ، داخل داره .. فكان « هيفير » ينادى ،ويصيح ، ويصخب ، ثم يهبط عن مقعده ، ويطرق الأبواب فى عنف .. والريح تصفر خلال شقوق نوافذ العربة ..

* * *

● وإذ تمتلىء المقاعد الأربعة ، تنطلق العربة ، وصفوف اشجار التفاح تتتابع ، والطريق بين خطى الخنادق المليئة بالماء الاصفر ــ لرى هذه الأشجار ــ تمتد مائلة إلى الضيق باطراد كلما قاربت الأفق .. وكانت « ايما » قد عرفت هذه الطريق من اولها إلى نهايتها ، فكانت تعلم ان ثمة علامة من علامات الطريق تقوم بعد منطقة من المراعى ، تتلوها شجرة دردار ، ثم احد الاهراء (شونة) ، وكوخ احد الفلاحين العاملين فى الحقول .. بل إنها كانت احيانا تغمض عينيها املا فى المفاجآت. ولكنها كانت لا تخفق ابدا فى التكهن بما يطوى من مسافات

.. واخيرا ، تبدا البيوت المبنية بالطوب فى التتابع ، وتزداد تقاربا ، ويسمع للعجلات صوت خاص ــ إذ تدلف إلى الطرق المرصوفة ــ ثم تنساب « العصفورة » بين حدائق يرى المرء خلال فرجاتها تماثيل ، واحدى عرائش الكروم ، واشجار « الشوحط » المقلمة ، وارجوحة .. ثم تظهر المدينة فجاة ، متدرجة فى الانحدار كما لو كانت مدرجا فى احد الملاعب ، وقد غرقت فى احضان الضباب ، .. وتنبسط بعد الجسور ، متسعة فى فوضى .. ثم يمتد الريف بعد ذلك ، فى استرسال رتيب ، حتى يمس ــ على البعد ــ الخط المائع الذى تلتقى عنده السماء الباهتة بالأرض .. وكانت المنطقة تبدو من عل جامدة ، كلوحة مرسومة .. وقد تجمعت السفن الراسية فى احد اركانها ، وتلوى النهر حول سفوح التلال الخضراء ، واستلقت الجزر فى اوضاع منحرفة ، وسط الماء ، كانها اسماك ضخمة ، ساكنة ، سوداء .. ومداخن المصانع تنفث سحبا بنية هائلة من الدخان ، تنتشر فى الفضاء .. وهدير المسابك يسمع مختلطا بالرنين الجلى المنبعث من اجراس الكنائس القائمة وسط الضباب .. والأشجار العارية عن الأوراق فى الطرقات، تبدو ــ على بعد ــ متجمعة كأحراش بنفسجية وسط البيوت ، والسقوف اللامعة بماء المطر تعكس بريقا غير متعادل ، تبعا لارتفاع الاحياء التى تقوم فيها .. واحيانا ، تهب نسمة من ريح ، فتدفع السحب نحو تلال (سانت كاترين) ، كانها موجات هوائية تتكسر فى صمت على صخرة شاهقة ..

وكان يخيل لإيما ان لونا من الزهو يواتيها من هذه الكتلة

من الوجود ، فينتفخ فؤادها ، وكان المائة والعشرين الف قلب — التى تخفق فى المدينة — قد نفثت فى هذا الفؤاد ما تعمر به من عواطف مشبوبة ! وينمو حبها ازاء هذا الفضاء الشاسع ، ويزخر قلبها بصخب ازاء الطنين المبهم الذى يترامى إليها من البلدة ، فتروح تسكب بدورها ما يفعم به قلبها ، وتفيض منه على الميدان ، والطرقات ، والشوارع .. وتمتد امامها هذه المدينة العريقة — من مدن نورماندى — كما لو كانت عاصمة ضخمة .. او كأنها « بابل » توشك ان تدخلها ! .. وتميل على نافذة ، معتمدة على كلتا يديها ، لتعب من النسيم .. وتأخذ الجياد الثلاثة فى الركض على الأرض المرصوفة بالاحجار والتى يكسوها الوحل ، والعربة ترتج ، و « هيفير » يحيى عن بعد العربات التى تجرى فى الطريق ، بينما ينحدر الأهالى الذين قضوا ليلتهم فى غابة (جيوم) ، على السفح فى هدوء ، مستقلين عربات أسراتهم ..

* * *

● وتقف العربة عند السياج ، فتخلع « إيما » الوقاءين اللذين يحيطان بحذاءيها ، وترتدى قفازيها ، وتسوى من شالها ، ولا تلبث ان تغادر « العصفورة » .. فاذا المدينة تنفض عنها السبات، وعمال المتاجر ينظفون — فى قلنسواتهم — واجهات الحوانيت ، وبعض النسوة قد حملن سلالا اسندنها إلى اردافهن ، ورحن ينادين باصوات جهورية عند ناصيات الشوارع فى فترات .. وتسير «ايما» لصق الجدران ، وقد نكست عينيها ، وراحت تبتسم فى غبطة تحت قناعها الأسود . ولم تكن تسلك اقرب الطرق — فى العادة — خشية

ان يراها احد ، بل كانت تضرب فى الحوارى المعتمة ، حتى تبلغ نهاية شارع (ناسيونال) — على مقربة من النافورة — وهى تتصبب عرقا .. كان ذلك حى المسارح ، والحانات ، والغانيات .. وكم من مرة كانت تمر بها عربة بداخلها منظر منكر ! .. بينما ينهمك خدم المشارب — فى مراولهم — فى نثر الرمل على البلاط ، بين الشجيرات الخضراء ، والجو يعبق بروائح الكحول ، والسيجار ، والمحار ..

وتنحرف إلى احد الشوارع .. ثم تعرفه بشعره المجعد المنساب من تحت قبعته .. ويسير « ليون » على الرصيف ، وهى فى اثره ، حتى الفندق ، فيصعد ، ويفتح الباب ، ويدخل .. ويا له من عناق ! .. ثم تنساب الكلمات دافقة بعد القبلات .. ويحدث كل منهما الآخر بمتاعب الأسبوع ، وهواجس القلب ، واللهفة إلى الخطابات .. على ان كل شيء كان لا يلبث ان يغدو منسيا ، ويروح كل منهما يحملق فى وجه الآخر ، وينطلق فى ضحكات داعرة ، ويناديه بارق الاسماء !

وكان السرير واسعا ، من خشب المهوجانى ، على شكل قارب ، والستائر من حرير الشرق الاحمر ، تنسدل من السقف ، وتنتفخ كثيرا وهى تقترب من راس الفراش الشبيه بالناقوس .. وما كان فى الدنيا ما هو اجمل من شعر « ايما » البنى وبشرتها البيضاء ، وسط هذا اللون القرمزى — الذى تضفيه الستائر — عندما تثنى ذراعيها العاريتين فى حركة مستحيية لتخفى وجهها فى راحتيها .. وكأنما كانت الحجرة الدافئة — بستائرها السميكة ، وزخرفها البهيج ، وضوئها

الهادىء ـ قد خلقت للخلوات المشبوبة ! .. وكانت القصبات التى علقت إليها الستائر ، والتى كانت تنتهى من الطرفين بسهمين ، والحلقات النحاسية ، والكرتان الكبيرتان المعلقتان فوق المدفاة ، تبرق فجاة حين تتسلل الشمس إلى الغرفة .. وبين الشمعدانين القائمين على رف المدفاة ، كانت ثمة محارتان كبيرتان من ذلك النوع الذى يخيل للمرء، إذا ما الصقه باذنه ، انه يسمع خرير البحر ! .. ما كان اقوى حبهما لهذه الحجرة الغالية ، المفعمة بكل هذه البهجة ، رغم روائها الخابى ! .. كانا دائما يجدان قطع الأثاث فى اماكنها المعهودة ، بل كانا احيانا يجدان دبابيس الشعر التى تكون قد نسيتها فى يوم الخميس السابق ، عند قاعدة الساعة .. وكانا يتناولان الغداء إلى جوار المدفاة ، على منضدة صغيرة مستديرة ، مرصعة بخشب الورد .. وكانت « ايما » تقطع اللحم ، وتنقل قطعا إلى طبقه ، بكل الوان الحركات الخليعة ، وترسل ضحكات رنانة منغومة إذا سال زبد الشمبانيا من الكوب إلى الخواتم التى تحيط باصابعها .. وكان كل منهما ينتشى بقرب الآخر ، حتى ليخال انه فى بيتهما ، وانهما سيعيشان معا حتى الموت ، كقرينين كتب لهما الشباب ابدا ! .. وكانا يرددان فى احاديثهما : « غرفتنا » ، و « سجادتنا » .. بل كانت تقول « خفى » ، وهما خفان اهداهما إليها « ليون » ، فكانت تشعر بلذة فى انتعالهما .. كانا من الحرير الوردى ، يحيط بكل منهما إطار من زخارف نقشت على شكل البجعة .. وكانت إذا ما جلست على ركبتيه ، تتدلى ساقاها فى الهواء ـ لقصرهما فى

هذا الوضع ـ فلا يمسك الخف الانيق ، إلى قدمها العارية ، سوى أطراف اصابع القدم !

اما هو، فقد نعم للمرة الاولى بالوان اللطف الانثوى التى لا سبيل إلى وصف عذوبتها .. ابدا لم يصادف من قبل هذه اللغة الرقيقة ! ولا هذه الالوان من الثياب المستترة ، ولا هذه الأوضاع التى يمليها عليها الطيش فى نعاسها .. وكان يعجب بما تزخر به نفسها من غواية ، وما يزدان به قميصها من « دانتيلا » ! .. ثم ، الم تكن سيدة مجتمع وزوجة ! .. وعشيقة صادقة ، اخيرا ؟

وبتباين مزاجها ـ من مزاج ورع ، إلى مرح ، إلى ثرثار ، إلى صامت ، إلى منفعل مشبوب ، إلى مستهتر ـ ايقظت فيه الف رغبة ، واثارت الغرائز والذكريات .. كانت تمثل العشيقة فى كل رواية ، والبطلة فى كل مسرحية .. و «هى» الغامضة ، المبهمة ، فى كل دواوين الشعر .. وعلى كتفيها ، تراءى له ذلك اللون الكهرمانى الذى كان قد رآه فى لوحة « جارية فى الحمام » ! .. ورأى فى جسدها ذلك الخصر الطويل الذى كان طابع سيدات القصور فى العصور الاقطاعية ، كما كانت تشبه « حسناء برشلونة الشاحبة » .. على انها كانت فوق كل هذا ! « الملاك » ! .. وكثيرا ما كان يخيل إليه ، وهو يتاملها ، ان روحه تنطلق نحوها ، فتنتشر كموجة حول حدود راسها ، ثم تهبط مجذوبة إلى نحرها .. وكان يركع امامها على الأرض ، ويعتمد بمرفقيه على ركبتيها ، ويروح يتطلع إليها بابتسامة، مشرئبا بعنقه ! .. وكانت هى تنحنى عليه ، وتغمغم والنشوة تخنقها : « اواه ، لا تتحرك ! لا تتكلم ! انظر إلى! ..

من عينيك تنبعث حلاوة تنعشنى ! » .. وكانت تدعوه بالطفل ، فتقول : « او تحبنى يا طفل ؟ » .. ولم تكن تسمع جوابه ، إذ تسرع بإلصاق شفتيها بشفتيه !

وكان فوق الساعة تمثال برونزى لكيوبيد مبتسما ، وهو يثنى ذراعه تحت غصن ذهبى .. انهما كثيرا ما ضحكا لمظهره ، ولكنه كان يبدو لهما إذا حانت ساعة الفراق ، حزينا عابسا ! .. وكان يرددان وهما يقفان متقابلين ، لا يحيران حراكا : « إلى الخميس القادم .. إلى الخميس ! » .. وكانت تحتوى راسه بين راحتيها فجاة ، وتطبع قبلة متعجلة على جبينه ، وتصيح : « وداعا ! » .. ثم تندفع إلى السلم ، فتيمم شطر شارع (لا كوميدى) ، لدى حلاق ينسق لها شعرها . ويهبط الليل ، فيوقد مصباح الغاز فى حانوت الحلاق ، وتسمع جرس المسرح المواجه يدعو الممثلين إلى الظهور ، وترى رجالا ذوى وجوه بيضاء ، ونساء ذوات زينة خابية ، يلجون خلال الباب المفضى إلى « الكواليس » .. وكان الجو حارا فى ذلك الحانوت الصغير ذى السقف الشديد الانخفاض ، حيث كانت المدفاة — التى توقد بغاز الاستصباح — تئز وسط الشعور المستعارة والدهون . وكانت رائحة ملاقط كى الشعر ، مع رائحة اليدين الملطختين بالزيوت واللتين تعالجان شعرها ، لا تلبثان ان تخدراها ، فتغفو قليلا ، تحت يدى الحلاق .. وكثيرا ما كان الرجل يقدم لها — وهو ينسق شعرها — تذاكر لحفلات رقص تنكرية !

وكانت تنصرف بعد ذلك ، فتجتاز الطرق حتى تبلغ فندق الصليب الأحمر ، حيث تكون «العصفورة» فى الانتظار ، فتحيط

حذاءيها بالوقاءين اللذين دستهما تحت المقعد فى الصباح ، وتندس فى مجلسها بين المسافرين النافدى الصبر . وكان بعضهم يبارح العربة أسفل التل ، فتبقى « ايما » وحيدة .. واضواء البلدة تزداد جلاء كلما مضت العربة فى طريقها فوق السفح ، فتبعث غلالة كبيرة منيرة فوق البيوت المعتمة .. وتركع « ايما » فوق الوسائد ، وترسل بصرها يحوم فوق الأضواء المتالقة .. وتبكى .. وتنادى «ليون» .. وتبعث إليه مع الريح — بارق المناجاة واعذب القبلات .. وكان ثمة متسول مخبول يهيم على السفح ، ضاربا بعصاه بين عربات البريد ، تغطى منكبيه كومة من الأسمال ، ويخفى وجهه وراء قبعة من جلد كلب البحر ، تبدو كوعاء مقلوب فاذا رفعها ، كشف فى مكان الجفنين عن ثقبين غائرين ملطخين بالدم ، وقد تمزق لحمهما اربا حمراء تتدلى وتتنزى بسوائل تنساب فى خط أخضر على طول الانف الذى كانت فتحتاه تختلجان فى حركات تشنجية ! . . ولكى يتحدث إليك ، كان يطوح راسه إلى الخلف فى ضحكة مخبولة ، ثم يدور إنسانا عينيه — الضاربان إلى الزرقة — فى حركة مستمرة ، مندفعين نحو صدغيه ، على حافة الجرح المنكوء .. وكان يردد وهو يتبع العربات اغنية قصيرة : « دفء الأيام الجميلة كثيرا ما يوحى إلى العذارى باحلام الهوى » .. ويدور باقى الاغنية حول الطيور ، والشمس المشرقة ، وأوراق الشجر الخضراء ..

وكان — فى بعض الأوقات — يظهر فجاة وراء « ايما » وهو عارى الرأس فتجفل صارخة .. ويسخر منه « هيفير » ، وينصحه بان يستاجر خيمة فى مهرجان « سان رومان » او

يساله ضاحكا عن صحة عشيقته ! وكثيرا ما كانت العربة تتحرك ، فاذا قبعته تندفع إلى داخلها بحركة مفاجئة من يده ، خلال النافذة الصغيرة ، بينما يتعلق بذراعه الأخرى بحافة العربة ، بين العجلات التى تنثر الوحل .. وينبعث صوته فى البداية واهنا ، مرتجفا ، ثم يزداد حدة ، ويدوى فى الليل كأنين غامض ينبعث من شخص محزون .. وقد أوتى رنينا ينطلق إلى مدى بعيد بين دقات الأجراس ، وحفيف الأشجار ، وقرقعة العربات الفارغة ، فيثير الاضطراب فى نفس «أيما» ، ويتغلغل إلى أعماقها ، كاعصار فى هوة سحيقة ، ويحملها إلى مفازات من الأسى لا حدود لها ! .. ولكن « هيفير » كان لا يلبث أن يشعر بثقل فى مؤخرة العربة ، فيلهب الأعمى بسوطه ، ويمس طرف السوط جراحه ، فيهوى فى الوحل صارخا . .ولا يلبث أن ينتهى الأمر بركاب « العصفورة » إلى النوم ، فمنهم من يفغر فاه ، ومنهم من يحنى ذقنه على صدره ويرتكن إلى كتف جاره ، أو يدس ذراعيه خلف حزام العربة ، ويروح يهتز مع ارتجاجاتها .. وضوء المصباح الذى ينعكس متذبذبا على كفل الجواد القريب ، ينساب إلى داخل العربة خلال الستائر المصنوعة من خيش بنى ، فيلقى ظلالا دموية على أولئك الجامدين فى أماكنهم جميعا .. وكانت « ايما » المستغرقة فى أساها ، ترتجف تحت ثيابها ، وتحس بقدميها تزدادان برودة باطراد ، وبالموت يجثم على نفسها !

* * *

● ويكون « شارل » فى انتظارها فى البيت .. وكانت « العصفورة » تتأخر دائما فى أيام الخميس .. وتصل السيدة

إلى دارها أخيرا ، فتقبل طفلتها فى ازورار .. ولا يكون العشاء معدا ، فلا تحفل ، بل تلتمس للخادم عذرا ، فقد أصبحت الفتاة تتصرف كما يحلو لها ! .. وكثيرا ما كان زوجها يسألها — إذ يلاحظ شحوبها — عما إذا كانت تحس وعكة ، فتقول : « لا » .. ويرد قائلا : « ولكن شكلك غريب الليلة ! » .. فتجيب : « آه ، لا شىء ! .. لا شىء ! » .. بل كانت فى بعض الأيام لا تكاد تلج الدار حتى تصعد إلى مخدعها .. وقد يكون « جوستان » هناك مصادفة ، فيروح ويغدو فى هدوء ، مبادرا إلى خدمتها خيرا من أفضل وصيفة .. فيضع الثقاب والشمع وكتابا فى متناول يدها ، ويسوى قميص نومها ، ويقلب أغطية السرير .. ولا تلبث أن تقول : « كفى ! .. تستطيع أن تنصرف ! » ، إذ كان يظل واقفا ، ويداه متدليتان إلى جانبيه ، وعيناه مفتوحتان على وسعهما ، وكأنهما مشدودتان إلى خيوط لا عداد لها تنبعث من طيف باغته !

وكان اليوم التالى يفد فظيعا ، والأيام التى تعقبه أشد منه وطأة ، بسبب الضيق الذى يستبد بأيما لحرمانها من السعادة .. وكان الشوق المتأجج ، الذى تذكيه صور تجارب الماضى ، ينطلق من إساره فى اليوم السابع ، فى أحضان « ليون » .. أما هو ، فكانت وقدة شبقه تتوارى خلف فورات العجب والشعور بالجميل .. وكانت « ايما » تتذوق غرامه فى رزانة واستغراق واستيعاب ، وتستبقيه بكل حيل حنانها وفنون عواطفها ، وترتجف خشية أن تفقده فيما بعد .. وكثيرا ما كانت تقول له بصوتها العذب الشجى : « آه ! .. لسوف تهجرنى يوما ! .. لسوف تتزوج، وتفعل ما يفعله الآخرون ! »

.. فيسالها : « اى آخرين ؟ » .. وتجيب : « عجبا ، ككل الرجال » .. ثم تردف وهى تصده بحركة واهنة : « انكم جميعا ارذال انجاس ! » .

وفيما كانا يتحدثان يوما متفلسفين عن الوان الخيبة التى تصيب الاوهام فى الدنيا ، إذا بها تنبئه بانها — فيما مضى — كانت موضع حب شخص آخر .. قبله .. وكانما ارادت ان تختبر غيرته ، او لعلها كانت منساقة وراء قوة لا قبل لها بمقاومتها ، تدفعها إلى ان تفضى بدخيلة قلبها .. ثم أردفت مسرعة : « لم يكن على شاكلتك » .. وراحت تقسم برأس ابنتها على انه لم يجر بينهما شىء ! .. وصدقها الشاب ، ولكنه مع ذلك راح يسالها ليعرف شيئا عنه .. فقالت : « لقد كان ربان سفينة يا عزيزى ! » .. افلم يكن هذا رادعا عن كل تساؤل ، محققا لها فى الوقت ذاته مكانة رفيعة ، لكونها استطاعت ان تفرض سحرها على رجل كان ولا بد ذا فطرة محاربة ، وكان معتادا ان يتلقى الاكرام والولاء ، لا أن يقدمهما !

* * *

● إذ ذاك شعر الكاتب بضعة مركزه ، وتاق إلى الأشرطة التى تزين اكتاف الضباط ، وإلى الصلبان ، والألقاب .. كل هذا لابد ان يسرها .. فهكذا ادرك من عاداتها المبنية على الاسراف ! .. ومع ذلك ، فقد كانت تخفى كثيرا من نزواتها المبذرة ، كرغبتها فى ان تقتنى عربة خفيفة زرقاء ، تقلها إلى (روان) ، ويجرها جواد إنجليزى ، ويقودها حوذى يلبس حذاءين من النوع ذى العنق العالى . وكان « جوستان » هو

الذى اوحى إليها بهذه النزوة ، إذ راح يتوسل إليها أن تلحقه بخدمتها كوصيف .. وإذا كان الحرمان من هذه الرغبة لم يقو على ان يقلل من سرورها بوصولها إلى موعد اللقاء فى كل مرة ، الا انه كان يضاعف من اساها فى العودة .. وكثيرا ما كانت تغمغم حين يتحدثان عن باريس : « آه ! .. شد ما نسعد إذا عشنا هناك ! » فيجيبها « ليون » متسائلا فى رفق ، وهو يدس يديه فى شعرها : « أو لسنا سعيدين ؟ » .. فتقول : « بلى ، حقا .. اننى مجنونة .. الا قبلنى ! » .

وازدادت تلطفا إلى زوجها عن ذى قبل ، فاصبحت تصنع له « الكريمة بالفستق » ، وتعزف له الحان « الفالس » بعد العشاء ، حتى خال نفسه اسعد الناس حظا ، وظلت «ايما» تعيش دون ما شىء يثير قلقها ، حتى كان ذات مساء ، إذ سالها فجاة : « إن مدموازيل لامبرير هى التى تلقنك الدروس .. اليست هى ؟ » .. قالت : « بلى ! » .. فأردف قائلا : « حسنا ! .. لقد قابلتها منذ هنيهة ، فى منزل مدام «ليبجار» ، وحدثتها عنك ، فلم تعرفك ! » .. وكانما انقضت عليها صاعقة ، ولكنها مع ذلك اجابت فى هدوء طبيعى : « آه .. لا شك انها نسيت اسمى » .. قال الطبيب : « او لعل هناك اكثر من مدموازيل لامبرير واحدة ، يدرسن الموسيقى فى روان ! » فبادرت قائلة : « ربما ! .. ولكنى احتفظ بالايصالات هنا .. انظر ! » .. وسارت إلى المكتب ، فنقبت فى كل ادراجه ، وبعثرت الأوراق ، ثم جن جنونها اخيرا حين لم يرجها شارل — فى الحاح — أن لا تزعج نفسها بامر هذه الايصالات .. وقالت : « آه .. سأبحث عنها » .

وقد كان .. فبينما كان « شـارل » يدس قدمه فى احد الأحذية التى كانت فى الخزانة المظلمة التى اعتـاد ان يحفظ فيها ثيابه ، إذا به يشـعر بقصاصـة ورق بين جوربه وجلد الحذاء ، فتناولها ، وقرا فيهـا : « تسلمت مبلغ ثلاثة وستين فرنكا عن دروس موسيقية لثلاثة اشـهر ، وعدد من القطع الموسيقية — فيليسى لامبرير ، معلمة موسيقى » .

— كيف بحق الشيطان ، قدر لهذا أن يكون فى حذائى ؟

فأجابت : « لابد انه وقع من الصندوق الورقى القديم الذى نحتفظ فيه بأوراق الحساب ، والذى نضعه على حافة الرف » .

* * *

● منذ تلك اللحظة اصبح وجودها مجموعة متصلة من الأكاذيب ، التى كانت تلف فيهـا هواها ، كما لو كانت اقنعة تخفيه .. كان الكذب ضرورة ، بل هواية ، بل لذة يحلو المضى فيها إلى درجة انها إذا قالت إنها سارت فى اليوم السابق على الجانب الأيمن من الطريق ، وجب على المرء أن يدرك انها سارت على الجانب الأيسر ! .. وذات يوم خميس ، بدات السماء تمطر جليدا على حين غرة ، بعد خروجها فى ثياب خفيفة كعادتها ، وبينما كان « شارل » يرقب الجو خلال النـافذة ، لمح الأب « بورنيسيان » فى عربة السيد توفاش الخفيفة ، فى الطـريق إلى (روان) ، فهبط واعطى القس شالا سميكا ساله ان يسلمه إلى زوجته بمجرد وصـوله إلى فندق « الصليب الأحمر » .. فلما بلغ السيد « بورنيسيان » الفندق ، سال عن زوجة طبيب (ايونفيل) ، ولكن ربة الفندق ذكرت له انها نادرا ما تند على

نزلهـا . ومن ثم فان القس حين راى مدام « بوفـارى » فى « العصفورة » — فى ذلك المساء — انبأها عن ورطته ، وإن لم يبد عليه انه علق على الأمر اهميـة كبيرة ، إذ لم يلبث ان تحـول يطـرى واعظا كان يفعل العجائب فى الكاتدرائيـة ، واصبحت السيدات جميعا يحرصن على سماعه ! .. وإذا كان القس لم يطلب منها اى تفسير ، الا ان غيره قد يكون اقل منه رزانة ، فيما بعد . ومن ثم اعتزمت أن تنزل فى فندق « الصليب الأحمر » فى كل مرة ، حتى لا يرتاب احد من اهل قريتهـا إذا راوها على سلمه !

غير أن السيد « لوريه » التقى بها يوما وهى تغادر فندق « بولونى » ، متكئة إلى ذراع « ليون » ، فجزعت إذ ظنت انه لن يلبث ان يشى بهـا . ولكنه لم يكن حيوانـا « مجردا من العقل » ! .. ومع ذلك فقد زارها فى غرفتها بعد ثلاثة أيام ، واغلق الباب ، ثم قـال : « اننى فى حاجة إلى نقـود ! » .. فصارحته بأنها لا تملك أن تعطيه شيئا ، فانفجر يكيل لها اللوم ، ويذكرها بكل ما ابداه لها من مراعاة ومعروف .. إذ ان «ايما» لم تكن قد سددت — حتى ذلك الحين — سوى قيمة سند واحد من السندين اللذين وقعهما « شارل » .. اما السند الثانى ، فقد قبل التاجر — برجاء منها — أن يستبدل به آخـر ، جدد بدوره إلى اجل بعيد . وما لبث أن اخرج من جيبه قائمة بسلع لم تدفع ثمنها ، هى الستائر ، والسجادة ، وقماش لكسـوة المقاعد الوثيرة ، وعدة اثواب ، ومجموعة من ادوات الزينة .. وكانت اثمانهـا تبلغ الفى فرنك ! .. ونكست « ايمـا » راسها ، وهى تسمع حديثه ! « ولكن .. إذا لم تكن لديك نقود

حاضرة ، فأنت تملكين عقارا » .. وذكرها ببيت صغير متداع تعس فى (بارنفيل) — على مقربة من (أومال) — لم يكن ذا قيمة تذكر ، وقد كان فيما مضى جزءاً من مزرعة صغيرة باعها السيد « بوفارى » الاب ، لكنه استبقاه لنفسه من دونها ، فورثه ابنه عنه .. وهكذا ، كان « لوريه » يعرف كل شىء .. حتى مساحة الأرض بالهكتار ، وأسماء الجيران !

وما لبث ان استطرد قائلا : « لو أننى فى مكانك ، لخلصت نفسى من الديون ، وحصلت فوق ذلك على مبلغ من المال » .. فأشارت إلى صعوبة العثور على مشتر ، ولكنه اوحى إليها بالأمل فى أن يعثر على واحد ، فاستفسرت منه عما تفعله لتتمكن من البيع .. وسألها : « أليس لديك تفويض ؟ » .. وهبت عليها الكلمة الاخيرة كنسمة عليلة ، فقالت : « دع لى قائمة الحساب » .. واجاب لوريه : « آه ، انها ليست ذات بال » ! .. وما لبث ان عاد فى الأسبوع التالى ، وراح يزهى بأنه — بعد كثير عناء — قد وقع اخيرا على سيد من آل « لانجلوا » ، كان يرمق العقار منذ زمن طويل ، ولكنه لم يعرض بعد ثمنا .. فصاحت : « لست أحفل بثمن معين ! » .. على انهما اضطرا — على العكس — إلى أن يتريثا ، ليتعرفا مدى استعداد ذلك الرجل .. وكان الأمر يستلزم رحلة ، ولما لم تكن تملك القيام بها ، فقد عرض « لوريه » أن يذهب إلى الموقع ليراه مع « لانجلوا » . وحين عاد ، ذكر ان المشترى عرض أربعة آلاف فرنك ، فأشرق وجه « إيما » للنبأ ، وعقب لوريه قائلا : « واعتقد صراحة انه ثمن طيب ! » .

وحصلت على نصف المبلغ فورا ، فلما همت بأن تسدد

حسابها ، قال لها التاجر ! « إنه ليحزننى — بشرفى — ان اراك تحرمين نفسك من مبلغ كبير كهذا فى التو ! » .. ونظرت إذ ذاك إلى الأوراق المالية ، وراحت تحلم بالخلوات التى لا حصر لها ، والتى يمكن ان تتيحها هذه الفرنكات الآلاف .. وقالت متلعثمة : « كيف ؟ .. كيف ؟ » ، فضحك متظاهرا بالطيبة ، وقال : « آه ! .. إن المرء يستطيع ان يضيف إلى قوائم الحساب كل ما يريد ! .. اولست اعرف كيف تدبر البيوت ؟ » .. ورمقها بنظرة لا تحيد ، وهو يمسك بورقتين طويلتين راح يعبث فيهما بأظافره ، ثم فتح حافظته فى النهاية، وبسط اربعة سندات « تحت الطلب » ، قيمة كل منهما الف فرنك ، وقال : « وقعى هذه ، واحتفظى بالمبلغ » .. فشهقت فى استنكار .. فقال فى وقاحة : « إذا اعطيتك كل ما يفيض عن الدين ، افلا اكون قد اديت خدمة ؟ » .. وتناول قلما ، فكتب تحت قائمة الحساب : « تسلمت من مدام بوفارى اربعة آلاف من الفرنكات » .

— الآن ، من يملك ان يزعجك ، ما دمت ستتقاضين خلال ستة اشهر ما تبقى من ثمن كوخك ، وما دمت سأرجىء موعد استحقاق السند الأخير حتى تتسلمى المبلغ ؟

وازداد ارتباك « ايما » بالعمليات الحسابية ، وسمعت طنينا فى اذنيها كأنه رنين العملة الذهبية التى تنساب من اكياسها متناثرة حولها على الأرض .. واخيرا ، انبأها «لوريه» بأن له صديقا حميما يدعى « فانكار » — صرافا فى (روان) — على استعداد لأن يدفع قيمة السندات الأربعة مقدما ، وإذ ذاك سيسلمها ما يزيد على قيمة الحساب ..

ولكنه بدلا من احضار الالفى فرنك ، لم يحضر سوى الف وثمانمائة ، لأن صديقه « فانكار » — وكانما كان صـادقا فى زعمه — قد اقتطع مائتى فرنك كعمولة وفائدة عن الخصم . ثم طلب منهـا — فى تظاهر بعـدم الاكتراث — ان تكتب له ايصـالا ، وهو يقـول : « انك تدركين .. انه فى المسـائل التجارية .. احيانا .. » .. ثم استدرك : « .. اكتبى التاريخ من فضلك .. التاريخ » .

* * *

● تفتح أمام «ايما» أفق من الأهواء التى يمكن تحقيقها ! على أنها كانت من الحكمة بحيث استبقت — من قبيل الحيطة — الف دينار (١) ، استطاعت أن تدفع منهـا السـندات الثلاثة الأولى .. على أن الرابع استحق الدفع فى احد ايام الخميس — مصادفة — فراح « شـارل » ينتظر بصبر نافد ، واستياء بالغ ، عودة زوجته ليسالها ايضاحا للأمر .. وقالت له — حين عادت — إنها إذا لم تك انبأته بأمر هـذا السند ، فانما لتجنبه الشواغل المنزلية .. وجلست على ركبتيه تعانقه ، وتداعبه ، وتعدد له — فى قائمة طويلة — كافة الأشياء التى لا غنى عنها ، والتى اضطرت إلى ان تحصل عليهـا بالنسيئة .. وقالت :

---

(١) تكرر ذكر « الدينار » فى الكتابين الأول والثانى من ترجمة الرواية ، بحيث غدا من حق القارىء ان يعرف شيئا عن أصل هـذا التعبير . فالدينار ترجمة لكلمة écu ، وكانت تطلق على عملة فرنسـية قديمة تعـادل ثلاثة فرنكات ، فالألف دينار قيمتها ٣٠٠٠ فرنك » .

« خليق بك ان تعترف انهـا — بالنسبة للكمية — لم تكن جد باهظة ! » .. ولم يجد « شارل » حيلة ، سوى ان يسرع إلى الاستنجاد بلوريه الخالد ، الذى تعهد بأن يسوى الأمور ، إذا وقع «الدكتور» سندين لأمره، أحدهما بسبعمائة فرنك تستحق الدفع بعد ثلاثة اشهر . ولكى يدبر قيمة هـذا السند ، كتب « شارل » إلى امه خطابا مؤثرا .. ولكنها بدلا من أن ترسـل له ردا ، حضرت بنفسها ..

وعندما ارادت « ايما » ان تعلم ما إذا كان قد حصل على شىء منها ، قال : « اجل ، ولكنها تريد أن ترى الحساب » .. وما إن طلع الصباح التالى ، حتى هرعت «ايما» إلى «لوريه» تتوسل إليه ان يكتب قائمة أخرى للحساب ، لا تزيد قيمتها على الف فرنك ، إذ كان لابد — إذا اطلعتها على القائمة ذات الأربعة آلاف فرنك — ان تذكر انهـا سددت ثلثيهـا ، وأن تعتـرف — إذ ذاك — ببيع العقار ، وبأن المفاوضات فى هذا الصدد قد تولاها التاجر ببراعة . ولم تظهر قيمة جهوده فيها الا اخيرا .. (حين خرج من الصفقة بنصيب الأسد !) .

وجاءت الساعة المحتومة التى تعين ان تناقش فيها الحماة زوجة ابنها الحساب !

وعلى الرغم من السمر الزهيد الذى كتب امام كل سلعة ، فان الحماة كانت خليقة بأن ترى إسرافا فى الإنفاق : « أو لم يكن من الممكن ان تستغنى عن السـجادة ؟ .. ولمـاذا أعددت كسوة المقاعد ؟ .. لقد كانوا يكتفون — فى ايامى — بمقعـد وثير واحد فى البيت ، للمسنين .. أو هـكذا كان الأمر فى بيت

امى ، واؤكد انها كانت امراة صالحة .. ليس فى وسع الناس جميعا ان يكونوا اغنياء ! .. فليس لثروة من بقاء ازاء التبديد ! .. اننى كنت خليقة بان اخجل، لو اننى دللت نفسى كما تفعلين، مع اننى مسنة ، وفى حاجة إلى عناية ! .. ثم ، ما هذا ؟ .. عجبا ! .. إصلاح اثواب ! تبذير ! .. عجبا .. حرير للبطانة، فى حين ان بوسعك الاكتفاء بقماش من « الشيت » بعشرة سنتيمات ، بل بثمانية ! » .. وكانت « ايما » تجيب فى هدوء ، وهى مضطجعة على اريكة : « آه ! كفى يا سيدتى ! كفى ! » .. ولكن الأخرى مضت تلقى عليها محاضرة ، متنبئة بانهما سينتهيان إلى ملجأ ! .. واستطردت قائلة ان الذنب — مع ذلك — كان ذنب «بوفارى» ، وانه وعد لحسن الحظ بان يلغى التوكيل الرسمى .. فهتفت ايما : «كيف ؟» .. وقالت الحماة : « آه ! لقد اقسم لى أن يفعل ! » .. ففتحت « ايما » النافذة ، ونادت « شارل » .. واضطر الابن المسكين إلى ان يعترف بأن امه انتزعت منه الوعد .. فغابت « ايما » ، ثم عادت مسرعة ، وهى تقدم لها فى شمم صفحة من ورق سميك ، فقالت العجوز : « شكرا لك » .. والقت بعقد التوكيل الرسمى إلى النار !

وانطلقت « ايما » تضحك .. ضحكة حادة ، منكرة ، متواصلة .. إذ تولتها نوبة انفعال عصبى .. وصاح شارل بامه : « اواه ، يا الهى ! .. آه ! انك لعمر الحق قد اخطات ! .. افتاتين إلى هنا لكى تتشاجرى معها ؟ ! » .. فهزت امه كتفيها قائلة إن هذا كله لم يكن سوى تمثيل ! .. ولكن شارل تمرد على امه — للمرة الاولى — وطفق يدافع عن « ايما » حتى

اضطرت مدام «بوفارى» الام إلى ان تعلن عزمها على الرحيل . وبالفعل سافرت فى اليوم التالى مباشرة . وقالت عند الباب ، إذ حاول ان يثنيها : « لا ، لا ! .. انك تحبها اكثر مما تحبنى .. ولك الحق ، فهذا طبيعى ! .. اما فيما عدا هذا ، فانت وشانك ، وسوف ترى .. اتمنى لكما العافية ! .. إننى غير مستعد لان آتى فاثير معها شقاقا ، كما قلت ! » .. وعلى الرغم من ذلك ، بقى «شارل» فى خجل شديد من «ايما» ، التى لم تخف ما كانت تكنه له من ضغينة لضعف ثقته فيها . وكان لابد من توسلات طويلة ، قبل ان توافق على تولى الوكالة عنه مرة اخرى .. بل لقد صحبها إلى السيد « جيومان » لتوثيق عقد آخر ، يشبه الأول تماما !

وقال موثق العقود : « إننى ادرك ان رجل العلم لا يملك ان يشغل نفسه بدقائق الحياة العادية ! » .. وشعر «شارل» بارتياح ازاء هذه الفكرة المريحة ، التى خلعت على ضعفه مظهر الانشغال بجلائل الأمور ، مما اثار غروره !

.. وياللفورة التى اشتعلت يوم الخميس التالى ، فى حجرتها بالفندق ، حين اجتمعت « ايما » بليون ! ضحكت ، وبكت ، وغنت ، ورقصت، وطلبت شرابا ، ورغبت فى ان تدخن السجاير ، ولاحت له مسرفة ، ولكنها رائعة ، متالقة البهاء .. ولم يدر اية انفعالات — فى كل كيانها — كانت تدفعها لتتردى فى ملذات الحياة .. اصبحت محمومة ، نهمة ، داعرة ، ومضت تجوس الطرقات معه رافعة الراس ، دون ما خوف من أن تعرض نفسها لاية فضيحة ، كما قالت .. على انها كانت فى بعض الأوقات ترتجف حين يخطر ببالها فجاة انها قد تلتقى

برودولف ، إذ كانت ترى انهما وإن افترقا إلى الأبد ، الا انها لم تتحرر تماما من خضوعها له !

* * *

● وفى إحدى ليالى الخميس ، لم تعد إلى (ايونفيل) ، فجن «شارل» لفرط القلق ، وأبت « بيرت » الصغيرة ان تأوى إلى فراشها دون ان ترى امها ، وبكت حتى كاد صدرها ينشق ، وانطلق « جوستان » فى الطريق على غير هدى .. بل لقد ترك السيد « هوميه » صيدليته .. واخيرا ، لم يعد « شارل » يقوى على الاحتمال ، فشد — فى الساعة الحادية عشرة — جواده إلى عربته الصغيرة ، وقفز إليها ، وساط الجواد ، فبلغ فندق « الصليب الأحمر » فى نحو الساعة الثانية صباحا .. لكنه لم يجد لها اثرا ! .. وخطر له ان « ليون » ربما رآها ، ولكن اين يقيم ؟ واغتبط إذ تذكر عنوان رئيسه ، فهرع إليه ليساله . وكان النهار قد انبثق ، فاستطاع ان يتبين اسمه على احد الأبواب .. وطرق الباب ، فصاح شخص من الداخل يجيبه إلى طلبه — دون ان يفتح — مضيفا بضع اهانات لاولئك الذين يقضون مضاجع الناس فى منتصف الليل!

ولم يكن للبيت الذى كان « ليون » يقطنه جرس ، ولا مقرعة ، ولا بواب ، وراح « شارل » يدق مصاريع النوافذ بكلتا يديه ، إلى ان قدر لأحد رجال الشرطة ان يمر ، فخاف وانصرف ، محدثا نفسه : « إننى غبى ! لابد انها تاخرت فى العشاء لدى السيد لورمو » .. ثم تذكر ان لورمو لم يعد يقيم فى (روان) ! فقال لنفسه : « لعلها مكثت لتعنى بمدام دوبروى

.. ولكن ، كيف ؟ .. لقد ماتت مدام دوبروى منذ عشرة شهور .. اذن فاين تكون ؟ » .. وخطرت له فكرة ، فولج مقهى وطلب الدليل ، واسرع يبحث عن اسم مدموازيل « لامبرير » ، فاذا بها تقيم فى رقم ٧٤ شارع (دولارينيل ديه ماروكانيير) ، وإذ بلغ الشارع ، ظهرت « ايما » بنفسها فى الطرف الآخر منه ، فالقى بنفسه عليها فى تهالك اكثر منه عناق ، وصاح : « ما الذى اخرك بالأمس ؟ » .

— كنت مريضة — بماذا ؟ .. كيف ؟ .. اين ؟

فضغطت جبينها بيدها وقالت : « لدى مدموازيل لامبرير » .

— كنت متاكدا من ذلك ! .. كنت ذاهبا إليها ..

فقالت ايما : « آه ، لا داعى .. لقد خرجت منذ لحظات ، ولكن لا ينبغى فى المستقبل ان تقلق ، فلن احس بأننى حرة إذا علمت ان اقل تأخر يزعجك بهذا الشكل .. كما ترى ! » .. كانت هذه إحدى الحيل التى تتذرع بها لتحظى بحرية تامة فى انطلاقاتها .. وكانت تستغل هذه العلل بكل بساطة ، وإلى اقصى مدى .. فاذا استبدت بها الرغبة فى مقابلة « ليون » ، انتحلت اية حجة .. وإذا لم يكن « ليون » يتوقعها فى ذلك اليوم ، سعت إليه فى مكتبه .. وكان يغتبط بهذا فى البداية ، ولكنه لم يعد — بعد قليل — يقوى على كتمان الحقيقة .. فلقد شكا رئيسه كثيرا من هذه الزيارات التى تصرفه عن عمله .. وكانت تقول له : « آه ، ياه ! هيا ! » .. ولكنه كان يتملص .. ولقد طلبت إليه ان يكون كل ما يرتديه اسود ، وان يطلق لحية مدببة ليبدو كصور الملك لويس الثالث عشر . ورغبت فى

ان ترى مسكنه ، فلم يرقها ووصفته بالفقر .. وتضرج وجهه ، ولكنها لم تلاحظ ذلك .. ثم اشارت عليه بأن يبتاع ستائر حمراء ، كستائر مخدعها ، فلما اعترض بانها تبهظه ، قالت ضاحكة : « آه ! آه .. أتتشبث بدنانيرك ؟ » .. وكانت تضطره فى كل مرة إلى ان يروى لها كل شىء فعله منذ لقائهما الأخير . وسالته ان ينظم بعض الأشعار .. أشعارا عنها .. « قصيدة غرام » تكريما لها . ولكنه لم يفلح قط فى الوصول إلى كلمة للبيت الثانى تنسجم مع القافية .. وانتهى به الأمر إلى ان نقل قصيدة من احد الكتب ، لا ليرضى غروره ، وإنما رغبة فى إرضائها .. ولم يكن يناقش آراءها ، كما كان يرضى بكل اذواقها .. حتى انه اصبح «عشيقها» اكثر مما هى عشيقته ! .. كانت لها كلمات ناعمة وقبلات تبهر روحه وتثير نفسه .. ترى .. اين تعلمت هذا الفساد الذى كان يصل فى دنسه وفجوره إلى درجة غير عادية !

الفصل السادس

● وكان « ليون » — كلما حضر إلى (ايونفيل) خصيصا ليراها — يتناول العشاء فى بيت الصيدلى فى اكثر الأحيان ، فلم يلبث ان احس بأنه مضطر إلى ان يدعوه بدوره ، ردا لجميله .. وقد اجاب السيد هوميه : « بكل سرور ! إذ لابد لى من ان انعش ذاكرتى ، التى اخذت تصدأ هنا .. سنذهب إلى المسرح ، وإلى المطعم ، ونلهو ! » فغمغمت مدام « هوميه » فى رفق وقد خشيت عليه من الأخطار المبهمة التى قد يعرض لها نفسه : « آه ، يا صديقى الطيب ! » .

— آه ! ماذا ؟ او تظنين اننى لا اقضى على صحتى بالاقامة هنا وسط الروائح التى تتصاعد من الصيدلية باستمرار ! .. ولكن هكذا النساء دائما ! .. انهن يغرن علينا من العلم ، ويغرن علينا فى الوقت نفسه من ابرأ الوان اللهو ! لا يهمك الامر ، بل اطمئنى إلى ! .. لسوف اهبط فى احد الأيام على (روان) ، فننطلق معا على هوانا !

وكان الصيدلى يحرص — فيما مضى — على ان لا يستعمل مثل هذه التعبيرات ، ولكنه اصبح ينهج نهجا مرحا و « باريسيا » ، إذ خال ان هذا هو خير ذوق .. واخذ — كجارته ، مدام بوفارى — يسال الكاتب فى فضول عن عادات العاصمة ، بل لقد اخذ يتكلم باللهجة العامية الباريسية ، ليبهر انظار اهل القرية ! .. وهكذا دهشت « ايما » إذ قابلت — فى احد ايام الخميس — السيد « هوميه » فى مطبخ «الأسد الذهبى» ، وقد ارتدى ثياب السفر — أو بالأحرى قد التف فى معطف قديم لم يدر احد انه كان يمتلكه — وحمل فى احدى يديه حقيبة ، وفى اليد الأخرى صندوقا من حانوته ليدس فيه قدميه يدفئهما .. ولم يكن قد افصح عن نواياه لأحد ، خشية ان يثير قلقا عاما بغيابه !

وليس من شك فى ان التفكير فى رؤية المكان الذى قضى فيه صباه ، اثار انفعاله ، إذ لم يكف طيلة الرحلة عن الكلام . وما إن وصل حتى قفز من العربة مسرعا ، وانطلق يسعى إلى « ليون » .. وعبثا حاول الكاتب ان يتخلص منه ، فقد جره السيد « هوميه » إلى مقهى « لانورماندى » الكبير ، فدخله فى

تعاظم ، دون أن يرفع قبعته ، ظنا منه أن تعرية الرأس فى مكان عام ، عادة ريفية !

وظلت ايما تنتظر ليون ثلاثة ارباع الساعة ، ثم اسرعت اخيرا إلى مكتبه .. وحين لم تجده تملكتها الهواجس : انه لا يكترث بها ! ولامت نفسها على ضعفها .. وقضت ما بعد ظهر ذلك اليوم وهى ملصقة وجهها بزجاج النافذة (فى غرفتهما بالفندق) .. اما هوميه وليون ، فكانا حتى الساعة الثانية جالسين إلى احدى الموائد .. وكانت القاعة الكبيرة قد بدات تخلو .. كما كانت ثمة مدفاة على شكل نخلة ، تنتشر اوراقها — المصنوعة من المعدن البراق — بعرض السقف الأبيض .. وخارج النافذة القريبة منهما قامت — تحت اشعة الشمس الساطعة — نافورة تنفث الماء فى حوض ابيض ، حيث كانت ثلاث من جراد البحر (الجمبرى) الكبير تتمطى بين نباتات الرشاد والهليون ، محاولة ان تصل إلى بعض طيور السمان المتجمعة فى احد الأركان .. وكان « هوميه » مغتبطا ، وإن كانت نشوته قد انبعثت عن الترف اكثر منها عن النفقات الباهظة .. ومع ذلك فان نبيذ التفاح شحذ كل براعته وذكائه ، فلما ظهر البيض المطهو بالروم على المائدة ، شرع يعرض نظرياته غير الخلقية عن النساء .. كان الشىء الذى يستهويه اكثر مما عداه فى المراة هو : « الاناقة ! .. كان يعجب بالزينة المتقنة الانيقة ، فى مسكن حسن الرياش .. اما من الناحية البدنية ، فلم يكن يكره الفتيات اللائى فى صدر الشباب ! .. واخذ « ليون » يرقب الساعة فى قنوط ، والصيدلى ماض فى الشرب ، والأكل ، والحديث ..

وفجاة ، قال هوميه : « لابد انك تعانى وحدة قاسية فى (روان) .. ولو أن عشيقتك لا تقيم على بعد كبير » .. فتضرج وجه الآخر ..

— هيا ، كن صريحا .. هل تنكر ان فى (ايونفيل) ..

وتمتم الشاب متلعثما .. بينما استطرد الصيدلى :

— فى منزل مدام بوفارى .. كنت تغازل ..

— من ؟ — الخادم !

ولم يكن مازحا ، ولكن الغرور يغلب كل حكمة ، لذلك راح « ليون » يحتج على الرغم منه ، زاعما انه لم يكن يحب سوى السمراوات .. فقال الصيدلى : « إننى اقرك على هذا ، فهن اشد شهوة ! » .. وهمس فى أذن صديقه ، مشيرا إلى بعض الأعراض التى يستطيع بها المرء ان يعرف ما إذا كانت المراة شهوانية ، بل إنه اوغل فى الحديث عن بعض الصفات الشاذة لدى الاجناس .. فالألمانية هوائية ، والفرنسية متطرفة فى الخلاعة ، والإيطالية متقدة العاطفة .. وتساءل الكاتب : « والزنجية ؟ » فقال هوميه : « إنها مزاج الفنان ! .. ايها الساقى ، الينا بقدحى قهوة ! » .. فتساءل « ليون » اخيرا ، وهو نافد الصبر : « هل ننصرف ؟ » .. فاجابه بالإنجليزية : « أجل ! » .

على انه رغب — قبل الانصراف — فى ان يقابل صاحب المكان وان يقدم إليه بعض التحيات .. وإذ ذاك زعم الشاب — كى يخلو إلى نفسه — ان لديه بعض اعمال .. فقال هوميه :

« آه ، سأصحبك » .. وظل طيلة سيرهما فى الشوارع ، يتحدث إليه عن زوجته ، واطفاله ، ومستقبلهم ، واعماله .. وبين له كيف كانت تلك الاعمال فى اسوا حال فى الماضى ، وإلى اية درجة من الكمال ارتقى بها .. وإذ بلغا فندق « بولونى » ، تركه « ليون » فجاة ، وركض طاويا درجات السلم ، فالفى عشيقته فى انفعال بالغ ، وما إن ذكر اسم الصيدلى ، حتى انفجر غضبها .. على انه راح يسرد لها مبررات مقنعة .. فلم يكن الذنب ذنبه .. او ليست تعرف « هوميه » ، فهل تصدق انه يؤثر صحبته ؟ .. بيد انها اشاحت عنه ، فاجتذبها إليه ، وركع على ركبتيه مطوقا خصرها بذراعيه ، فى تهالك مفعم بالشبق والضراعة .

وكانت واقفة ، وعيناها الواسعتان المتوقدتان ترقبانه فى عبوس ، بل فى قسوة .. ثم غامت عليهما الدموع ، وهبط جفناها الورديان ، واسلمته يديها . وفيما كان « ليون » يلصقهما بشفتيه ، اقبل خادم ينبىء السيد بان ثمة من يسال عنه ، فسالت « ايما » صديقها وهو يهم بالخروج ، « اعائد انت ؟ » .

ـ اجل ـ ولكن ، متى ؟ ـ فى الحال !

* * *

● قال الصيدلى حين راى ليون : « لقد ارسلت اليك الخادم لأقطع حبل الزيارة ، التى لاح لى انها تضايقك ..

لنذهب فنتناول زجاجة من « الجارو » (١) عند بريدو » .. فاقسم « ليون » ان لابد له من العودة إلى مكتبه ، وإذ ذاك راح الصيدلى يمازحه معلقا على مذكرات المحامين التى تقلب الباطل حقا ، وعلى الدعاوى .. قائلا : « دع كوجا وبارتول (٢) وشانهما برهة .. يا للشيطان ! من الذى يمنعك ؟ كن جريئا ! هيا إلى حانة بريدو ! .. سترى هناك كلبه .. إنه عجيب جدا » .. ولكن الكاتب ظل يصر على الانصراف ، فقال له : « ساذهب معك ، فاطالع الصحيفة فى انتظارك ، او اقلب صفحات مجموعة القوانين ! » .. واحتار ليون بين غضب ايما ، وثرثرة هوميه .. ولعل الغداء اتخمه ، فلم يقو على ان يبت ، لا سيما وقد راح الصيدلى يغريه قائلا : « لنذهب إلى بريدو .. إنه قريب من هنا .. فى شارع مالبالو » .. وما لبث الشاب ـ تحت تاثير الجبن او الغباء ، او تاثير ذلك الشعور الذى يعز وصفه والذى يجرنا إلى ادعى التصرفات للاستهجان ـ ما لبث أن ترك نفسه يقاد إلى حانة « بريدو » ، الذى الفياه فى الساحة الصغيرة يشرف عليه ثلاثة من العمال راحوا يلهثون ، وهم يديرون عجلة ضخمة فى آلة من آلات تحضير ماء سلتزر (كماء الصودا) .. والقى اليهم « هوميه » ببعض الارشادات ، ثم احتضن « بريدو » ، وتناولوا بعض « الجارو » .. وحاول « ليون » عشرين مرة ان يفلت ، ولكن صاحبه كان يمسك بذراعه قائلا : « سانصرف حالا ! ..

---

(١) « الجارو » شراب هو مزيج من القرفة والزعفران وجوز الطيب .

(٢) اثنان من فقهاء القانون .

سنذهب إلى صحيفة « فنال دو روان » لنرى الزملاء .. سأعرفك بتوماسان » ..

على أن ليون ما لبث أن وفق إلى التخلص منه ، فانطلق مسرعا إلى الفندق . ولم تكن « ايما » هناك .. كانت قد انصرفت لتوها ساخطة .. لقد اصبحت تكرهه ، وبدا لها هذا الاخفاق منه فى الوفاء بموعدهما الغرامى اهانة ، فراحت تحاول ان تنقب عن اسباب اخرى لتنفصل عنه .. كان عاجزا عن الاتيان باية بطولة ، كما كان ضعيفا ، مبتذلا ، يفوق المرأة فى الاستخذاء ! .. فضلا عن انه كان بخيلا ، جبانا ! .. ثم هدات ثورتها ، فتبينت انها ولا ريب قد افترت عليه فى غيبته .. بيد ان إقدامنا على النيل ممن نحب ، لابد أن يباعد بيننا وبينهم بعض الشىء ، فينبغى أن لا نمس اصنامنا المعبودة ، لأن طلاءها لابد أن يعلق بأصابعنا !

* * *

● وبمضى الأيام ، اخذ حديثهما يزداد اتجاها إلى الموضوعات الخارجة عن نطاق غرامهما ، واصبحت « ايما » تتحدث — فى الخطابات التى ترسلها إليه — عن الازهار ، والأشعار ، والقمر ، والنجوم .. موارد ساذجة لوجد منطفىء يناضل للبقاء مشتعلا ، مستعينا بكافة الأسباب الخارجية ! .. وكانت لا تفتأ تمنى نفسها بهناءة غامرة فى رحلتها التالية ، ثم لا تلبث ان تعترف لنفسها بعد الرحلة بانها لم تشعر بشىء غير عادى .. ولكن سرعان ما ادت خيبة الرجاء إلى امل جديد ! .. فعادت « ايما » إلى فتاها اشد وقدة ، واعتى لهفة

مما كانت فى اى يوم ! .. صارت تخلع ثيابها فى عنف ، ممزقة اربطة مشدها (الكورسيه) الرفيعة ، التى كانت تحيط بردفيها كثعابين متسللة ! .. وكانت تسير على اطراف اصابع قدميها ، حافية ، لتستوثق مرة اخرى من ان الباب مغلق ، ثم تنطرح على صدره فى رجفة طويلة ، وهى شاحبة ، واجمة ، لا تتكلم ، ولا تحير حراكا .. مع ذلك ، فقد ظل « ليون » يرى فى ذلك الجبين المتفصد عرقا باردا ، وفى تلكما الشفتين المرتعشتين ، وفى العينين الضاريتين ، وفى توتر هاتين الذراعين ، شيئا غريبا ، غامضا ، رهيبا ، يقوم جامدا بينه وبينها ، وكأنه يفصل كلا عن صاحبه !

ولم يجرؤ على أن يسألها ، ولكنه كان — إذ يرى فنونها البارعة — لا يملك الا أن يشعر بانها ولابد قد خاضت كل تجربة من تجارب الألم واللذة! .. وما كان يفتنه من قبل ، بات يخيفه الآن بعض الشىء ! .. فضلا عن انه بدا يتمرد على ما كان يزداد كل يوم ظهوراً ، من انطوائه فى شخصيتها .. أصبح ينقم على «ايما» بسبب هذه الغلبة المستمرة عليه .. بل إنه راح يجاهد ليكف عن حبها ، ولكنه كان لا يلبث — إذا سمع صريف حذاءيها — ان يتحول إلى جبان هياب ، كمدمنى الخمر إذا ما راوا شرابا قويا ! .. والحق انها لم تهن فى إضفاء كافة الوان الاهتمام عليه ، من اطايب الغذاء ، إلى خلاعة الرداء ، إلى النظرات المستضعفة المتذللة .. وكانت تدس ورودا من (ايونفيل) بين ثدييها ، لتلقيها فى وجهه .. وكانت قلقة بصدد صحته ، تنصحه دائما بما ينبغى أن يفعل ..

ثم عمدت ــ لكى تزداد اطمئنانا إلى احتفاظها بسلطانها عليه ، واملا منها فى ان تنحاز السماء لصفها ــ عمدت إلى إحاطة عنقه بصورة للعذراء !! .. وكانت تسائله ــ كأم تقية ــ عن اقرانه ، وتقول له : « لا تلقهم ! .. لا تخرج ! .. لا تفكر الا فى كلينا فقط ! .. احبنى ! ..» وكم ودت لو انها استطاعت ان تراقب حياته كلها .. بل لقد خطر لها ان ترسل وراءه من يتتبع خطاه فى الطرقات .. فقد كان بجوار الفندق دائما شريد متسكع يتمسح فى المسافرين ، وما كان ليرفض القيام بمثل هذه المهمة .. ولكن كبرياءها تمردت ، فقالت لنفسها : « باه ! وما اهمية هذا الأمر ! فلينصرف عنى ! .. ما الذى يهمنى ؟ .. كأنما انا مبقية عليه ! ».

* * *

● وفى ذات يوم ، افترقا فى ساعة مبكرة .. وفيما كانت تسير وحدها فى الطريق ، لمحت جدران الدير الذى تعلمت فيه ، فسارعت تجلس على مقعد عام تحت احدى شجرات الدردار . ما كان اهدا الفترة التى قضتها فى الدير ، وما كان انعمها ! .. كم كانت تتوق إلى تلك العواطف الجياشة التى كانت تحاول ان تتصورها على ضوء الكتب ! ثم تذكرت اول عهدها بالزواج ، وتلك النزهات فى الغابة ، والفيكونت الذى راقصها على انغام « الفالس » ، و « لاجاردى » وهو يغنى .. كل هذه الرؤى تتابعت امام ناظريها ، ثم رات « ليون » فجاة بعيدا .. وهتفت لنفسها : « ومع ذلك فانا احبه ! » .. لا بأس ! .. لم تكن سعيدة ، وما كانت ابدا سعيدة ! .. فمن اين هذا الإجداب

الذى يشيع فى حياتها ؟ .. هذا الانهيار العاجل لكل شىء تستند إليه ؟ !

ولكن ، إذا كان يوجد ــ فى مكان ما ــ ذلك الكائن القوى ، الجميل .. كائن ذو فطرة جسورة ، زاخرة بالسمو والطهر معا .. قلب شاعرَ فى جسد ملاك .. قيثارة ذات اوتار رنانة ترفع إلى السماء قصائد مشجية .. فلماذا لا يسوقها القدر إلى هذا الكائن ؟ .. اواه ! .. ياله من مستحيل ! .. فضلا عن ان شيئا ما لايستحق عناء البحث عنه .. فكل شىء ليس سوى زيف كاذب ! .. كل ابتسامة إنما تخفى تثاؤبا ملولا .. وكل غبطة ليست سوى لعنة .. وكل لذة تنطوى على الشبع منها .. واشهى القبلات لا تخلف على شفتيك سوى شوق إلى غبطة اعظم ، لا سبيل إليها !

وانبعثت فى الجو رنات ثقيلة .. وسمعت اربع دقات من ساعة الدير .. الساعة الرابعة ! ومع ذلك فقد خيل إليها انها مكثت فى مكانها ، على هذا الوضع ، دهرا .. فان المشاعر الفياضة التى تبدو كأن لا نهاية لها ، وقد تضغط فى دقيقة .. كما يحشد جمع فى فضاء صغير !

* * *

● وعاشت « ايما » بعد ذلك منطوية على نفسها ، واصبحت ــ كالأرشيدوقات ــ لا تحفل بشئون المال مطلقا .. على انه لم يلبث ان جاء إلى البيت ــ فى احد الأيام ــ رجل زرى الهيئة ، محمر الوجه ، اصلع الراس ، قال انه موفد من لدن السيد « فانكار » من (روان) . وانتزع الدبابيس التى كانت



جاء إلى البيت ــ فى احد الأيام رجل زرى الهيئة ، محمــــر الوجــــه ، اصــلع الراس ، قال انــه موفد من لدن السيد « فانــكار » من (روان) ..

تحكم الجيوب الداخلية فى سترته ، وبعد ان ثبتها فى كمه ، قدم إليها ورقة ، فاذا بها سند بسبعمائة فرنك ، يحمل توقيعها ، وقد حوله « لوريه » إلى « فانــكار » رغم عهوده . واوفدت خادمهـــا إلى « لوريه » ، ولكنه لم يكن قادرا على المجىء .. وإذ ذاك ، قال الغريب ــ الذى ظل واقفا ، يوزع نظــرات فضولية ذات اليمين وذات الشــمال ــ من تحت حاجبيــه الكثيفين : « اى رد احمله إلى السيد فانكار ؟ » .. فاجابت « ايما » : « آه .. قل له إننى لا أملك المبلغ .. سادفعه فى الأسبوع القادم .. فلينتظر ! .. اجل ، إلى الأسبوع المقبل ! .. وانصرف الرجل دون أن ينبس بكلمة .. بيد انها تلقت فى الساعة الثانية عشرة من النهار التالى ، إنذارا .. وازعجها منظر الورق الذى كان يحمل عدة اختام كتب عليهـــا بحروف كبيرة : « الاستاذ هارنج ، محضر محكمة بوشى » .. فهرعت مندفعة إلى بائع الأقمشــة ، فوجدته فى متجره يعد طردا ..

قال : « خادمك ! .. انا تحت امرك ! » .. ومع ذلك فقد استأنف « لوريه » عمله ، تعاونه فتاة فى نحو الثالثة عشرة من العمر ، محدودبة الظهر قليلا ، كانت تساعده فى عمله وفى تدبير منزله فى آن واحد .. واخيرا تقدم مدام «بوفارى» ــ وقبقاباه يقرقعان على الأرض الخشبية ــ صاعدا إلى الطابق الأول ، وادخلها حجرة ضيقة ، حيث قام مكتب ضخم من خشب صلب، يحمل بعض سجلات ، يحتجزهـــا قضيب عريض من حديد ، امتد فى وضع أفقى ، وثبت بقفل . وإلى جوار الحائط ــ تحت بعض « فضلات » من القماش الخشن ــ لمحت « ايما » خزانة حديدية ، ذات حجم يوحى بأنها تضم ــ إلى جانب المستندات

والنقود ــ شيئا آخر .. فقد كان السـيد « لوريه » يمارس الاقراض مقابل رهون ، وفى هذه الخزانة اودع سلسلة مدام « بوفارى » الذهبية ، مع اقراط « تيلييه » ، الكهل المسكين ، الذى اضطر فى النهاية إلى بيعهـا له ، واشترى متجرا هزيلا للبدالة فى (كنكامبو) ، حيث كان يحتضر ــ تحت وطأة الربو ــ بين الشـموع التى كانت اقل صـفرة من وجهه ! .. وجلس « لوريه » فى مقعـد كبير من الخيزران وهو يقول : « هل من جديد ؟ » .. فهتفت : «اليك» ! واطلعته على الورقة ، فقال : « حسنا ، وكيف استطيع ان اساعدك ؟ » فاشتد غضبها ، وراحت تذكره بالوعد الذى قطعه على نفسـه بان لا يحـول سنداتها .. واعترف بذلك قائلا : « ولكننى كنت مضطرا .. كانت السكين على عنقى » .. فقالت : « وما الذى سيجرى الآن ؟ » .

ــ آه ، امر سهل جدا .. حكم من المحكمة ، ثم توقيع الحجز ..

وقاومت « ايما » نفسـها حتى لا تصفعه ، وتساءلت فى لطف عما إذا كانت ثمة وسيلة لاستمهال السيد « فانكار » ..

ــ آه ! ..بديع ! .. استمهـال فانـكار ! .. انك لا تعرفيه ، فهو اكثر شراسة من اى وحش كاسر !

ومع ذلك ، كان لابـد للوريه من ان يتدخل .. « اذن ، اسمعى ! .. يبدو لى اننى كنت مفرط الطيبة معك ، حتى الآن » .. وفتح احد هذه السجلات ، قائلا : « انظرى ! » .. واجرى اصبعه فى الصـفحة قـائلا : « لنر .. لنر .. الثـالث من

اغسطس مائتا فـرنك .. السـابع عشر من يونيـه : مائة وخمسون .. الثالث والعشرون من مارس : اربعة وسـتون .. فى ابريل .. » .. وامسك ، وكأنه خشى ان يخطىء ، ثم قال : « ولست اذكر السندين اللذين وقعهما السيد «بوفارى» ، احدهما بسبعمائة فرنك ، والآخر بثلاثمائة .. اما حساباتك البسيطة ، مع الفوائد ، فلا نهاية لها .. إن الإنسـان ليتوه فيها .. ومن ثم لن اتورط اكثر من هذا » ! .. وبكت ايما .. بل راحت تلقبه بفزيزها السيد لوريه الطيب ! ولكنه كان دائما يلقى المسئولية على « ذلك الوغد فانكار » ، فضلا عن انه لم يكن يملك سنتيما واحدا ، فان احدا لم يعد يدفع له نقودا ، بل كانوا « ياكلون الصوف على ظهره » ! .. وما كان لتاجر فقير مثله ان يقرض الناس .. وصمتت « ايمـا » .. ولا ريب ان السيد لوريه ــ الذى كان يعض زغب ريشة الكتابة ــ احس بقلق لصمتها ، إذ استأنف كلامه قائلا : « وما لم احصل فى يوم من هذه الأيام على إيراد ، فقد ... » .

وقاطعته ايما قائلة : «ثم ان بقية ثمن عقار (بارنفيل) .. » فهتف : « ماذا ؟ » .. وما إن سـمع ان « لانجلوا » لم يدفع بعد ، حتى اشتدت دهشـته ، ثم قال فى لهجة معسـولة : « اذن ، اتفقنا .. اليس كذلك ؟ » .

ــ آه ! .. على اى شىء تريد ان نتفق ؟ !

فاغمض عينيه مستغرقا فى التفكير ، وكتب بضعة ارقام ، ثم اعلن ان المسألة ستكون جد عسيرة ، لانها محفوفة بالشك ، وهو قد منى بخسائر فادحة .. ثم كتب اربعة سندات ، قيمة

كل منها مائتان وخمسون فرنكا ، وتستحق فى اربعة اشهر متوالية ، وقال : « هذه هى سبيل التسوية ، لو ان «فانكار» قبل وساطتى .. ومع ذلك، فاعتبريها قد سويت، فانا لا اراوغ .. اننى صريح للغاية ! » .. ثم عرض عليها ــ فى غير اكتراث ــ عددا من السلع الجديدة ، ولكن ايا منها لم تكن فى رايه يليق بالسيدة ..

ــ كلما فكرت فى ان قماشا ــ كهذا ــ يباع المتر منه بسبعة سنتيمات ، والوانه ثابتة ! .. ومع ذلك فهم يقبلون على شرائه بنهم ! .. انك بالطبع تدركين ان المرء لا يصارحهم بحقيقته ..

وكان يرجو بهذا الاعتراف بعدم امانته مع الآخرين ، ان يقنعها بوفائه لها .. ثم ناداها ــ إذ انصرفت ــ ليريها ثلاث ياردات من قماش التقطه فى « اوكازيون » منذ عهد قريب .. وقال : « اوليس جميلا ؟ .. إنه الآن رائج الاستعمال لصون ظهور المقاعد .. انه النوع الشائع ! » .. وباسرع من « الحاوى » لف القماش فى ورق ازرق ، ودفعه إلى يدى ايما ، فقالت « ولكنى اريد ان اعرف على الاقل .. » فاجاب وهو يولى عنها : « آه ! .. فى وقت آخر » .

* * *

● فى ذلك المساء ، استحثت « ايما » زوجها على الكتابة لأمه يسالها ان ترسل إليه باسرع ما يمكن بقية ميراثه .. واجابت الحماة بانه لم يعد لديها باق ، وان التصفية قد انتهت ،

ولم يبق له ــ بعد (بارنفيل) ــ سوى دخل قدره ستمائة فرنك ، سترسله إليه فى موعده .. فسارعت مدام « بوفارى » إلى الكتابة لاثنين أو ثلاثة من المرضى تذكرهم بحسابهم ــ قبل موعده ــ وتوسعت فى استغلال هذه الطريقة التى كانت دائما موفقة .. وكانت تحرص دائما على أن تردف المطالبة بهذه العبارة : « أرجو أن لا تذكر الأمر لزوجى ، فانت تعرف مدى اعتداده بكرامته . ولا تؤاخذنى . المطيعة .. » .. وتسلمت بعض احتجاجات متذمرة ، فاخفتها عن زوجها .. وشرعت ــ كى تحصل على نقود ــ فى بيع قفازاتها وقبعاتها القديمة ، وكثير من الأشياء المهملة . وكانت تساوم فى براعة ، وقد اسعفها اصلها الريفى . وكانت ــ خلال رحلاتها إلى المدينة ــ تبتاع بازهد الأسعار ، الأشياء المستعملة التى كانت واثقة من ان السيد « لوريه » سيشتريها منها ليغش بها الغير .. ابتاعت ريش نعام، وخزفا صينيا ، وحقائب للسفر .. واخذت تقترض من « فيليسيتيه » ، ومن مدام « لوفرانسوا » ، ومن صاحبة فندق « الصليب الأحمر » ، ومن كل شخص ، اينما كانت .. ودفعت ــ من النقود التى تسلمتها من (بارنفيل) اخيرا ــ قيمة سندين .. ثم حل موعد الألف وخمسمائة فرنك الأخرى ، فجددت السندين . .وهكذا ظلت السندات مستمرة ..

وكانت تحاول ــ فى الحق ــ ان تقوم بعمليات حسابية فى بعض الاحايين ، ولكنها كانت تتبين ان النتائج باهظة إلى حد لم تكن تصدق انه ممكن ، فكانت تشرع فى الحساب من جديد ، فسرعان ما ترتبك ، ثم تنفض يديها من الأمر ، فلا تعود

تشغل بالها به ! .. واصبح البيت كئيبا جدا .. فكان الباعة يشاهدون — وهم يبرحونه — وعلى وجوههم امارات الغضب .. والمناديل ملقاة حول المدفأة ، و « بيرت » الصغيرة ترتدى جوارب مثقوبة ، الأمر الذى كانت مدام « هوميه » تستنكره .. وكانت « ايما » — إذا نبهها « شارل » فى تحرج وخجل — تجيب فى جفاء بأن الذنب ليس ذنبها .. فلم كانت هذه الثورات والفورات ؟ .. كان « شـارل » يعزو كل شىء إلى مرضها العصبى القديم ، ويندم لاحتسابه مظاهر علتها كأخطاء ، ويتهم نفسه بالأنانية ، ويتوق إلى أن يحتويها بين ذراعيه .. ولكنه كان يقول لنفسه : « آه ، لا ! .. إننى قد اضايقها ! » .. ويمسك عن إبداء عاطفته .. وكان بعد الغداء يتمشى فى الحديقة وحيدا ، ثم يجلس « بيرت » على ركبتيه ، ويبسط صحيفته الطبية ، محاولا ان يعلمها القراءة .. ولكن الطفلة التى لم تتلق قط اى درس ، كانت لا تلبث ان ترفع إليه عينين واسعتين ، حزينتين ، ثم تنخرط فى البكاء .. وإذ ذاك كان يسرى عنها ، ويبادر فيحمل إليها ماء فى دلوها لتنشىء به انهارا فى الدرب الرملى بالحديقة .. او يقطع بعض فروع من النباتات النامية على السياج ، لتغرسها فى الأحواض .. وما كان هذا ليلحق كثير ضرر بالحديقة التى انتشرت فيها — إذ ذاك — الأعشاب الفطرية .. إذ كانا مدينين لليستيبودوا بأجر ايام كثيرة !

ولا تلبث الطفلة ان تشعر بالبرد ، فتطلب امها . وكان « شارل » يقول لها : « نادى مربيتك يا صغيرتى ، فانت تعلمين ان امك لا تحب إزعاجا ! » .

وكان الخريف قد اقبل ، وتساقطت اوراق الشجر .. ها قد انقضى عامان منذ مرضت «ايما» !.. ترى متى سينتهى كل هذا ؟ .. وكان « شارل » يذرع الحديقة مفكرا ، ويداه معقودتان خلف ظهره .. والسيدة فى مخدعها ، الذى لم يكن يدخله احد .. كانت تمكث فيه طيلة النهار ، فاترة الهمة ، تكاد تكون عارية ، تحرق من وقت لآخر بعض البخور المعطر ، الذى ابتاعته من متجر عربى باحدى جزائر (روان) . وكانت قد نجحت اخيرا — بحيل بارعة — فى إقصاء «شارل» إلى الطابق الثانى ، حتى لا ترى « هذا الرجل » مستلقيا إلى جوارها بالليل .. واخذت تنصرف — حتى الصباح — إلى قراءة كتب إباحية ، مليئة بالرسوم الخليعة والمواقف المثيرة .. وكثيرا ما كان الخوف يستولى عليها ، فتصرخ .. ويهرع إليها « شارل » ، فتقول له : « آه ! .. انصرف » .. او يشتد اكتواؤها بذلك اللهب الداخلى الذى كان الفسق يذكيه ، فتسرع إلى النافذة تفتحها وهى تلهث ، وترتجف ، وقد استبدت بها الشهوة ! .. وتروح تستنشق الهواء البارد ، وتطلق خصلات شعرها الغزير للريح ، وتتأمل النجوم ، وهى تصبو إلى ان يعشقها امير ! .. وكانت تفكر فى « ليون » ، فتود إذ ذاك لو تنزل عن اى شىء فى سبيل لقاء من تلك اللقاءات التى كانت تروى ظمأها !

واقبلت ايام المهرجانات ، فشاءت ان تنعم بها على اروع وجه . ولما كان « ليون » لا يملك ان يضطلع وحده بالنفقات ، فقد اخذت تسد النقص بسخاء ، فى كل مرة على وجه التقريب . وحاول ان يقنعها بأن فى وسعهما ان ينعما بصحبتهما فى مكان آخر .. فى فندق اكثر تواضعا من فندقهما ، ولكنها كانت تجد

دائما حجبا للمعارضة . وفى ذات يوم ، اخرجت من حقيبتهـــا ست ملاعق فضية ـ كانت هدية «روو» الاب بمناسبة زفافها ـ وسالته ان يبادر برهنها بالنيابة عنها ، فأطاع « ليون » ، وإن ساءته هذه المهمة ، إذ كان يخشى أن يورط نفسه .. وما لبث ان هداه التفكير إلى أن تصرفات عشيقته كانت تزداد غرابة ، وان من المحتمل ان اصدقاءه لم يكونوا مخطئين حين ارادوا ان يفرقوا بينه وبينها .. إذ حدث ان ارسل بعضهم إلى امه خطابا طويلا ـ لا يحمل توقيعا ـ ينذرها بانه « يدمر حياته مع امراة متزوجة ! » .. فاسرعت السيدة الصالحة ـ إذ لمحت لفورها ذلك الشبح الذى يؤرق الاسرات .. ذلك الجنى .. الوحش الذى يسكن فى اعمق اغـــوار الحب ! وكتبت إلى الاســـتاذ « ديبوكاج » ـ رئيسه ـ الذى تصرف خير تصرف ، إذ استبقاه ثلاثة ارباع الساعة يحاول ان يبصره ، وأن يحذره من الهوة التى يتردى فيها .. فان مثل هذه العلاقة غير المشروعـــة قد تلحق به ابلغ الضرر فيما بعد ، حين ينشىء لنفســـه مكتبا .. واخذ يرجوه ان يقطع صلاته بعشيقته ، وإذا لم يشأ ان يقدم على هذه التضحية لمصلحته الخاصة ، فليفعلها على الاقل من اجله هو .. من اجل « ديبوكاج » !

* * *

● اقسم « ليون » فى النهاية بأن لا يعود إلى لقاء «ايما» .. وكان لا يفتأ يلوم نفسه لأنه لم يف بوعده .. ويقدر مدى المتاعب والأقاويل التى تعرضه لها هـــذه المراة ، فضـــلا عن الدعابات التى كان زملاؤه يتفكهون بهـــا حين يجتمعون حول المدفـــأة فى الصـــباح ! .. ثم إنه كان موشـــكا أن يغدو

على راس الكتبة عما قريب ، ومن ثم راى ان الوقت قد حان ليستقر .. وانه يتعين عليـــه أن ينبذ موســـيقاه ، وعواطفه المشبوبة ، والخيال .. فكل رجل من ابناء الطبقة المتوسط ، يؤمن فى فورة صباه ـ ولو ليوم واحد او دقيقة واحدة ـ بانه قادر على العواطف العارمة ، وعلى جلائل الاعمال .. واكثر العابثين اعتدالا ، يحلم بالسلطانات و (الحريم) .. وكل موثق للعقود يحمل فى اعماق شخصيته اطلال شاعر ! .. واصبح « ليون » يضيق بايما ، حين تبكى فجاة ـ وهى منطرحة على صدره ـ وغدا قلبه شبيها بأولئك الذين لا يحتملون من الموسيقى الا قدرا معينا ، ثم يغالبهم النعاس .. غدا قلبه يغفو على صوت حب لم يعد يستمرىء لذاذاته ! .. فلقد أصبح كل منهما يعـــرف الآخر تماما ، ومن ثم لم يعد يهتز لتلك النشوة التى تترتب على المضاجعة فتضاعف بهجتها مائة مرة . .وكانت « ايمـــا » من ناحيتها قد سئمته بقدر ما ملها .. فقد عادت تجد فى الفسق كل ما فى الزواج من استرســـال رتيب ! .. ولكن ، تـــرى كيف تتخلص منه ؟ !

وكانت لا تلبث ، رغم شعورها بالخسة لوضاعة هذه الغبطة ، أن تتشبث بهـــا ، نزولا على حكم العادة ، او بدافع الفساد . واخذت تزداد استنزافا لها فى كل يوم ، مرهقة كل متعـــة فى الرغبـــة ، إلى اقصى الحدود .. واخذت تلقى على « ليون » ذنب آمالها الخائبة ـ وكأنه كان يخونهـــا ـ بل لقد راحت تتمنى كارثة تعجل بفراقهما ، مدام قد عز عليها ان تجد الجراة للبت فى الامر .. ومع ذلك ، فقد ظلت تكتب له رسائل الهوى ، وفقا للراى الذى يوجب على المراة ان تكتب لعشيقها

باستمرار .. ولكنها كانت – حين تكتب – تتمثل رجلا آخر .. طيفا تصوغه من اكثر ذكرياتها استعارا ، ومن ارق ما قرات ، ومن اقوى شهواتها .. وما لبث هذا الطيف ان اصبح يبدو لها حقيقة اليفة سهلة المنال، بدرجة كانت تجعلها ترتجف مبهورة ، وإن لم تستطع ان تتصور هذا الطيف فى صورة واضحة ، إذ كان أشبه بإله يتوارى خلف صفاته الجليلة ! .. كان يعيش فى عالم لازوردى – تتدلى من شرفاته سلالم حريرية – بين أنفاس الزهور ، وفى ضياء القمر .. كانت تحسه قريبا منها ، ولن يلبث ان يوافيها ، فيحملها بعيدا فى قبلة ! .. وكانت لا تلبث ان تتهالك منهوكة القوى ، فان هذه النوبات من الهوى المبهم كانت اشد إرهاقا لها من الفسق السافر !!

واصبحت تشعر بآلام دائمة تشعل كل جسمها .. وكثيرا ما كانت تتسلم إنذارات ، واوراقا تحمل اختاما رسمية ، فلا تكاد تنظر إليها .. وباتت تتمنى ان لا تكون على قيد الحياة ، او ان تروح فى سبات دائم ! .. وفى مساء اليوم الذى انتصف فيه الصوم الكبير ، لم تعد إلى (ايونفيل) ، بل ذهبت إلى حفلة راقصة تنكرية ، وقد ارتدت سروالا (بنطلونا) من المخمل ، وجوربين احمرين ، وشعرا مستعارا ، وقبعة ثلاثية الجوانب، مائلة على احدى اذنيها .. وظلت ترقص طيلة الليل ، على انغام الأبواق الصاخبة ، وقد التف حولها القوم .. والفت نفسها – فى الساعات الأولى من الصباح – على درجات سلم المسرح ، مع خمسة او ستة من الراقصين المتنكرين فى ثياب حمالى الميناء ، والملاحين .. كانوا زملاء « ليون » . واعربوا عن رغبتهم فى طعام .. وكانت المقاهى القريبة ممتلئة بالرواد

.. ولكنهم عثروا فى الميناء على مطعم متواضع ، قادهم صاحبه إلى غرفة صغيرة فى الطابق الرابع .. واخذ الرجال يتهامسون فى أحد الأركان .. وكانوا ولا ريب يتشاورون فى امر النفقات .. وكانوا : كاتبا ، واثنين من طلبة الطب ، ومستخدما فى احد المتاجر .. يا له من وسط تأنس إليه !.. أما النساء ، فان « ايما » سرعان ما ادركت من لهجتهن انهن ولابد ينتمين إلى ادنى طبقة فى الغالب .. وإذ ذاك جزعت ، ودفعت بمقعدها إلى الوراء ، وغضت بصرها ..

وشرع الآخرون ياكلون ، اما هى فلم تصب من الطعام شيئا .. كان جبينها متقدا ، وجفناها ملتهبين ، وبشرتها فى برودة الثلج .. وخيل إليها انها تحس بأرض المرقص تهتز تحت الضجيج المنتظم الناشىء عن آلاف الاقدام الراقصة .. وما لبثت الرائحة المنبعثة من الجماعة ، ودخان السجائر ، ان اصاباها بدوار ، ثم اغمى عليها ، فحملوها إلى النافذة .. وكان النهار ينبثق ، وقد اخذت بقعة كبيرة من اللون الارجوانى تنتشر منبعثة من الافق الشاحب فوق تلال « سانت كاترين » .. وكان النهر يرتعش بفعل الريح ، وليس على الجسور عابر واحد ، ومصابيح الشوارع تخبو . واستردت « ايما » رشدها ، فشرعت تفكر فى « بيرت » النائمة بعيدا ، فى غرفة الخادم .. ثم مرت عربة محملة بقضبان من الحديد ، محدثة صوتا معدنيا يصم الآذان . وتسللت « ايما » فجاة إلى الخارج ، فخلعت ثياب التنكر ، وانبأت « ليون » بأنها يجب ان تنصرف ..

وخلت إلى نفسها اخيرا فى فندق « بولونى » .. لقد اصبح كل شىء – حتى نفسها – لا يطاق .. وتمنت لو كان لها

جناحان كالطيور ، فتنطلق طائرة إلى مكان ما .. إلى اصقاع بعيدة ، طاهرة ، ترتد فيها إلى الشباب ثانية !

* * *

● وخرجت ، فاجتازت الطريق ، وميدان (كوشواز) ، والضاحية ، حتى بلغت اخيرا طريقا واسعة تفضى إلى بعض الحدائق .. وكانت تمشى مسرعة ، وقد سرى عنهـا الهواء المنعش ، واخذت وجوه الحشـد ، والاقنعة ، والراقصون ، والأضواء ، والمائدة ، وتلك النسوة .. اخذت كل هذه تتلاشى رويدا كضباب يتشتت .. حتى إذا بلغت فندق « الصليب الأحمر »، القت بنفسها على السرير فى غرفتها بالطابق الثانى، حيث كانت ثمة صور تمثل مناظر (تور دو نك) .

وايقظها « هيفير » — سائق العصفورة — فى الساعة الرابعة .. فلما بلغت دارها ، اطلعتها « فيليسيتيه » على ورقة سمراء ، كانت خلف الساعة . وقرات فيها : « إنذار بالحجز تنفيذا لحكم قضائى » .. اى حكم ؟ .. الواقع ان ورقة اخرى حملت إليها فى الليلة السابقة ، فلم تكن قد اطلعت عليها بعد .. وبهتت لهذه الكلمات : « باسم الملك ، والقانون ، والعدالة .. إلى مدام بوفارى » .. ثم اغفلت بضعة أسطر وقرات : « فى خلال اربع وعشرين ساعة ، لا غير .. » ماذا .. « ان تدفع ثمانية آلاف فرنك » .. ثم فى النهاية : « .. وإلا اجبرت بكافة الطرق القانونية ، واخصـها توقيع الحجز على اثاثها وممتلكاتها » .. تـرى ما الذى يمكن عمله ؟ .. فى اربع وعشرين ساعة .. اى غدا ! .. وخطر لها أن « لوريه »

ربما اراد أن يرهبها ، فقد خبرت كل حيله، وادركت الغاية التى كان يسعى إليها بما كان يبديه من إكرام ! .. وكان اكثر ما اكد لها ذلك ، ضخامة المبلغ .. على انها بالاقتصار على الشراء دون الدفع ، وعلى الاقتراض ، وتوقيع السندات ، وتجديد هذه السندات التى كانت تزداد فى كل مرة ، قد انتهت إلى تكوين راس المال الذى كان السيد « لوريه » يرتقبه بصبر نافد لتحقيق مشروعاته !

وولجت داره ، وقد كظمت غيظها ، وبادرته قائلة : « لعلك تعرف بما جرى لى ؟ .. انها ولا شك حيلة ! » .

— لا .. — وكيف ذلك ؟

فاشاح عنها ببطء ، وبسط ذراعيه قائلا لها : « اظننت يا سيدتى الشابة اننى سأظل إلى الأبد اقرضك واقوم بمهمة الصراف لك ، لوجه الله ؟ .. من حقى أن استرد الآن ما قدمت .. الا كونى عادلة ، منصفة ! » .. فعارضت فى قيمة الدين ، ولكنه قال : « آه ! .. على رسلك ! .. لقد اقرته المحكمة ! .. هناك حكم قضائى ! وقد اخطرت به ! .. ثم أن هذا ليس ذنبى ، وإنما ذنب فانكار » .

— اوليس فى وسعك ...

— آه ! ... ليس بوسعى شىء على الاطلاق .

— ولكن هذا لا يمنع ان نتدبر ..

وشرعت تجس نبضه ، قائلة انها لم تكن تعرف شيئا عن الأمر ، بل فوجئت به .. فقال « لوريه » منحنيا فى سخرية :

« وذنب من هذا ؟ .. انك تستمتعين بأطيب الاوقات ، بينمــا اعمل انا كالعبد المسخر ! » .

ـــ آه ! .. لا داعى للمواعظ ..

ـــ انها لا تضر ابدا .

واخذت تتذلل .. وتضرعت إليه .. بل إنها ربتت بيدها الجميلة ، الفضة ، البيضاء ، ركبة التاجر ..

ـــ الا دعينى ! .. إن من يرانا يقــول انك تسعين إلى إغوائى !

فصــاحت : « انك لتعس ! » .. فأجاب ضــاحكا : « آه ، آه ! .. هات ما عندك ! » .

ـــ سافضح امرك .. ساقول لزوجى ..

ـــ لا بأس ! .. وساريه من ناحيتى شيئا ما ..

ثم اخرج « لوريه » من خزانته ايصالا بالالف وثمانمائة فرنك التى اعطاها اياها عندما خصم « فانكار » السندات ، وعقب قائلا : « او تظنين انه لن يفهم سرقتك البسيطة هذه ؟ .. يالهذا الرجل العزيز المسكين ! » .

وانهارت ، اكثر تداعيا مما لو كانت قد ضربت بفاس ! .. بينمــا راح هو يسير بين المكتب والنــافذة ، مرددا طيلة الوقت : « آه ! ساريه ! » .. ثم اقترب منها قائلا فى صــوت متلطف : « اعرف انه ليس بالأمر السار .. ولكن المعركة بغير قتلى ، على اية حال .. وبما ان هذه هى الطريقة الوحيــدة التى بقيت لك كى تدفعى مالى .. » فصــاحت وهى تشــد ذراعيها : « ولكن .. اين اجد لك مالا ؟ » .. قال : « آه !

باه ! .. عندما يكون لامرىء مثلك اصدقاء ! .. » .. واخذ يتفرس فيها بنظرات حادة ، مزعجة ، ارسلت رجفة سرت إلى اعماقها .. وعادت تقول : « اعدك بأن اوقع .. » .

ـــ عندى ما يكفينى من توقيعاتك

ـــ ولسوف ابيع ايضا ..

قال وهو يهز كتفيه : « دعك من هــذا .. فليس لديك ما يباع » .

ثم صاح خــلال الكوة المطلة على المتجر ! « آنيت .. لا تنسى الفضــلات الثلاث المتبقية من القماش رقم ١٤ » .. واقبلت الخادم ، فادركت « ايمــا » اشارته ، وســألته عن المبلغ الذى يطلبه لوقف الإجراءات .. فقــال : « لقــد فات الأوان ! » .

ـــ ولكن ، إذا احضرت لك عدة آلاف من الفرنكات .. ربع المبلغ .. ثلثه .. ربما كله ؟

ـــ آه ! .. لا .. لا جدوى ..

ودفعها برفق صوب السلم ، فقالت باكيــة : « اتوسل إليك يا ســيد « لوريه » .. امهلنى بضعة ايام اخــرى ! »

ـــ آه ! .. جميل .. دموع !

ـــ انك تدفعنى إلى اليأس ..

فقال وهو يغلق الباب : « ليس هذا من شانى ! » .

الفصل السابع

● تجلدت «ايما» فى اليوم التالى ، حين اقبل على دارها الاستاذ « هارنج » — المحضر — واثنان من الشهود ، لتوقيع الحجز .. وبدأوا بحجرة عيادة « بوفارى » ، ولكنهم لم يثبتوا فى سجلاتهم الجمجمة التى اعتبرت من « أدوات المهنة » .. اما فى المطبخ فقد احصوا الصحاف وأوعية الطهو ، والمقاعد ، والشمعدانات .. كما احصوا فى غرفة النوم كل التحف التى كانت على الرف ، وعاينوا اثوابهـا ، والملابس الداخلية ، وحجرة الزينـة — الملحقة بالمخدع — بل وكل ما كان على جسمها — إلى ادق الثياب الداخلية ! — وكأنها جثة تحت التشريح ، امام عيون الرجال الثلاثة ! .. وكان الاستاذ « هارنج » — فى سترته السوداء المحكمة حول جذعه ، ورباط عنقه الأبيض، وحذاءيه بسيورهما المحكمة حول قدميه — يردد بين آن وآخر : « اتسمحين يا سيدتى ؟ اتسمحين ؟ » .. وكان يهتف أحيانا : « ما ابدع هذا ! .. ما اجمله ! » .. ثم يعاود الكتابة غامسا ريشته فى محبرة حملها فى يده اليسرى .. حتى إذا فرغوا من الحجرات ، صعدوا إلى غرفة المخزن (التى تحت السقف المحدودب) .. كانت «ايما» تحتفظ فيها بمكتب أودعته خطابات « رودولف » .. وكان لابد من فتحه .. وقال الاستاذ « هارنج » فى ابتسامة وقحة : « آه ! .. مراسلات ! .. ولكن ، اسمحى لى ! .. إذ لابد أن اتأكد من أن الصندوق لا يحتوى على شىء آخر ! » وطرق الأوراق بخفة ، وكأنما كان يرجو ان تسقط من بينها دنانير نابليونية .. وإذ ذاك ، اشتد

غضبها إذ رأت تلك اليد الغليظة ، ذات الأصابع الحمراء ، الرخوة ، تمس تلك الصفحات التى خفق لها قلبها !

وانصرفوا أخيرا ، وعادت « فيليسيتيه » ، التى كانت « ايما » قد ارسلتها لتعوق « بوفارى » عن المجىء .. وبادرتا إلى حمل الرجل — الذى ترك للحراسة — على الصعود إلى المخزن العلوى ، حيث اقسم ان يبقى..

❊ ❊ ❊

● بدا « شارل » فى تلك الليلة لايما مهموما ، فراحت ترمقه بنظرة خائفة ، متوجسة ، وهى تخال فى كل خط من تجاعيد وجهه اتهاما .. وكانت إذا طاف بصرها بالمدخنة المزدانة بحاجز صينى منقوش ، وبالستائر العريضة ، والمقاعد الوثيرة ، وكل تلك الأشياء التى خففت من مرارة حياتها ، لا تلبث ان تشعر بالندم .. أو بالأحرى ، بأسف بالغ ، يهيج عواطفها ، بدلا من أن يسحقها ! .. وراح « شارل » يحرك النار فى فتور وبعقل شارد ، مسندا قدميه إلى حافتى المدفأة ..

وحدث ان صدرت عن الرجل — المختبىء فى المخزن — حركة طفيفة ، إذ ضاق ولا شك بحبسه ، فقال « شارل » : « هل هناك من يسير فى الطابق العلوى ؟ » .. فأجابت : « لا .. انها نافذة تركت مفتوحة ، فأخذ الهواء يعبث بها ! » .

وكان اليوم التالى من أيام الأحد ، فسعت إلى (روان) لتطوف ببعض الصيارف الذين كانت تعرف اسماءهم ، فاذا بهم فى نزهات أو رحلات خارج المدينة . ولم يثبط هذا من عزيمتها ،

فاستطاعت ان تقابل عددا منهم ، وتطلب منهم المبلغ ، قائلة انها فى حاجة إليه ، وانها لن تلبث ان تسده .. وضحك بعضهم منها دون حياء ، ورفضوا جميعا .. حتى إذا كانت الساعة الثانية ، هرعت إلى منزل « ليون » وطرقت بابه ، فلم يفتح لها .. وما لبث ان ظهر فى النافذة !

— ماذا اتى بك ؟ — افهذا ازعجك ؟

— لا ، ولكن ..

وصارحها بأن صاحب البيت لم يكن يحب استقبال « نساء » فى داره.. فقالت له : «لابد لى من أن اتحدث إليك» .. وإذ هم بأن يدلى بالمفتاح إليها ، استوقفته قائلة : « آه ، لا .. هناك فى حجرتنا » .. ومن ثم ذهبا إلى « حجرتهما » فى فندق « بولونى » .. وما إن وصلا ، حتى شربت كوبا كبيرا من الماء .. وكانت شديدة الشحوب .. وقالت له : « ليون ، هل تسدى لى خدمة ؟ » .. وامسكت به فى قوة ، وهزته قائلة : « اسمع .. اننى بحاجة إلى ثمانية آلاف فرنك » .

— ولكنك مجنونة ! — لا ، لم اجن بعد !

وروت له قصة الحجز ، مبينة له محنتها ، فقد كان « شارل » يجهل كل شيء وحماتها تكرهها ، والأب «روو » لا يملك لها عونا ، ولكنه هو — ليون — يستطيع ان ينطلق بحثا لها عن هذا المبلغ الذى لم يكن عنه غنى ..

— كيف تريدين .. ؟ فصاحت : « ما انذلك ! »

* * *

● وما لبث ليون ان قال مهونا : « انك تبالغين فى تصوير الشر ، فربما امكن بألف دينار استمهال صاحبك » .. وكان هذا ادعى لأن يحاول ان يفعل شيئا ، فمن المستحيل ان يعجزا عن العثور على ثلاثة آلاف فرنك .. فضلا عن ان « ليون » قد يستطيع ابرام الصفقة لأنه « اضمن » منها ..

— امض ! حاول ! يجب عليك ! .. اجر .. آه . الا اسرع ، اسرع ! لسوف ازداد لك حبا !

وانصرف ، ثم عاد بعد ساعة ، فقال بوجه مكتئب : « ذهبت إلى ثلاثة اشخاص ، دون ان اوفق » .. وظلا بعد ذلك جالسين متقابلين ، إلى جانبى المدفأة ، لا يحيران حراكا ، ولا ينبسان بكلمة .. وما لبثت « ايما » ان هزت كتفيها . ودقت الأرض بقدمها .. وسمعها تغمغم : « لو كنت فى مكانك لاستطعت أن اجد المبلغ سريعا ! » .

— ولكن من اين ؟ — من المكتب الذى تعمل فيه !

وحدجته بنظرة ، فاذا بجراة متهورة تطل من مقلتيها المتقدتين ، بينما استرخى جفناها فى اغراء داعر ، وتشجيع . حتى احس الشاب بنفسه يزداد عجزا امام ارادة هذه المراة التى كانت تستحثه على ارتكاب جريمة .. على انه خاف . ولكى يتفادى اى حوار فى هذا الصدد ، ضرب جبينه براحته صائحا : « من المقرر ان يعود موريل الليلة ! .. وهو لن يرفض لى طلبا على ما ارجو ! » (وكان هذا من اصدقائه ، ابنا لتاجر عظيم الثراء) واستطرد قائلا : « وساحضر لك المبلغ هناك غدا » .

ولم يبد على « ايما » اى استعداد لان ترحب بهذا الأمل الذى صوره لها .. افتراها تحدس أنه يكذب ؟ .. وعاد يقول متضرج الوجـه : « وفى الوقت ذاته ، إذا لم ترينى خـلال ساعات ، فلا تمكثى فى انتظارى يا حبيبتى .. إذ لا بد لى من الانصراف ، فاسمحى لى .. وداعا ! » .

وضغط يدها ، فأحس بها فاترة .. إذ لم تبق لايما قدرة على اية عاطفة او احساس .. وظلت حتى دقت الساعـة مؤذنة بالرابعة ، فنهضت لتعود إلى (ايونفيل) فى انصياع ، كجهاز آلى يعمل بدافع العادة ..

* * *

● كان الجو بديعا ، إذ كان اليوم من ايام مارس الصافية ، الصحوة ، التى تتألق فيها الشمس فى سماء بيضاء .. وكان فريق من اهالى (روان) ينتزهون مغتبطين .. وبلغت « ايما » ميدان « بارفى » ، فاذا الناس منصرفون بعد صلاة الغروب ، وقد تدفقت جموعهم خلال ابواب الكاتدرائية الثلاثة ، كفيض ينساب تحت ثلاثة عيون لأحد الجسـور .. ووقف الحارس السويسرى فى الوسط لا يريم حراكا ، كأنه الجندل ! .. إذ ذاك ، تذكرت اليوم الذى اقبلت فيه مضـطربة ، وامل يملأ نفسها ، فولجت هذا الفناء الفسيح الذى بدا امامها اقل اتساعا من حبها ..

وواصلت سيرها وهى تبكى تحت قناعها ، مترنحـة ، تحس بالأرض تميد تحت قدميها ، وتوشك ان تقع مغشيا عليها .. وصاح صوت انبعث من بوابة قصر فتحت لتنطلق خلالهـا

عربة : « انتباه ! » .. فوقفت لتخلى الطريق لجواد اسود ، راح يصك الأرض ، بين ذراعى عربة خفيفة يقودها رجل فى فراء أسمر .. ترى من هو ؟ .. إنها تعرفه .. ومرقت العربة كالسهم ، واختفت .. ولكن ، إنه بعينه .. الفيكونت ! .. وانحرفت إلى شارع مقفر .. واشتدت بها الحيرة اليائسة ، والحـزن ، حتى اضـطرت إلى أن تسـتند إلى جـدار ، لتتلافى السقوط على الأرض ! .. وخيل إليهـا انهـا ضلت طريقها .. وإلا ، فهى لم تكن تعرف شيئا ! .. كل ما فيهـا ، وكل من حولهـا ، كان يهجرها .. واحست بأنهـا مضيعة ، تائهة ، تتخبط على غير هـدى ، فى مفاوز لا نهاية لهـا .. وداخلها الفرح إذ لمحت — عند وصولها إلى «الصليب الأحمر» — هـذا الرجل الطيب « هوميه » ، يرقب رفع صندوق ملىء بالمواد الكيماوية والأدوية إلى « العصفورة » ، وقد أمسك فى يده منديلا أودعه ستة أرغفة من النوع المستدير كالعجلة ، ابتاعها لزوجته — فقد كانت مدام « هوميه » جد مشغوفة بهذه الأرغفة الصغيرة ، الثقيلة ، الشبيهة بالعمامة ، التى تؤكل فى الصوم الكبير مع الزبد الملح .. آخر شكل لنوع من الوجبات القوطية التى قد يرجع العهد بها إلى عصر الصليبيين ، والتى كان المتعصبون من اهل نورمانديا يستعيدون بهـا المـاضى ، ويوهمون أنفسـهم بأنهم يرون على المـائدة — تحت ضـوء الشموع الصفراء ، وبين دنان « الهيبوكرا » (١) وكتل اللحوم الكبيرة الحجم — رؤوس العرب معـدة ليلتهموها .. وكانت

---

(١) « الهيبوكرا » صنف من الشراب يتألف من العسل المخمر والمـاء .



ومرقت العربة كالسهم ، واختفت ..
ولكن ، إنه بعينه .. الفيكونت ! ..

زوجة الصيدلى تقضم هذا الخبز الجاف، كما اعتاد القدامى ان يفعلوا ، رغم اسنانها المتداعية .. ولهذا لم يكن « هوميه » لينسى قط — كلما ذهب إلى المدينة — ان يحضر لها عددا من هذه الأرغفة يبتاعها من المخبز الكبير فى شارع « ماساكر » .

وقال الصيدلى : « يسعدنى ان اراك ! » . ومد لايما يدا يساعدها على الصعود إلى « العصفورة » ، ثم علق ارغفته فى حبال الشبكة ، واستقر عارى الرأس ، معقود الذراعين ، فى وضع يوحى بالتفكير والعظمة! .. ولكنه هتف ، حين ظهر الرجل الأعمى عند بداية التل كالمعتاد : « لست ادرى لمـــاذا تتساهل السلطات إزاء هذه الشعوذة الاجرامية ؟ .. يجب حبس المنكودين الذين على هذه الشاكلة ، واجبارهم على العمل .. لعمرى ، أن التقدم ليحبو بخطى سلحفائية ! .. أننا نخوض حماة من البربرية والتأخر ! » .. فبسط الرجل الأعمى قبعته التى راحت تهتز على حافة باب العربة ، كأنها جيب فى كسوة الباب الداخلية سقطت المســامير التى تثبته إليه .. وقـــال الصيدلى : « هذه عاطفة خنزيرية ! » .

ومع انه كان يعرف الشريد المسكين ، إلا انه تظاهر بانه كان يراه للمرة الأولى ، وراح يتمتم ذاكرا شيئا عن « قرنية العين » ، و « القرنية المعتمة » ، و « تيبس العين » .. ثم ساله فى لهجة ابوية : « هل اصبت بهذا المرض الفظيع من زمن طويل يا صاحبى ؟ .. خليق بك أن تعنى بتغذية نفسك بدلا من ان تسكر فى الحانة ! » .. وراح ينصحه بان يتنــاول النبيذ الطيب ، والجعة الجيدة ، واللحم المشوى ، والاعمى سادر فى اغنيته .. وكان فـــوق هـــذا يبدو معتوها .. واخيرا ، فتح

السيد « هوميه » كيس نقوده قائلا : « هاك (سو) (١) خذ نصفه ، واعد لى النصف .. ولا تنس نصائحى ، فلن تلبث ان تشعر بتحسن » .. فجهر السائق ببعض الشك فى جدواها ، ولكن الصيدلى قال إنه على استعداد لأن يعالجه بنفسه، ببلسم مسكن للالتهابات من تركيبه .. واعطى الرجل عنوانه قائلا : « السيد هوميه ، بالقرب من السوق .. ستجده معروفا » .. فقال « هيفير » : « الآن ، ارنا بعض العابك جزاء كل هذا » .. فهبط الأعمى على ردفيه ، ملقيا راسه إلى الخلف ، وهو يحرك عينيه الضاربتين للخضرة ، ويهز لسانه خارج فمه ، ويفرك بطنه بيديه ، مرسلا نوعا من الصراخ الاجوف كعواء كلب جائع .. وفاض بايما التقزز ، فالقت إليه من فوق كتفها بقطعة من العملة ذات الخمسة الفرنكات .. وكانت كل ثروتها ، فعن لها أن من المستحسن ان ترميها هى الأخرى ..

* * *

● كانت العربة قد استأنفت سيرها ، حين اطل السيد « هوميه » فجاة من النافذة وصاح : « لا تتناول اغذية تصنع من الدقيق او الألبان .. والبس صوفا على الجلد مباشرة ، وعرض الأجزاء المريضة لدخان حبوب العرعر ! » .

وما لبثت مناظر الأشياء المالوفة التى تتابعت أمام عينى « ايما » أن شغلتها رويدا عن همومها الراهنة . واستبد بها

(١) السو جزء على عشرين من الفرنكات ، اى اقل من مليمين بسعر العملة فى ذلك الوقت !!

تعب لا قبل لها به .. وبلغت دارها مشتتة ، خائرة ، تكاد ان تكون نائمة .. فقالت لنفسها : « ليحدث ما لابد من حدوثه ! » .. ثم ، من يدرى ؟ .. لم لا تتوقع أن يحدث بين لحظة واخرى حدث غير عادى ؟ .. بل ربما مات « لوريه » !

واستيقظت فى الساعة التاسعة من الصباح التالى ، على ضجيج اصوات فى الميدان .. كان ثمة حشد تجمع أمام السوق لقراءة إعلان كبير ملصق على احد الأعمدة ، ورات «جوستان» يتسلق على حجر ، ويجذب هذا الاعلان فيمزقه ولكن الحارس الريفى امسك بتلابيبه فى تلك اللحظة . وخرج السيد «هوميه» من الصيدلية .. وبدت الأم « لوفرانسوا » وسط الزحام وكأنها تخطب فى القوم ..

واقبلت « فيليسيتيه » صائحة : « سيدتى ! سيدتى ! .. هذا شنيع ! » .. واسلمتها الفتاة المسكينة ــ وهى فى ابلغ حالات التأثر ــ ورقة صفراء انتزعتها لتوها من على باب الدار . وقرات « ايما » بنظرة واحدة إن كل متاعها سيباع .. ثم رمقت كل منهما الأخرى فى صمت .. لم يعد بين الخادم والسيدة سر تكتمه إحداهما عن الآخر .. وقالت « فيليسيتيه » اخيرا ، وهى تتنهد : « لو كنت مكانك يا سيدتى ، لذهبت إلى السيد جيومان » ، فقالت : « هل تظنين ... ؟ » .

وودت بهذا السؤال ان تقول : « انك لتعرفين اسرار بيته عن طريق خادمه ، فهل تكلم السيد عنى احيانا ؟ » .

ــ أجل ، اذهبى إليه .. لسوف تحسنين صنعا !

فتهيأت للخروج ، مرتدية ثوبها الاسود ، وقلنسوتها

المزركشة بالخرز . ولكى لا يراها أحد — إذ كان الميدان يعج بالناس دائما — سلكت الطريق المحاذية للنهر ، خارج القرية .. وبلغت باب دار موثق العقود ، وقد تقطعت أنفاسها . وكانت السماء مكفهرة ، والجليد يتساقط رذاذا . وظهر « تيودور » — على رنين الجرس — عند السلم فى « صديرى » احمر ، ثم اقبل وفتح الباب فى غير ما دهشة او كلفة ، وكأنه يفتحه لزائرة مألوفة .. وقادها إلى قاعة المائدة .. وكانت ثمة مدفأة من القيشانى تتلظى النار فيها ، تحت فروع الصبار التى ملأت فجوة فى الحائط كالمحراب .. وفى إطارين أسودين على الجدار المكسو بورق مموه بلون شجر البلوط ، كانت لوحتا ستيوبان : « أزميرالدا » ، وشوبان : « بوتيفار » .. وكانت المائدة المعدة ، وصفحتان فضيتان للمصطلى ، ومقابض الأبواب البلورية ، والأرضية الخشبية المصقولة ، وقطع الأثاث .. كانت كلها تلمع فى نظافة إنجليزية أنيقة . وكان زجاج النافذة مزدانا بقطع من الزجاج الملون فى الأركان ، فقالت « ايما » لنفسها : « ها هى ذى قاعة طعام من النوع الذى يليق بى! ».

* * *

● دخل الموثق الحجرة ، يضم « ثوب الغرفة » — الروب دو شامبر — الموشى برسوم النخيل ، إلى صدره بذراعه اليسرى ، بينما أخذ بيده اليمنى يرفع — ثم يخفض بسرعة — قلنسوة بنية من المخمل ، كان يميلها ، من قبيل الأناقة ، إلى الجانب الأيمن من رأسه ، حيث كانت تنسدل ثلاث خصلات من الشعر شدت من مؤخر رأسه ، لتكسو حافة جمجمته الصلعاء . وبعد أن قدم لها مقعدا ، جلس يتناول فطوره ،

معتذرا عما فى هذا من مجافاة للذوق .. فقالت : « إننى أناشدك يا سيد جيومان .. » .. وبادر مجيبا . « ماذا يا سيدتى ؟ .. إننى مصغ !» .. فراحت تصارحه بالموقف .. وكان السيد «جيومان» على علم به ، إذ كان يستتر وراء تاجر الأقمشة الذى كان يجد عنده المال للقروض التى كان يطلب إليه عقدها بضمان مرهونات .. ومن ثم كان يعرف — بل كان أكثر منها معرفة — قصة السندات التى بدأت صغيرة ، تحمل أسماء مختلفة لأشخاص كانت تحول إليهم ، وتواريخ طويلة الأجل، ثم كانت تجدد باستمرار حتى جمعها التاجر كلها يوما ، وسأل صديقه « فانكار » أن يتخذ عنه الاجراءات اللازمة ، رغبة منه فى أن لا يبدو كوحش ينهش لحوم بنى بلدته ..

وكانت «ايما» تخلط قصتها بالشتائم تهيلها على «لوريه». شتائم كان الموثق يجيب عنها — بين وقت وآخر — بكلمات لا معنى لها ، وهو يمضغ قطعة من لحم الضأن «الكوستليتة» ، ويحتسى الشاى .. مخفضا ذقنه حتى تستقر على ربطة عنقه ذات الزرقة السماوية ، التى كان يرصعها دبوسان ماسيان تصل بينهما سلسلة ذهبية صغيرة .. وكانت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة غريبة .. ابتسامة معسولة ، ومبهمة .. وإذ لمح أن قدميها كانتا مبتلتين ، هتف : « ألا اقتربى من المدفأة .. ارفعى قدميك إلى حافة القيشانى » .. ولكنها خشيت أن تلطخه ، فصاح الموثق فى لباقة : « إن الأشياء الجميلة لا تتلف شيئا » .. وإذ ذاك ، حاولت أن تؤثر على أوتار قلبه ، وقد جاشت أشجانها، فشرعت تحدثه عن فقر دارها، وعن همومها، وحاجاتها .. وقال انه يدرك ذلك ، ورثى لها ! .. وبدون أن

يكف عن الأكل، استدر نحوها تماما، حتى مست ركبتاه حذاءيها اللذين تقلص نعلاها فانثنيا بفعل حرارة الموقد .. ولكنه زم شفتيه حين سألته ان يقرضها الف دينار ، وما لبث ان صارحها بأنه جد آسف لأنه لم يتول أمر ثروتها من قبل ، وقد كانت هناك مئات الطرق الملائمة ـ حتى للسيدات ـ لاستثمار الأموال .. وكان فى الوسع المساهمة بهـا فى مناجم (جروسفل) ، او فى اراضى (الهافر) ، دون ما مجازفة ، بل ربما كانا قد استطاعا ان يقدما على بعض المضاربات الرائعة .. وتركها تتحرق أسفا وحسرة على المبالغ الخيالية التى كان بوسعها أن تحصل عليها .. واستطرد قـائلا : « كيف حدث انك لم تأتى إلى ؟ » .. فقالت : « لم اكن اعرف » .

— لمـاذا بالله ؟ .. افكنت اخيفك إلى هذا الحد ؟ .. على النقيض ، انا الذى كان ينبغى ان يشـكو .. إننا لا نكاد نكون متعارفين .. ومع ذلك فانا شديد الوفاء لك .. آمل ان لا ترتابى فى هذا ؟

ومد يده فتناول راحتها ، وغمرها بقبـلات منهومة ، ثم استبقاها على ركبته ، وراح يعبث بأصابعهـا فى رفق ، وهو يغمغم بألف نجوى ناعمة .. وكان صـوته الخافت ينسـاب كخرير جدول ، وقد راحت عيناه تومضان خـلال عدسـتى نظارته اللامعتين ، وزحفت يده على كم «ايما» لتضغط ذراعها .. وشعرت بانفاسه المتهدجة تلفح خدها .. كان هذا الرجل يثقل عليها بدرجة فظيعة ! .. فقفزت عن مقعدها وقالت له :

« سيدى ، إننى انتظر ! » ، فقال الموثق الذى اشتد شحوبه فجاة : « وماذا تنتظرين ؟ » .

— هذا المبلغ — ولكن ..

ثم انصاع لجيشان شهوة عارمة ، فقال : « حسنا .. اجل ! » وجر نفسـه نحوها على ركبتيه غير عابىء بثوبه ، واستطرد : « الا امكثى بحق الرحمـة .. اننى احبك ! » .. وامسك بخصرها ، فاحتقن وجه مدام « بوفارى » ، وتراجعت وهى ترمقه بنظرة قاسية ، وصـاحت : « انك تنتهز فرصة ضائقتى فتستغلها اشنع استغلال . سيدى .. اننى جديرة بأن يرثى لى .. لا بأن أباع ! » .. وانصرفت ! .. وظل الموثق مشدوها ، وقد علق بصره بخفيه البديعين الموشيين بأشغال الابرة .. كانا هدية غرام ، وقد وجد فى رؤيتهما عزاء .. فضلا عن انه فطن إلى ان المغامرة التى كان مقدما عليهـا ، كانت خليقة بأن تورطه إلى حد بعيد .

وراحت تقول لنفسها وهى تطوى درجات السلم فى خطى منفعلة وتنطلق فى الطريق تحت أشجار الحـور : « يا له من نذل » ! .. وادى الاستياء المترتب على إخفاقها ، إلى مضاعفة اعتزازها بعفتها المهانة .. وخيل إليها أن العناية الإلهية كانت تلاحقها بما يثيرها ، فالتمست من كرامتها وكبريائها تقوية .. ابدا لم تشعر من قبل بمثل هذا التقدير لنفسها ، ولا بمثل هذا السخط على الغير . واحست بروح الصراع تتملكها ، فودت لو أنهـا صـفعت جميع الرجـال ، وبصـقت فى وجوههم ، وسحقتهم جميعا .. ومضت فى طريقهـا مسرعـة لا تلوى

على شىء ، شاحبة ، مرتجفة ، ثائرة ، تتطلع إلى الافق بعينين مغرورقتين بالدموع .. وكأنما وجدت فى ذلك الحقد الذى كان يخنقها ، نوعا من التسرية .. وما إن لمحت بيتها حتى غشيها خور ، فاحست بأن ليس فى وسعها ان تمضى إليه .. ومع ذلك كان من المحتوم ان تمضى .. فإلى اين المفر ؟

* * *

● بادرتها « فيليسيتيه » التى كانت فى انتظارها لدى الباب : « حسنا ؟ » فأجابت «ايما» : « لا » .. وظلت كلتاهما ربع ساعة تستعرضان اسماء مختلف الاشخاص الذين قد يستطيعون ان يمدوا يد العون ، من اهل (ايونفيل) . ولكن « ايما » كانت تعقب على كل اسم تذكره « فيليسيتيه » : « امن الممكن ؟ لن يقبل ! » .

— والسيد الذى لن يلبث ان يعود !

— اعرف هذا جيدا .. فدعينى اخلو إلى نفسى !

وكانت قد بذلت كل محاولة ، فلم يبق ما تفعله .. وإذا ما عاد « شارل » فعليها أن تقول له : « عد ! .. إن البساط الذى تطاه لم يعد لنا .. انك لا تملك فى بيتك قطعة اثاث .. ولا إبرة .. ولا قشة ! .. وانا السبب فى خرابك ايها الرجل البائس ! » .. وتعقب ذلك دمعة كبيرة ، فيبكى فى غزارة ، ثم .. تنقشع المفاجأة ، ويغفر لها ! .. وتمتمت وهى تصر على اسنانها : « اجل ، سيصفح عنى ، وهو الذى لو قدم لى مليونا لاغفر له كونه عرفنى، لما غفرت! .. ابدا ! ابدا ! » .. وغاظتها هذه الفكرة الموحية بسمو « بوفارى » عليها .. انه

لن يلبث أن يعرف بالنكبة ، عما قريب ، أو فى الحال ، او غدا ، وسواء اعترفت له أو لم تعترف .. ومن ثم فعليها ان تنتظر هذا الموقف الرهيب ، وأن تتحمل وطأة مروءته ونخوته (حين يدرك ما فعلت به ثم يصفح عنها) .. وتملكتهاالرغبة فى أن تعود إلى « لوريه » .. ولكن ما الجدوى ؟ .. هل تكتب لأبيها ؟ .. لقد تأخر الوقت كثيرا .. ولعلها كانت قد بدأت تندم على انها لم تستسلم لذلك الرجل — « جيومان » — حين سمعت وقع سنابك جواد فى الحارة التى تقع خلف دارها .. كان هو : « شارل » .. كان يفتح البوابة .. وجهه اشد بياضا من الجبس .. واندفعت تهبط السلم ، وهرعت إلى الميدان .. ولمحتها زوجة العمدة — التى كانت تتحدث إلى « ليستيبودا » امام الكنيسة — وهى تدخل عند محصل الضرائب ، فاسرعت لتنبىء مدام « كارون » ، وصعدت السيدتان إلى المخزن الذى يقع تحت سقف المبنى ، فكمنتا وراء قماش نشر على «المنور» ، وتهيأتا لتطلا على غرفة «بينيه» فى وضع يريانها فيه بأسرها ..

* * *

● كان « بينيه » وحيدا ، وقد انهمك فى صنع تحفة من تلك التحف الخشبية التى لا وصف لها ، والمؤلفة من اهلة (جمع هلال) ذات محيطات مجوفة يتداخل كل منها فى الآخر ، بحيث تستقيم القطع فى مجموعها كالمسلة ، وإن لم يكن لها اى نفع ! .. وكان قد شرع فى آخر قطعة .. اوشك ان ينتهى إلى هدفه . وفى الضوء الخافت الذى كان فى الورشة ، كان الغبار الأبيض يتطاير من الآلات كرذاذ من الشرر ينبعث من تحت سنابك جواد يخب فى جريه .. وكانت عجلتا المخرطة تدوران ،

وتبعثان زئيرا .. و «بينيه» يبتسم ، وقد نكس ذقنه ، وتفتحت طاقتا أنفه ، وبدا – بإيجاز – مستغرقا فى احدى تلك المتع الكاملة التى لا تتأتى إلا من الأعمال العادية ، والتى تجعل العقل يستعذب المصاعب البسيطة ! وتشبع سعادة اخرى ، فوق كل ما يمكن للعقول ان تحلم به !

وهتفت مدام توفاش : « آه .. ها هى ذى ! » .. ولكن، كان من المتعذر أن تسمعا ما كانت تقوله « ايما » ، وسط ضجيج المخرطة . وحدست السيدتان فى النهاية انهما سمعتا كلمة « فرنكات » ، فهمست مدام « توفاش » بصوت خفيض : « انها ترجوه أن يمهلها فى دفع ضرائبها » ، فأجابت الأخرى : « هكذا يبدو ! » .. وابصرتاها تروح وتغدو ، متفحصة مشاجب المنشفات ، والشمعدانات ، والأسيجة (الدرابزينات) الخشبية التى كانت مسندة إلى الجدران ، بينا كان « بينيه » يتحسس لحيته فى رضى .. وقالت مدام توفاش: « اترينها تريد ان تكلفه بصنع شىء لها ؟ » ، فقالت الأخرى : « كيف ؟ .. انه لا يبيع شيئا » .

ولاح أن محصل الضرائب كان يستمع وقد فتح عينيه ، كمن لا يفقه ، و « ايما » ماضية فى ضراعة ناعمة .. واقتربت منه وصدرها يتهدج .. ولم يعودا يتكلمان .. وقالت مدام توفاش: «أترينها تعرض عليه بعض الأجر مقدما ؟ » .. وكان الدم قد تصاعد فى وجه «بينيه» حتى اذنيه ، فأمسكت بيده ..

– آه .. هذا كثير جدا !

ولابد انها كانت تعرض عليه أمرا بشعا منكرا ، فان

محصل الضرائب كان رغم كل شىء ، عفيفا .. لقد حارب فى (بوزان) و (لوتزان) ، وخاض الحملة الفرنسية بأسرها ، ورشح للفوز بوسام « اللجيون دونير » .. ومن ثم ، فانه لم يلبث فجاة ان تراجع إلى ابعد ما استطاع ، وكأنه رأى أمامه حية ، وصاح : « سيدتى ، ماذا تعنين ؟ » .. وهمست مدام « توفاش » لصاحبتها : « إن أمثال هذه المرأة يجب أن يضربن بالسياط » .. فقالت مدام «كارون» : « ولكن اين هى ؟ » .. إذ كانت « ايما » قد اختفت اثناء هذه الهمسات ثم لمحتاها تمضى فى الشارع الرئيسى ، وتعرج إلى اليمين وكأنها متجهة إلى المقبرة .. وشغلتا عنها بالحدس والتخمين !

وقالت « ايما » إذ بلغت دار المربية : « دادة روليه .. انني اختنق .. افتحى صدر ثوبى » .. وارتمت على السرير منتحبة .. وغطتها المربية « روليه » بـ « جونلة » وظلت واقفة إلى جوارها .. ثم انسحبت المرأة الطيبة إذ لم تتلق من الأخرى جوابا ، وتناولت مغزلها وراحت تغزل كتانا .. وغمغمت « ايما » إذ خالت انها تسمع صوت مخرطة «بينيه» : « آه ! .. هلا انتهيت ! » .. فقالت المربية لنفسها : « ترى ما الذى يزعجها ؟ .. لماذا جاءت هنا ؟ » .. كانت « ايما » قد اندفعت إلى هناك ، مسوقة بنوع من الخوف كان يدفعها بعيدا عن دارها .. وفيما كانت مستلقية على ظهرها ، بلا حراك ، وقد جمدت مقلتاها ، اخذت ترى الأشياء فى غير وضوح ، وإن حاولت ان تستبينها فى إصرار ابله ! .. وحدقت فى طلاء الحائط المتساقط ، وفى قطعتى الخشب اللتين كان طرفاهما المتقاربان يبعثان دخانا فى المدفأة ، وفى عنكبوت يزحف

فوق راسها، فى شق خلال الخشب.. واخيرا ، شرعت تجمع شتات افكارها .. تذكرت يوما كانت فيه مع « ليـون » .. اواه ، ما ابعد ذاك اليوم ! .. وكانت الشمس تسطع متالقة على صفحة النهر ، ونبات « الداليا » يؤرج الهواء .. وما لبثت ان شرعت تتذكر اليوم السابق ـ الأمس ـ وكانما جرفها سيل طاغ .. متسـاءلت : « كم السـاعة ؟ » .. وخـرجت الأم « روليه » ، فرفعت اصابع يدها اليمنى فى وضع عمودى على ذلك الجانب من السماء الذى كان اكثر ضـياء من سواه ، ثم عادت فى تؤدة ، قائلة : « حوالى الثالثة » .

ــ آه ! .. شكرا ! شكرا !

.. ان « ليون » ولا بد قد اتى .. إنه لا بد آت طبعا .. ولا بد انه وفق إلى بعض المـال .. بل لعله هناك الآن فعلا ، فما كان ليحدس انها هنا .. ومن ثم أمرت المربية بأن تسرع إلى دارها وتحضره .. واهابت بها : « اسرعى !» .. فقالت: « ها أنذى ذاهبة يا سيدتى العزيزة .. ذاهبة ! » .

* * *

● وعجبت « ايما » من نفسها ، كيف لم يخطر ببالها ان تفكر فيه من البداية ؟ ! لقد وعدهـا بالأمس ، وما كان ليحنث بوعده .. وراحت تتمثل نفسـها وقد ذهبت إلى « لوريه » : فبسطت ثلاث ورقات مالية على مكتبه .. ثم تعمل على ابتكار قصة تشرح بها الأمور لبوفارى .. ترى اية قصة ؟ .. وطال غياب المربية .. ولما لم تكن فى الكوخ سـاعة ، فقد خشيت « ايما » ان تكون قد بالغت فى تقدير طـول الزمن الذى انقضى

.. واخذت تجوس خلال الحديقـة فى تؤدة .. ويممت شطر الدرب المجاور للسياج ، ثم عادت مسرعة ، املا منهـا فى ان تكون المربية قد عادت من طريق اخـرى . واخيرا ، اثقلهـا الانتظـار ، واخذت تراودهـا المخاوف ــ التى جهدت فى ان تصدها عن نفسـها ــ ولم تعد تدرى ما إذا كانت قد مكثت فى المكان قرنا او لحظة ، فجلست فى احـد الأركان ، واغمضت عينيها ، وسدت اذنيها . وما لبث ان انبعث من الباب صرير ، فقفزت واقفة .. وقبل ان تتكلم ، قالت لهـا الأم « روليه » : « ليس فى دارك احد ! » فهتفت : « كيف ؟ » .

ــ آه ! لا احد ! .. والسيد يبكى .. ويناديك .. انهم يبحثون عنكَ !

ولم تجب «ايما» ، بل شهقت وهى تجيل بصرها حولها ، بينما ارتدت الفلاحة إلى الخلف بحركة غريزية ، وهى خائفة ، إذ توهمت انها جنت .. وفجاة ، دقت « ايمـا » جبينهـا ، وصرخت .. فقد أومضت فى اعماقهـا ذكرى « رودولف » ، كلمح البرق فى ليلة مظلمة .. لقد كان مفرط الطيبة ، والرقة ، والكرم ! .. وبجانب ذلك ، فانها خليقة بأن تعرف ــ إذا تردد فى اداء هـذه الخدمة ــ كيف توقظ فى لحظة واحـدة غرامهما الضائع ! .. ومن ثم انطلقت صوب مزرعة (لاهوشيت) ، غير مدركة انها إنما كانت تسرع لتقدم نفسها إلى ذلك الذى خيب آمالها من قبل .. وغير مرتابة اتفه ريبة فى تأثير خلاعتها !

الفصل الثامن

● وساءلت نفسها وهى منطلقة : « ماذا ترانى قائلة ؟ .. من أين ابدا ؟ » واخذت فى طريقها تتذكر الأحراش ، والأشجار ، واعواد الخيزران البحرى النامية على السفح .. ثم القصر .. والفت نفسها تعود إلى احاسيس حبها الأول ، فتفتح قلبها المسكين ، النابض بالالم ، لهذا الحب .. ولفحتها نسمة دافئة .. وبدا الجليد يذوب ويتساقط قطرة فقطرة من البراعم إلى الأعشاب .. ودخلت ، كما اعتادت فى الماضى ، خلال باب البستان الصغير ، وسعت إلى الطريق المحفوفة بصفين من اشجار الزيزفون الوارفة، التى كانت تهز أغصانها الطويلة فى حفيف .. ونبحت الكلاب فى حظيرتها نباحا متواصلا ، فترددت ضوضاء نباحها ، دون ان يظهر احد .. وصعدت « ايما » السلم الأيمن ، ذا « الدرابزين » الخشبى ، المفضى إلى ردهة مرصوفة ببلاط مغبر ، يمتد فيها صف من الأبواب المفتوحة ، وكأنها تقوم فى دير ، أو فى فندق .. وكانت غرفته فى النهاية ، فى الطرف الأقصى ، إلى اليسار ..

وإذ وضعت أصابعها على مقبض الباب ، زايلتها قواها فجاة ، وغشيها خوف أوشكت معه ان تتمنى لو انها لم تكن هناك .. رغم أن هذا كان املها الأوحد .. فرصتها الأخيرة للنجاة ! .. واستجمعت شتات فكرها لحظة ، وتذرعت بالشعور بحاجتها الملحة ، ثم ولجت الغرفة .. فاذا به أمام المدفاة ، وقد رفع قدميه إلى حافتها ، واخذ يدخن غليونه ..

وما إن رآها حتى نهض فى عجلة قائلا : « عجبا ! .. اهذه انت ؟ » .

ــ أجل ، هذه انا يا رودولف .. احببت ان استعين برايك .

وعلى الرغم من كل جهودها ، فقد استحال عليها أن تفتح فمها .. وقال : « انك لم تتغيرى .. ما زلت فاتنة كالعهد بك ! » فاجابت بمرارة : « آه .. انها مفاتن حزينة يا صديقى ، مذ نبذتها ! » .. وعندئذ ، شرع فى شرح طويل لمسلكه ، مبررا تصرفه بعبارات مبهمة ، إذ عجز عن أن يبتكر مبررات افضل .. وتقبلت كلماته ، متاثرة بصوته وشكله ، فتظاهرت بانها صدقته ، أو لعلها فعلا صدقت الحجة التى قالها معللا قطيعتهما ، إذ زعم فى الأمر سرا يتوقف عليه شرف ــ بل حياة ــ شخص ثالث !

وقالت متطلعة إليه فى اسى : « لا باس ! .. لكم تألمت ! » .. فاجاب متفلسفا : « هكذا هى الحياة ! » .. فعقبت قائلة : « افتراها كانت مواتية لك ـ انت على الأقل ـ منذ فراقنا ؟ » .

ــ لم تكن بالطيبة .. ولا بالرديئة

ــ لعله كان من الأفضل لو اننا لم نفترق !

ــ اجل ، ربما

ــ او تظن ذلك ؟

وازدادت منه اقترابا ، وزفرت قائلة : « اواه يا رودولف ! .. ليتك كنت تعرف .. كم أحببتك ! » .. وإذ ذاك ، تناولت يده .. ومكثا برهة وقد اشتبكت اصابعهما ، كما كانت فى أول يوم ، حين زارا المعرض .. واخذ يقاوم فى كبرياء جيشان

عواطفه ، ولكنها تهالكت على صدره قائلة : « كيف اردتنى على ان احيا بدونك ؟ .. إن المرء لا يستطيع ان يسلو السعادة التى تعودها ! .. لقد كنت يائسة .. بل ظننت اننى لابد ميتة ! .. لسوف اروى لك كل شىء ، ولسوف ترى بنفسك ، اما انت .. انت .. فقد هربت منى ! » ..

كان قد تفاداها طيلة السنوات الثلاث فى حرص، بسبب ذلك الخور الغريزى الذى يمتاز به الجنس الأقوى .. واستطردت « ايما » فى حركات مغرية من راسها ، وفى معابثة تفوق معابثات القطة العاشقة : « انك ولابد تحب اخريات .. اعترف ! .. اواه ! اننى لأدرك ذلك حقا ! ولكننى اعذرهن ، فانت ولابد اغويتهن كما اغويتنى ! .. انك رجل .. فيك كل ما يجعل الأنثى تحبك ! .. ولكننا سنبدأ من جديد ، اليس كذلك ؟ .. سيحب كل منا الآخر .. الا انظر ! .. اننى اضحك .. اننى سعيدة ! .. كلمنى ! » .

وكانت متعة للرائى ، بعينيها اللتين كانت الدموع ترتعش فيهما ، كماء مزن يسقط فى كاس زرقاء ! .. واجلسها على ركبتيه ، وراح يمسح بظهر يده ، فى تدليل ، شعرها الناعم الذى انعكس عليه — فى العتمة الخفيفة التى شملت الغرفة — شعاع من فلول اشعة الشمس الغاربة ، فبدا كما لو كان سهما ذهبيا واحنت راسها .. وما لبث اخيرا ان قبل فى لطف جفنيها باطراف شفتيه .. وتساءل ! « ولكنك كنت تبكين .. لماذا ؟ » .. وانبثق دمعها مدرارا ، فخيل لرودولف انها فورة من فورات الحب ، فلما لم تنبس ببنت شفة ، فسر هذا الصمت بانه آخر مظاهر التمنع والدلال ، فهتف : « اواه ! .. الا

اغفرى لى ! .. انت الوحيدة التى تروق لى .. لقد كنت غبيا وقاسيا .. اننى احبك .. وساظل احبك على الدوام .. فماذا بك ؟ .. الا قولى لى ! » .. وركع فى تلك الأثناء إلى جوارها .

— آه .. لقد قضى على بالخراب يا رودولف ! .. هلا اقرضتنى ثلاثة آلاف فرنك ؟

قال وهو ينهض فى تؤدة ، وقد استولى على اساريره وجوم : « ولكن .. ولكن .. » فبادرت قائلة بسرعة : « انك تعلم ان زوجى عهد إلى موثق للعقود بكل ثروته ليستثمرها ، فهرب .. ومن ثم اضطررنا للاقتراض .. والمرضى لا يدفعون .. كما أن تصفيه الميراث لم تتم بعد، ولن نلبث أن نحصل على نصيبنا .. على اننا اليوم محجوز على متاعنا لعجزنا عن دفع ثلاثة آلاف فرنك .. لابد من دفعها فورا ، فى هذه اللحظة .. فجئت لائذة بصداقتك ! » .

قال « رودولف » لنفسه وقد شحب وجهه : « آه ! إذن فلهذا جاءت ! » .. وقال اخيرا فى هدوء : « لست املكها يا سيدتى العزيزة » ! .. ومضى يقول إنه لم يكن يكذب .. لو انه اوتى المبلغ لما تردد فى ان يعطيه لها ، وإن كان من غير المستحب — عادة — التورط فى مثل هذه الأمور الدقيقة ، فان المطالبة بالمال هى ابرد الرياح التى تهب على الحب واشدها قضاء عليه ! .. وظلت « ايما » تتطلع إليه لحظات ، وهى تردد : « الست تملكها ؟ ! .. الست تملكها ؟ .. كان خليقا بى أن اجنب نفسى هذا الخزى الأخير .. انك ما احببتنى ابدا .. انك لست بأفضل من الآخرين » .. كانت تفضفض عن نفسها ، وقد فقدت اتزانها .. وقاطعها « رودولف » قائلا إنه هو الآخر

فى « ضائقة » ، فقالت « ايما » : « آه ! .. اننى أرثى لك .. اجل .. ارثى لك جدا ! » .. وراحت ترمق طبنجة موشاة بالفضة ، وقد اخذت مؤخرتها تلمع خارج قرابها .. واستطردت : « ولكن المرء إذا كان فقيرا إلى هذا الحد ، لا يبدد نقوده فى كسوة كعب طبنجته بالفضة .. ولا يشترى ساعة مرصعة بالصدف » .. واشارت إلى ساعة مطعمة بالنقوش الصدفية ، واستطردت : « ولا مقابض مطلية بالفضة لأسواطه » ومست هذه المقابض .. « ولا تحفا يعلقها إلى سلسلة ساعته .. اواه ! .. انه لا يحرم نفسه شيئا ! .. ولا رف الخمور فى حجرته ! .. انك تحب نفسك ، ولذا تعيش منعما .. لك قصر ، ومزارع ، وغابات .. وتخرج للصيد .. وتسافر إلى باريس .. عجبا .. اى شىء من هذه .. » وصاحت وهى تتناول زرين من ازرار الأقمصة الذهبية المرصعة من فوق رف المدفأة : « إن اتفه هذه الصغائر تكبد المرء مالا .. اواه ! .. لست اريدهما .. احتفظ بهما ! » .. والقت بالزرين بعيدا ، فتفككت السلسلة الذهبية التى تتوسطهما ، إذ ارتطما بالجدار .. ثم اردفت « ايما » تقول :

ـــ اما انا .. فقد كنت قمينة بان اعطيك كل شىء .. ما كنت اتردد فى ان ابيع كل ما املك ، وان اعمل بيدى من اجلك .. كنت استجدى على قارعات الطرق ابتسامة ، نظرة .. كى اسمعك تقول : « اشكرك ! » .. اما انت فتجلس هنا ناعما فى مقعدك الوثير ، كانك لم تسبب لى ما يكفينى من العذاب ! .. لولاك ـــ وإنك لتعلم هذا جيدا ـــ لعشت سعيدة .. ما الذى حملك على أن تدخل حياتى ؟ .. اكان رهانا ؟ .. ومع ذلك فقد

احببتنى ، ولقد اعترفت بذلك .. بل قلتها منذ لحظة .. آه ! .. كان من الخير لو انك طردتنى .. ان يدى لا تزالان ساختنين من قبلاتك .. ولا يزال على البساط آثار ركبتيك وانت تقسم على خلود حبك ! .. جعلتنى اصدقك .. استبقيتنى عامين فى ابهى واحلى الأحلام ! .. آه ! .. اتذكر الخطط التى رسمناها لرحلتنا ؟ .. اواه ! .. وخطابك ! خطابك ! لقد مزق قلبى ! .. وبعد ذلك، عندما اعود إليه ـ إليه ، وهو الغنى، السعيد، الطليق ـــ اناشده معونة لا يحجم اى غريب عن تقديمها .. الآن إذ اضرع إليه ، واعيد إليه كل حبى وحنانى ، يطردنى .. لأن كل هذا لا يساوى عنده ثلاثة آلاف فرنك ! » .

قال «رودولف » ، بتلك الرزانة التامة التى يتوارى خلفها الغضب المكظوم ، كما لو كانت درعا : « لست أملك المبلغ ! » .. فخرجت « ايما » .. كانما كانت الجدران تترنح ، والسقف ينقض عليها .. ورجعت ادراجها سالكة الدرب الطويل ، متعثرة فى اكوام ورق الشجر الجاف الذى كانت الريح تذروه .. وبلغت اخيرا السياج النباتى الذى يقوم قبل الباب الخارجى .. واتلفت اظافرها وهى تعالج قفل الباب ملهوفة على فتحه ، ثم وقفت بعد مائة خطوة ، وقد تعثرت أنفاسها ، واوشكت ان تنهار .. وما لبثت ان تلفتت خلفها ، وتطلعت مرة اخرى ، إلى القصر المنيع ، مع البستان ، والحدائق ، والأفنية الثلاثة ، ونوافذ الواجهة ..

ومكثت حائرة ، مذهولة ، لا تشعر بنفسها إلا خلال نبض عروقها الذى خالته منبعثا فى قوة ، كموسيقى تصم الآذان ، وتنتشر فى الحقول جميعا .. وكانت الأرض تحت قدميها اكثر

تداعيا من البحر ، وشقوق الحرث تلوح لهـا كأمواج تتكسر مزبدة .. وانطلق كل شيء فى راسها ــ من ذكريات ، وآراء ــ كصواريخ نارية تتفتت فى الفضاء إلى الف قطعة : تمثلت اباها .. وحجرة المكتب الضيقة بدار « لوريه » .. وحجرة نومها وزوجها فى البيت .. ومناظر أخرى .. كان الجنون يطبق عليها .. واشتد بها الخوف .. وجاهدت لتتمالك نفسها ، ولكنها فى الواقع كانت مرتبكة ! .. فما كانت لتذكر شيئا عن السبب الحقيقى فى حالها الرهيبة هذه .. وهو طلب المال ! .. إذ لم تعد تتعذب إذ ذاك إلا من غرامها ، واحست بأن روحها تفارقها فى هذه الذكرى ، كالجرحى إذ يشعرون ــ وهم يحتضرون ــ بحياتهم تتسلل خلال جراحهم .. وكان الليل يرخى سدوله ، والغربان تحوم .. وفجأة خيل إليها ان ثمة كرات ملونة من لهب تنفجر فى الهواء ــ كالصواريخ حين تنطلق ــ ثم تلف ، وتلف ، لتذوب فى النهاية فى الصقيع ، بين افنان الشجر .. وفى وسط كل كرة ، كان وجه «رودولف» يلوح .. وتكاثرت الكرات واخذت تقترب منها .. وتنفذ خلالها .. ثم تلاشت كلها ، إذ تبينت انها إنما كانت تحملق فى اضواء البيوت المتألقة خلال الضباب !

إذ ذاك ، عاد موقفها يتجلى لها كهوة سحيقة .. وكانت تلهث وكأنما قلبها يوشك ان ينفجر . ثم ، وفى نوبة من نوبات البطولة ــ جعلتها فى شبه غبطة ــ اندفعت تهبط السفح ، وتجتاز معبرة البقر فوق النهر ، وتنطلق مجتازة الشارع ، والحارة ، والميدان ، حتى وصلت إلى الصيدلية ، وكانت خالية .. وهمت بالدخول ، ثم خشيت أن يرن الجرس فيخف إلى

الحانوت احد .. وتسللت خلال الباب الجانبى للحديقة ، وهى تمسك انفاسها ، ثم تلمست سبيلها بجوار الجدار إلى باب المطبخ ، حيث كانت ثمة شمعة مشتعلة فوق الموقد .. وكان « جوستان » هناك بدون سترته ، وقد حمل إحدى الصحاف ، فقالت : « آه ! .. انهم يتناولون عشاءهم .. لننتظر ! » .

* * *

● ورأته يعود إلى المطبخ ، فطرقت النافذة فى رفق ، وخرج إليها ، فهمست له : « المفتاح .. مفتاح الحجرة العليا .. حيث توجد .. » ، فتساءل : « ماذا ؟ » .. ورمقها مشدوها لفرط شحوب وجهها ، الذى بدا بياضه جليا وسط ظلمة الليل ، وبدت له فى جمال وبهاء غير عاديين ، وكأنها طيف .. واحس بنذير مرعب ، وإن لم يفهم ما كانت تبغى .. ولكنها عادت تقول بسرعة ، فى صوت خافت ، عذب ، يذيب القلوب : « اننى أريده .. اعطنيه ! » .. وإذ كان الجدار الذى يفصل المطبخ عن بقية البيت رفيعا ، فقد كانت جلبة الشوكات على صحاف الطعام ــ فى غرفة المائدة ــ مسموعة . وزعمت «ايما» انها بحاجة إلى قتل بعض الجرذان التى تحرمها النوم ..

ــ يجب ان استأذن السيد .. ــ لا ! .. انتظر !

ثم اردفت فى غير اكتراث : « آه ! .. الأمر لا يستحق .. لن ألبث ان اقول له ! .. هيا ! انر لى السلم ! » .. ودلفت فى الردهة المفضية إلى باب المعمل . وكان ثمة مفتاح معلقا على الجدار ، يحمل بطاقة كتب عليها « كفر ناحوم » .. وفى تلك اللحظة صاح الصيدلى بصبر نافد : « جوستان ! » . فهتفت « ايما » : « لنصعد ! » .. وتبعها .. ودار المفتاح فى القفل

.. وسارت فورا نحو الرف الثالث، مهتدية بذاكرتها ، فتناولت القنينة الزرقاء ، وانتزعت سدادتها عنها ، ودست فيها يدها ، ثم اخرجتها ممتلئة بمسحوق أبيض ، شرعت تلتهمه ! .. وصاح الفتى وهو ينقض عليها : « توقفى ! » .

ـ صه ! .. وإلا جاء احد ..

وتولاه الياس ، فود لو يصرخ ، ولكنها قالت له : « لا تقل شيئا ، والا وقعت المسئولية على مخدومك ! » .. ثم عادت إلى دارها وقد غشيتها سكينة مفاجئة ، وداخلتها طمأنينة من ادى واجبه .

* * *

● عندما عاد « شارل » إلى بيته مهموما لأنباء الحجز وإعلان البيع ، كانت «ايما» قد خرجت ، فطفق يبكى مجهشا ، واغمى عليه . ولكنها لم تعد ! ترى اين يحتمل أن تكون ؟ .. اوفد « فيليسيتيه » إلى دار آل « هوميه » ، وإلى دار السيد « توفاش » ، ودار « لوريه » ، و « الفندق الذهبى » ، وكل مكان .. وفى فترات الهدوء التى تخللت احزانه ، كان يتمثل سمعته المضيعة ، وثروتهما المبددة ، ومستقبل « بيرت » المضعضع .. باى سبب ؟ .. لم تكن ثمة كلمة واحدة تهديه ! .. وظل ينتظر حتى الساعة السادسة مساء ، واخيرا لم يعد يطيق صبرا .. خيل إليه انها ذهبت إلى (روان) ، فانطلق فى الطريق المفضية إليها ، وقطع ميلا ، دون أن يلتقى بأحد .. ومرة اخرى ، اخذ ينتظر .. ثم عاد إلى البيت .. وكانت قد عادت .

ـ ماذا جرى ؟ .. لماذا ؟ .. اخبرينى ..

وجلست إلى مكتبها فكتبت رسالة ، ثم احكمت إغلاقها فى بطء ، واثبتت عليها التاريخ والساعة .. ثم قالت فى صوت ينذر بالجلل : « لك ان تقرأ هذه غدا .. حتى ذاك الوقت ، ارجو أن لا تسألنى .. ولا سؤال واحد ! » .

ـ ولكن .. ـ اواه .. دعنى !

واستلقت « ايما » على فراشها .. وانتابتها غفوة استيقظت منها على طعم مرير فى فمها .. ورات « شارل » ، فعادت تغمض عينيها .. واخذت تدرس نفسها فى فضول ، لتستبين ما إذا كانت بمنجى من الالم .. ولكن لا ! .. لم يكن ثمة الم بعد .. وسمعت دقات بندول الساعة ، وازيز النار فى المدفأة ، وانفاس « شارل » وهو واقف إلى جوار السرير معتدل القامة ، وقالت لنفسها : « آه ! .. ما أهون الموت ! .. لن البث ان استغرق فى النعاس ، ثم ينتهى كل شىء ! » .. وتناولت جرعة من الماء ثم ادارت وجهها نحو الحائط .. وعاودها الطعم البغيض .. كأنه طعم المداد ! .. وتنهدت قائلة : « اننى ظامئة .. آه ! لشد ما انا عطشانة ! » .. فقال «شارل» وهو يناولها كوبا من الماء : « ماذا بك ؟ » .. فقالت : « لا شىء ! .. افتح النافذة .. إننى اختنق ! » .. ودهمها غثيان مفاجىء حتى انها لم تكد تجد وقتا لتسحب المنديل من تحت الوسادة .. وقالت فى عجلة : « خذه بعيدا .. ألقه بعيدا » .. وراح يحدثها ، ولكنها لم تجب ، وظلت راقدة بلا حراك ، تخشى ان تؤدى ادنى حركة إلى التقيؤ من جديد .. ولكنها ما لبثت ان احست ببرودة جليدية تزحف من قدميها نحو قلبها وغمغمت : « آه ! .. هذه هى البداية ! » .. فقال : « ماذا

قلت ؟ » .. فاخذت تحرك راسها من جانب إلى آخر فى حركة خفيفة مفعمة بالألم ، وهى لا تنى تفتح فمها ، وكان شيئا ثقيلا يجثم على لسانها .. وفى الساعة الثامنة ، عاودها القىء .. ولاحظ « شارل » فى قاع الحوض قطعا من مادة بيضاء ، لاصقة بجوانب القيشانى، فاخذ يردد : « هذا غريب .. جد غريب ! » .. ولكنها قالت فى صــــوت حازم : « لا .. انك تخطىء » .. وما لبث ان مد يده فى رفق ، بل وفى تطلف ، متحسسا بطنها ، فارسلت صرخة حادة .. وتراجع مذعورا !

وما لبثت ان اخذت فى الأنين ، بصوت خافت فى البداية .. وتولتها رجفة شديدة كانت كتفاها تهتزان لها .. واخذت تزداد شحوبا حتى فاقت فى البياض تلك الاغطيـــة التى كانت اصابعها تتشبث بها وتغوص فيها . ومالبث نبضها غير المنتظم ان وهن حتى اوشـــك ان لا يكون محسوســـا .. وتنصدت قطرات العرق من وجهها الذى غدا ازرق اللون ، والذى بدا كما لو كان جامدا تحف به غلالة من ابخرة معدنية .. واخذت اسنانهـــا تصطك ، وعيناها الواسعتان تجولان فيما حولهـــا بنظرات مبهمة .. ولم تكن تجيب عن اى ســـؤال الا بهزة من راسها .. بل انها ابتسمت مرة او اثنتين .. واخذ انينها يشتد ارتفاعا شيئا فشيئا ، ثم انبعثت منهـــا صرخة جوفـــاء .. وتظاهرت بانها احسن حالا ، وانها لن تلبث ان تنهض .. بيد انهـــا ما لبثت ان اخذت تختلج فى تشـــنج وصرخت : « آه ! يا الهى ! هذا فظيع ! » .

وهبط راكعا إلى جوار سريرها قائلا : «نبئينى ! مـــاذا اكلت ؟ .. اجيبى بحق السماء ! » .. واخذ يتاملها وعينـــاه



وهبط راكعا إلى جوار سريرها قائلا : « نبئينى ! مـــاذا اكلت ؟ .. اجيبى بحق الســـماء ! » ..

تفيضان بحنان لم تر مثله قط ، فقالت بصوت واهن : « حسنا ! .. هناك .. ! » وانقض على المكتب ، وفض الرسالة ، وقرأ بصوت مرتفع: «لا تتهموا احدا» .. وامسك ، وفرك عينيه ، ثم عاد يقرأ من جديد ، وما لبث ان صاح : « ماذا ؟ .. النجدة ! النجدة ! » .. ولم يتمالك ان راح يردد كلمة « مسمومة ! مسمومة ! » .. وهرعت « فيليسيتيه » إلى « هوميه » الذى اعلن النبأ بصياحه فى الميدان ، حتى سمعته مدام «لوفرانسوا » فى « الفندق الذهبى » .. وقام البعض من اماكنهم ليحملوه إلى جيرانهم ، وظلت القرية مستيقظة طيلة الليل ..

وكان «شارل» يطوف بالحجرة مخبولا ، مضطربا ، مترنحا .. يتخبط فى قطع الأثاث ، ويشد شعره .. وما كان الصيدلى ليصدق قط ان سيقدر له ان يرى مثل هذا المنظر الرهيب .. فعاد إلى داره ليكتب إلى السيد « كانيفيه » وإلى الدكتور « لاريفيير » .. وكان مشتت الفكر ، حتى انه كتب اكثر من خمس عشرة مسودة .. وذهب «هيبوليت» إلى (نيوشاتل) ، وراح « جوستان » يلكز جواد « بوفارى » ، حتى تركه متقطع الأنفاس ، بل شبه ميت ، بجوار غابة (جيوم) .. وحاول « شارل » ان يستشير قاموسه الطبى ، ولكنه لم ير شيئا ، إذ كانت السطور تتراقص .. وقال الصيدلى : «اهدأ .. ليس امامنا سوى ان تعطيها جرعة قوية مضادة للسم .. اى سم كان ؟ » .. فأراه « شارل » الخطاب .. كان زرنيخا .. وقال هوميه : « حسنا .. لابد من ان نجرى تحليلا » . فقد كان يعلم ان لابد من اجراء تحليل فى حالات التسمم .. واجاب الآخر

وهو لا يفقه شيئا : « آه .. فليكن ! ليكن ! انقذها ! .. » .

ثم عاد إليها فتهالك على البساط ، وظل مستلقيا هناك مسندا راسه إلى حافة السرير ، وهو يبكى .. فقالت له : « لا تبك ! .. لن أعود ازعجك عما قريب ! » .

ـ لماذا ؟ .. من الذى دفعك إلى هذا ؟

فأجابت : « كان لابد منه ياعزيزى » .

ـ افلم تكونى سعيدة ؟ .. اكان هذا ذنبى ؟ .. لقد بذلت كل ما فى وسعى !

ـ اجل ، هذا صحيح .. انك طيب !

ومسحت بيدها على شعره ببطء .. وضاعفت عذوبة هذا الشعور من حزنه .. احس بكل كيانه يذوب فى القنوط إذ خطر له انه سيفقدها ولابد ، فى الوقت الذي كشفت فيه عن حب له يفوق كل ما ابدت من قبل .. ولم يجد فى راسه فكرة .. كأنما لم يكن يعرف شيئا ، او يملك شيئا .. كانت الحاجة الماسة إلى قرار عاجل ، ضربة قاضية اكملت اضطراب فكره ..

وفكرت « ايما » فى نفسها : إذن فقد قضت على كل الخيانة ، والخسة ، والشهوات التى لا حصر لها ، والتى كانت تعذبها . .لم تعد تكره احدا .. وبدأت تخيم على افكارها عتمة مضطربة .. ولم تعد « ايما » تميز من كل ضجيج الحياة شيئا سوى النحيب المتقطع المنبعث من ذلك المسكين الطيب ، والذى بدا لها كأصداء لحن يموت فى الفضاء .. فقالت وهى ترفع جسمها مستندة إلى مرفقها : « احضر لى بيرت : » ..

فسألها «شارل» : « انك لم تعودى مريضة .. اليس كذلك ؟» فقالت : « لا ، لا ! » .

وجاءت الطفلة على ذراع الخـادم ، وقدماها العاريتان تبرزان من تحت ذيل ثوب النوم الطويل .. واجمة المحيـا ، ولا تزال شبه نائمة ! .. وتأملت الحجرة المرتبكة فى دهشة ، وطرفت اهدابها إذ بهرها ضوء الشـموع التى كانت مشتعلة على المنضدة .. ولا بد ان هذا ذكرها بأيام راس السنة ، او منتصف الصيام الكبير عندما كانت تستيقظ من نومها مبكرة على ضوء الشمعة .. وقد اعتادت إذ ذاك ان تسعى إلى سرير امها لتتلقى هداياها .. ومن ثم هتفت فجـاة ! « اين ماما إذن ؟ » .. وإذ وجم الجميع ، قـالت : « ولـكننى لا ارى جـوربى الصغير ! » .. وحملتهـا « فيليسيتيه » إلى السرير ، وهى لا تزال تنظـر إلى رف المدفـاة ، وتسـاءلت : « هل اخذته المرضعة ؟ » .

وكانما اثار ذكر « المرضعة » فى نفس مدام « بوفارى » ذكرى فسقها ومصائبهـا ، فأشاحت وكأنما غشيت نفسـها بمفعول سم اقوى من ذاك الذى اخذته .. وكانت « بيرت » فى تلك الأثنـاء قـد جلست على السرير ، فهتفت : « آه ! .. ما اكبـر عينيك يا ماما ! .. ومـا اشـد اصـفرارك ! .. يا لحرارتك ! » ونظرت إليها امها ، فاذا بهـا تنكمش قائلة : « اننى خائفة ! » .. وتناولت « ايما » يد الصغيرة لتقبلها ، فتملصت .. وعندئذ صاح « شارل » الذى كان يبكى عند راس السرير : « كفى ! انصرفوا بها ! » .

وما لبثت الأعراض أن توقفت قليلا ، وبدت « ايما » اقل

تململا من ذى قبل .. واخذت تبدو اهدأ حالا عند كل كلمة غير ذات قيمة ، او كل نفس يتهدج به صـدرها ، فعـاود الأمل «شارل» .. وما إن وصل « كانيفيه » اخيرا، حتى ارتمى على صدره باكيا ، وهو يقـول : « آه ! اهـذا انت ! شـكرا ! ما اطيبك ! على ان كل شىء يسير نحو التحسن .. الا انظر إليها .. » على ان الزميل لم ير رايـه ، ولم يشأ ــ كما عبر بنفسه ــ ان « يسير على غير هدى » ، بل وصف دواء مقيئا ، ليفرغ المعدة تماما .. وما عتمت ان اخذت تتقيأ دما .. واشتد التصاق شفتيها ، وراحت اطرافهـا تتلوى متشنجة ، وامتلأ جسمها كله ببقع سمراء ، وتوتر وريدها تحت اصابعها كخيط مشدود ، او كوتر قيثارة يوشـك ان ينقطع .. ثم شرعت فى صراخ منكر .. وراحت تلعن السم وتسبه ، ثم تتوسل إليه ان يعجل بقضائه ، وتدفع عنها بذراعين متصـلبتين كل ما كان « شارل » يحاول ان يحملها على تناوله ، وهو أكثر منها توجعا وعذابا .. وكان يقف ، ضاغطا منديله إلى شـفتيه ، باكيا ، ينشج فى بكائه بدرجة تهز كل جسمه ، وقد تحشرج صـوت اجش فى حلقه .. وكانت «فيليسيتيه» تجرى فى الغرفة ، هنا وهناك .. و « هوميه » لا يحير حراكا ، ويرسل زفرات ثقيلة .. وظل السـيد « كانيفيه » متمالكا جأشـه ، ثم بدا يشعر بقلق ..

ــ يا للشيطان ! .. لقد تقيأت كل ما فى بطنها .. ومن اللحظة التى يكف فيها السبب ..

فاكل «هوميه» : « يجب ان يكف المفعول .. هذا جلى » .

وهتف بوفارى : « الا انقذوها ! » .

وهم «كانيفيه» بأن يعطيها ترياقا ، غير منصت للصيدلى الذى كان لا يزال يقترح افتراضات : «لعل الأزمة تشتد لتزول» .. وإذا بهم يسمعون فرقعة سوط ، واهتزت كل النوافذ .. واقبلت من خلف السوق عربة خفيفة تجرها ثلاثة جياد لطخت بالوحل حتى آذانها .. ووصل الدكتور « لا ريفيير » .. ولو أن إلها تجلى ، لما احدث مثل الأثر الذى حدث إذ ذاك .. رفع « بوفارى » يديه ، وامسك « كانيفيه » عما كان يهم به ، وخلع « هوميه » قلنسوته الاغريقيــة قبل ان يصــل الطبيب بفترة طويلة ..

كان «لاريفيير » ينتمى إلى المدرسة العظيمة للجراحة ، التى اخذت عن « بيشا » .. إلى ذلك الجيل الذى لم يعد له وجود .. جيل الأطباء المتفلسفين ، الذين أحبوا فنهم فى شغف متهوس ، ومارســوه فى تحمس وحكمة .. كان كل شـخص فى مستشفاه يرتجف فرقا إذا غضـب ، وكان تلاميذه يكبرونه إلى درجة انهم كانوا — بمجرد ان يشرعوا فى ممارسة مهنتهم — يحاولون ان يقلدوه ما وسـعهم .. حتى انهم كانوا يشاهدون — فى كل المدن — مرتدين ، على شـاكلته ، معاطف طويلة من صوف « المارينوس » الخفيف ، مبطنة ، وسترات « فراك » سوداء ، تستطيل اكمامها ذات الأزرار حتى تمس الأكف .. وكانت يداه بديعتين ، لم تعرفـا القفازات قط ، وكانما كانت متاهبة دائمـا لتغوص فى الآلام .. وكان يزدرى الأوسـمة ، والألقاب ، والدرجات العلمية ، كواحد من أولئك الفرسـان الأطباء الذين كانوا يقفون حياتهم فى المـاضى على تخفيف آلام الجرحى .. كما كان كريما ، يعطف كالأب على الفقراء ، ويفعل

الخير دون ما رجاء .. حتى لقد كان من الممكن ان يعتبر قديسا ؛ لو لم يكن إرهاف روحه قد جعله مهيبا وكانه طاغية! .. وكانت نظراته اكثر نفاذا من مبضعه ، فهى تنفذ فى نفسك مباشرة إلى الاعماق ، وتشرح كل اكذوبــة تتوارى وراء المزاعم والأسرار التى يكتمهـا الحياء .. وهــكذا مضى فى حياته ، مفعما بتلك الهناءة الجليلــة التى تنبعث من الشــعور بعظمة مواهبه ، وبمكانته ، وبحياة دامت أربعين عامــا حافلة بالدأب والجد ، خالية من كل شائبة .

وعبس بمجرد أن اجتاز الباب ، إذ راى وجه « ايما » فى شحوب الموتى ، وهى مسـتلقية على ظهرها ، فاغرة الفم ، وبينما كان ينصت إلى «كانيفيه» فى اصغاء ، وراح يمر بسبابته تحت طاقتى أنفه ، مرددا : « هذا حسن .. حسن ! » على انه هز كتفيه فى حركة بطيئة ، لمحها «بوفارى» .. ونظر كل منهما إلى الآخر ، فاذا هذا الرجل — الذى الف رؤية الالم — لا يملك ان يحبس دمعة سـقطت على ياقة قميصـه .. وحاول ان يصحب كانيفيه إلى الغرفـة المجاورة ، ولكن « شارل » تبعه قائلا : انها جد مريضــة ، اليست كذلك ؟ لو وضعت « لزقة خردل » ؟ .. اى شىء ! .. الا فكر لها فى شىء ، فكم انقذت من نفوس ! » .

وطوقه « شـارل » بذراعيه ، وراح يحملق فيه فى حيرة وتوسل ، حتى ليكاد يرتمى على صدره مغمى عليــه ، فقال له الدكتور «لاريفيير» : « تجلد يا زميلى المسكين .. تشجع ! .. لم يعد هناك شىء فوق الذى عمل من قبل » .. وتحول ، فهتف شـارل : « امنصرف انت ؟ » قال : « سـاعود » .. وخرج ليلقى

امرا إلى حوذيه ، ومعه السيد « كانيفيه » الذى لم يعد يحفل إذا ما ماتت « ايما » تحت يديه ! .. ولحق بهما الصيدلى فى الميدان ، فما كان بطبعه ليقوى على ان يكون بمنأى عن العظماء ! ومن ثم رجا السيد «لاريفيير» أن يوليه الشرف فيقبل تناول الفطور على مائدته . وبادر فارسل إلى «الفندق الذهبى» فى طلب بعض الحمام ، وإلى القصاب فى طلب كل ما كان عنده من لحم افخاذ الضأن ، وإلى « توفاش » يطلب قشدة ، وإلى « ليستيبودوا » يطلب بيضا ، وتولى بنفسه المساهمة فى اعداد المائدة ، بينما كانت مدام « هوميه » تقول وهى تشد رباط سترتها : « الا اعذرنا يا سيدى ، ففى بلدتنا التعسة ، إذا لم يخطر المرء فى الليلة السابقة .. » .

وهمس « هوميه » : « اقداح النبيذ ! » .

ـ لو اننا كنا فى المدينة ، لوجدنا على الأقل موردا لدى الباعة المتجولين .

ـ اسكتى ! .. إلى المائدة يا دكتور !

ورأى ـ بعد اللقمات الأولى ـ ان من المناسب ان يدلى ببعض تفصيلات الفاجعة .. فقال : « لقد ظننا فى البداية انه تصلب فى الحلق .. ثم آلام لا تطاق فى اعلى المعدة ، ثم قىء وإسهال .. ثم غيبوبة .. » .

ـ ولكن ، كيف سمحت نفسها ؟

ـ لست ادرى يا دكتور .. بل إننى لا اعرف كيف استطاعت ان تحصل على حامض الأرسنيك (الزرنيخ) .

* * *

وكان « جوستان » قد اقبل إذ ذاك يحمل صفا من الأطباق ، فانتابته رعشة ، وقال له الصيدلى : « ماذا بك ؟ » .. وترك الفتى ـ عند هذا السؤال ـ الأطباق تهوى إلى الأرض ، متهشمة فى ضجيج ، فصاح « هوميه » : « غبى .. ! شرير ! .. مغفل ! .. حمار ! » .. ولكنه تمالك نفسه توا ، واستأنف حديثه الأول : « لقد اردت يا دكتور ان اجرى تحليلا ، فبدات بإيلاج انبوبة .. » فقال الجراح : « كان من الأفضل ان تدك اصابعك فى الحلق » .. وكان زميله مخلدا إلى الصمت ، إذ تلقى قبل ذلك ـ على حدة ـ درسا قاسيا عن دوائه المضاد للسم .. وبقدر ما كان « كانيفيه » مهتاجا ، لاذع النقد يوم جراحة قدم الأعرج ، بدا اليوم متواضعا للغاية ، وراح يبتسم دون انقطاع ، معلنا موافقته على طول الخط ..

واستغرق « هوميه » فى نشوة الشعور بانه صاحب الوليمة .. كما ساعدت صورة « بوفارى » المحزون على سروره ، بطريقة مبهمة .. بتأثير انانى ! .. وما لبث وجود « الدكتور » ان رده إلى الواقع ، وراح يعرض مدى علمه ، متحدثا ـ فى غير ما تناسق ـ عن الذباب الهندى ، والأشجار السامة ، والأفاعى . ثم استطرد قائلا : « بل اننى قرات ان اشخاصا عديدين وجدوا انفسهم يعانون من اعراض التسمم ، وظهر للدهشة البالغة ، ان ذلك نشأ عن خبز تعرض لدخان شديد .. لقد ورد هذا على الأقل فى تقرير جديد بديع ، وضعه واحد من اقطابنا فى الصيدلة ، واحد من اساتذتنا : « كاديه دو جاسيكور » المبرز .. » .

وظهرت مدام « هوميه » مرة أخرى ، تحمل موقدا يشعل

بالكحول الأحمر ، إذ كان « هوميه » يحب أن يعد قهوته على المائدة ، فيحمص البن ، ويصحنه ، ويمزجه بنفسه . وقال مقدما السكر : « سكر يا دكتور ؟ » .·. وتعمد ان ينطق اسم السكر باللاتينية ! .. ثم دعا كل ابنائه إلى الهبوط ، تواقا إلى ان يعرف راى الطبيب فى تكوينهم البدنى .. وإذ هم السيد « لاريفيير » بالانصراف – اخيرا – طلبت مدام « هوميه » رايه فى حال زوجها ، إذ كان يحرص فى كل مساء على أن ينام بعد العشاء ، مما يجعل دمه كثيفا .. فقال الطبيب : « آه ! .. ليس الكثيف هو دمه ! » .. وفتح الباب وهو يبتسم ابتسامة خفيفة للكنتة التى لم ينتبه إليها احد . على ان حانوت الصيدلى كان قد ازدحم بالناس .. وعانى كثيرا حتى تخلص من السيد «توفاش» الذى كان يخشى ان تصاب زوجته بالتهاب الرئتين ، إذ اعتادت ان تقعد على رماد نيران المدفاة .. ثم من السيد « بينيه » الذى يشعر احيانا بنوبات جوع شديد .. ومن مدام « كارون » التى شكت من التهاب فى الجلد ، و « لوريه » المصاب بالدوار ، و « ليستيبودوا » الذى يعانى من روماتيزم ، ومدام « لوفرانسوا » التى شكت من حموضة فى المعدة .. واخيرا ، انطلقت الجياد الثلاثة تجر « لاريفيير » ، واجمع القوم بعد رحيله على انه لم يكن لطيفا !

واسترعى انتباه الجمع ظهور الأب « بورنيسيان » الذى كان يجتاز الميدان حاملا الزيت المقدس .. وشبه « هوميه » القساوسة – وفقا لمبادئه – بالصقور التى تجتذبها رائحة الموت .. كان منظر اى واحد من رجال الدين من الأمور التى لا تروقه ، إذ كان المسوح يذكره بالكفن ، وكان يكره الواحد

منهما خشية ان يجلب له الآخر ! .. ومع ذلك ، فانه لم يحجم عما اسماه « رسالته » ، فعاد إلى دار « بوفارى » بصحبة « كانيفيه » الذى عنى السيد « لاريفيير » – قبل رحيله – بحثه على اداء هذه الزيارة .. ولولا معارضة زوجته ، لاصطحب « هوميه » ولديه الصغيرين ، ليالفا المناسبات الكبيرة ، وحتى يكون هذا لهما درسا .. مثالا .. صورة لحدث يبقى فى ذهنهما طويلا !

وكانت الغرفة – حين ولجاها – مفعمة بوجوم حزين . وعلى نضد التطريز – الذى غطى بمفرش ابيض – كانت ثمة خمس او ست كرات صغيرة من القطن ، فى طبق فضى ، على مقربة من صليب كبير بين شمعتين موقدتين ... وكانت ذقن « ايما » ملصقة بصدرها ، وعيناها مفتوحتين فى اتساع غير عادى ، ويداها الكليلتان تتحركان على الأغطية تلك الحركات الرهيبة ، الخفيفة التى تصدر عن المحتضرين ، وكانهم يودون ان يعجلوا بسحب الأكفان على اجسادهم .. وكانت فى شحوب التمثال ، وعيناها فى حمرة اللهب .. ووقف « شارل » عند مؤخرة السرير ، فى مواجهتها ، وقد كف عن البكاء ، بينما ركع القس على ركبة واحدة ، واخذ يتمتم بكلمات خافتة ..

* * *

● وادارت وجهها فى بطء ، وبدا أن فرحا تولاها حين رات فجاة الجلباب الكهنوتى (البطرشيل) البنفسجى ، إذ وجدت من جديد ولا شك – فى غمرة السكينة غير العادية التى غشيتها – البهجة التى افتقدتها ، والتى تولدت من نزواتها التصوفية الروحية الأولى .. مع رؤى التطويب الأبدى الذى

ابتدا .. فقد نهض القس ليتناول الصليب ، وإذ ذاك ، اشرابت بعنقها كشخص برح به العطش .. والصقت شفتيها بتمثال المسيح — على الصليب — وبكل قواها المضمحلة ، طبعت اعظم قبلة غرامية صدرت عنها فى حياتها . ثم اخذ القس يتلو مزمور الرحمة ، وغمس إبهام يده اليمنى فى الزيت ، وشرع يقوم بعمليات الدهان .. فبدا بالمسح على العينين اللتين غرب عنهما كل زهو دنيوى .. ثم على طاقتى الأنف ، اللتين كانتا تنتشقان فى نهم النسائم الحارة ، واريج الهوى .. ثم على الفم الذى كان ينطق بالأكاذيب ، والذى كان يقلب شفتيه فى غرور ، ويصرخ فى شبق .. ثم على اليدين اللتين كانتا تستمتعان باللمسات الشهوانية .. ثم — اخيرا — على باطنى القدمين اللتين كانتا فيما مضى سريعتين إذا ما هرعتا لارضاء شهواتها ، واللتين لم تعودا تسيران ..

ومسح القس اصابعه — ثم القى بقطعة القطن المبللة بالزيت إلى النار ، وتحول فجلس إلى جوار المراة المحتضرة ، ليوصيها بأن تخلط آلامها بآلام يسوع المسيح، وان تسلم نفسها إلى رحمة الرب .. وإذ فرغ من وصاياه ، ومواعظه ، حاول ان يضع فى يدها شمعة مباركة ، رمزا إلى المجد السماوى الذى لن تلبث ان تحاط به .. ولكن « ايما » فى ضعفها البالغ ، لم تستطع ان تطبق اصابعها ، فكادت الشمعة ان تقع على الأرض لولا ان تدراكها الأب « بورنيسيان » .. على انها لم تعد شديدة الشحوب ، واكتسى وجهها بسكينة مطمئنة ، وكان المسح بالزيت قد شفاها .. ولم يغفل القس ان يشير إلى ذلك ، بل انه راح يذكر لبوفارى ان الرب احيانا يطيل

اعمار الاشخاص إذا راى ذلك ملائما لخلاصهم .. وتذكر « شارل » اليوم الذى تناولت فيه القربان المقدس حين كانت قد اوشكت على الموت ، فعلل نفسه قائلا : « لا داعى لليأس » ..

والواقع ان « ايما » اخذت تجول ببصرها فيما حولها ببطء ، كمن يستقيظ من حلم ، ثم طلبت بصوت واضح مرآتها ، فظلت برهة منحنية عليها ، إلى ان تساقطت من عينيها دموع غزيرة ، فتحولت عنها ، متنهدة ، وتهالكت على الوسائد . وسرعان ما اخذ صدرها يتهدج بسرعة ، وبرز لسانها باكمله من فمها ، وراحت عيناها تزدادان شحوبا ، وهما تجولان فى محجريهما ، كلهب مصباح يحتضر ، حتى لقد كان يخيل للمرء انها ماتت ، لولا الحركة العنيفة التى انتابت ضلوعها بتأثير تنفسها الشاق المتعسر .. كانما كانت الروح تناضل كى تتحرر ..

وركعت « فيليسيتيه » امام الصليب ، وتطلع السيد « كانيفيه » بنظرات شاردة إلى الميدان ، وشرع «بورنيسيان» فى الصلاة من جديد ، وقد انحنى وجهه على السرير ، وانتشر مسوحه الأسود خلفه فى الحجرة .. وكان « شارل » جاثيا فى الجانب الآخر من السرير ، باسطا ذراعيه نحو « ايما » ، وقد تناول يديها واخذ يضغطهما، مرتجفا لكل خفقة من قلبها، وكانه يرتعش لخراب منقض .. وإذ اشتدت حشرجة الموت ، ازداد إسراع القس فى صلاته .. واخذت دعواته تمتزج بشهقات « بوفارى » المكتومة . وكان كل شىء يغيب احيانا فى التمتمة المختنقة بالمقاطع اللاتينية التى بدت كاصداء متلاشية لجرس

.. وفجاة ، سمعت على رصيف الشارع جلبة نعلين خشبيين ، ودقات عصا . وانبعث صوت .. صوت مبحوح يغنى : « العذارى فى قيظ أيام الصيف يحلمن بالحب .. والحب دائما » .. ورفعت « ايما » جسمها وكأنها جثة سرت فيها نسمة عابرة من الحياة ، وقد تهدل شعرها ، وجمدت عيناها محملقتين .. بينما واصل صوت المغنى الذى يتسكع فى الشارع غناءه المبحوح : « لكى تجمع سريعا .. السنابل التى حصدها المنجل .. سارت حبيبتى نانيت ، منحنية نحو الأرض التى منحتنا اياها » .. وصاحت « ايما » : « الأعمى ! » .. ثم انطلقت فى ضحكات نابية ، متهوسة ، قانطة .. وهى تتمثل الوجه البشع الذى أوتيه ذلك التعس المسكين ، وقد انتصب فى الظلمات الأبدية كنذير بالشؤم .. بينما كان الرجل ماضيا فى اغنيته : « كانت الريح تهب قوية فى ذلك اليوم .. فطارت « الجونلة » القصيرة ! » .. وتهالكت « ايما » على الفراش .. واختلج جسمها .. واقتربوا جميعا منها .. ولكنها كانت قد فارقت الحياة !

الفصل التاسع

● يعقب وفاة اى امرىء — عادة — نوع من الذهول ، يتعذر معه ادراك هذا العدم الوافد ، وحمل النفس على تصديقه .. على أن « شارل » لم يكد يتبين أن « ايما » لم تعد تتحرك ، حتى ألقى بنفسه عليها صائحا : « وداعا ! استودعك الله ! .. وجره « هوميه » و « كانيفيه » إلى خارج الغرفة قائلين : « تجلد ! » .. فقال : « نعم ، ساكون هادئا ، ولن

افعل شيئا .. الا اتركانى ! .. اريد أن اراها ! .. انها زوجتى ! » .. واخذ يبكى ، فقال الصيدلى : « ابك .. دع نفسك على فطرتها ، فان هذا يسرى عنك ! » .. وتركهما يقودانه إلى قاعة الجلوس وقد غدا اضعف من طفل . وما لبث السيد «هوميه» أن انصرف . والتقى فى الميدان بالأعمى الذى تلمس طريقه إلى (ايونفيل) أملا فى الحصول على البلسم الذى يقضى على الالتهاب ، وراح يسأل كل مار عن مسكن الصيدلى، فقال هذا له : « الا اغرب الآن ! .. كأننى لا اجد مشاغل سواك ! .. الا دعنى الآن ، وعد فيما بعد ! » .. ثم ولج الصيدلية على عجل . كان عليه أن يكتب رسالتين ، وان يعد جرعة مهدئة لبوفارى ، وأن ينسج اكذوبة للتستر على التسمم، ويصوغ النبأ فى مقال لصحيفة « الفانال » ، غير حافل بالأشخاص الذين كانوا فى انتظاره ليتلقوا منه النبأ . وعندما استوثق من ان أهل (ايونفيل) جميعا سمعوا قصته عن الزرنيخ الذى ظنته « ايما » سكرا ، وهى تصنع « كريمة بالفانيليا » عاد مرة أخرى إلى « بوفارى » .. فالقاه وحيدا — إذ كان السيد كانيفيه قد انصرف — جالسا فى مقعد مريح إلى جوار النافذة ، محملقا بذهول فى بلاط الحجرة .. فقال الصيدلى : « يجب ان تحدد الآن ، وبنفسك، موعد الطقوس » .. فتساءل : « ماذا ؟ .. اية طقوس ؟ » ، ثم استدرك فى لهجة متلعثمة ، جزعة : « اواه ! لا ! .. ليس هذا .. لا ! .. اننى أحب أن اراها هنا » ..

ولكن يتمالك « هوميه » نفسه ، تناول إبريقا من الرف ليروى زهور « الجيرانيوم » فقال « شارل » : آه ! شكرا ..

ما اطيبك !» .. ولكنه لم يقو على اتمام عبارته ، إذ اختنق صوته تحت فيض الذكريات التى احياها فى ذهنه تصرف الصيدلى .. وإذ ذاك رأى « هوميه » — ليشغله عن هذه الذكريات — ان يتحدث قليلا عن فلاحة البساتين ، فأنواع النبات تحتاج إلى بعض الرطوبة .. ونكس « شارل » رأسه فى موافقة صامتة .. وما لبث الصيدلى ان قال : « إن الأيام البديعة لن تلبث ان تأتى ! » .. فقال «بوفارى» : «آه !» .. إذ نضب معين الصيدلى ، عمد إلى ازاحة الستائر الصغيرة فى لطف عن الواح الزجاج ، ثم قال : « ها هو ذا السيد توفاش فى الطريق » ، فردد « شارل » كالآلة : « السيد توفاش فى الطريق » ..

ولم يجرؤ « هوميه » على ان يحدثه ثانية عن اجراءات الجنازة .. وكان رجل الدين هو الذى هيأه لتقبلها ، فاحتبس نفسه فى غرفة العيادة ، وتناول ريشة الكتابة ، وبعد ان بكى فترة ، كتب : « ارغب فى ان تدفن فى ثوب عرسها ، وحذاءين ابيضين ، وطاقة ورد . .وان ينشر شعرها على كتفيها .. وفى ثلاثة توابيت : احدها من خشب البلوط ، والثانى من الموجنى ، والثالث من القصدير .. ولا يقولن احد لى شيئا ، فلن البث ان استرد قواى .. ولتوضع — قبل كل شىء — على قطعة كبيرة من المخمل الأخضر .. هذه رغبتى ، فلتنفذ ! » .

وذهل السيدان للأفكار الشاعرية التىابداها «بوفارى» ، فبادر الصيدلى إليه قائلا : « يبدو لى ان المخمل زيادة لا داعى لها .. ثم إن النفقات .. » فصاح « شارل » : « وهل يعنيك هذا ؟ .. دعنى ! .. انك لم تكن تحبها .. اخرج ! » . وتأبط

القس ذراع شارل وخرج به إلى الحديقة يتمشيان . وراح يحدثه عما فى المظاهر الدنيوية من لغو باطل ، وعن أن الله كبير ، ورحيم ، فخليق بالانسان أن يتقبل قضاءه دون ما تذمر ، لا بل بالشكر والحمد .. فانفجر « شارل » مجدفا : « اننى اكره إلهك ! » .. وتنهد رجل الدين قائلا : « لا تزال روح التمرد مسيطرة عليك ! » .. وكان « بوفارى » قد ابتعد ، وراح يسير بخطى واسعة ، فى محاذاة الجدار ، على مقربة من الخميلة ، وهو يصر على اسنانه ، ويرفع بصره إلى السماء بنظرات ساخطة ، ولكنها لم تحرك ورقة واحدة فى شجرة ! .. وتساقط المطر رذاذا ، فلم يلبث « شارل » — الذى كان عارى الصدر — ان اخذ يرتجف ، ودخل الدار ، فجلس فى المطبخ .. حتى إذا كانت الساعة السادسة ، سمعت ضوضاء ، كقطع من حديد تصطك .. كانت « العصفورة » عائدة . .وظل واقفا امام زجاج النافذة ، يشهد نزول الركاب واحدا بعد آخر ، ثم فرشت له « فيليسيتيه » حشية فى قاعة الجلوس ، فارتمى عليها ، ونام ..

* * *

● كان « هوميه » يحترم الموتى ، رغم فلسفته ، ومن ثم لم يحقد على « شارل » ، بل عاد ثانية فى المساء ، ليسهر إلى جوار الجثة ، حاملا معه ثلاثة كتب ، ومفكرة ليدون فيها ما يعن له . وكان الأب « بورنيسيان » هناك ، وقد اقام عند رأس السرير شمعتين كبيرتين موقدتين ، استجلبتا من مخزن الدار . ولم يلبث الصيدلى — الذى لم يكن ليحتمل الصمت — ان شرع يصوغ بعض عبارات الرثاء لتلك « الشابة المنكودة » ، فاجاب

القس بأنه لم يبق ما يفعل من اجلها سوى الصلاة ! .. فقال «هوميه» : « أحد امرين : إما انها ماتت وهى مستمتعة بالعفو الربانى ــ كما تقول الكنيسة ــ وفى هذه الحال لا حاجة بها إلى صلواتنا .. وإما انها رحلت حاملة خطاياها ــ واظن ان هذا ايضا هو التعبير الدينى ــ وفى هذه الحال .. » فقاطعه « بورنيسيان» قائلا فى جفاء إن هذا لا يحول البتة دون الصلاة .. ومضى الصيدلى فى معارضته ! « ولكن، ما دام الله يعلم كل حاجاتنا ، فما جدوى الصلاة والدعاء ؟ » فصاح رجل الدين : « كيف ! .. الصلاة ! .. أو لست إذن مسيحيا ؟ » .

قال هوميه : « عفوا ! .. اننى اكبر المسيحية ، فهى اولا قد حررت الرقيق، وادخلت على الدنيا قانونا خلقيا .. ».

ــ ليس هذا موضوع النقاش .. كل الكتب الدينية ..

ــ آه ! .. آه ! .. أما من كتب الدين ، فارجع إلى التاريخ .. من المعروف انها زيفت على ايدى الجزويت ..

ودخل «شارل» ، فتقدم صوب السرير ، وازاح الستائر فى بطء .. كان راس « ايما » مائلا صوب كتفها اليمنى ، وقد بدا ركن فمها ــ الذى كان مفتوحا ــ كثغرة سوداء فى القسم السفلى من وجهها .. وكانت اصبعاها السبابتان مطويتين فى راحتيها ، وقد تناثر على اهدابها شىء من غبار ابيض ، وبدأت عيناها تغيبان فى تلك الطبقة الشاحبة اللزجة المائعة التى رانت عليهما ، وكأنها نسيج العنكبوت .. وكان الغطاء ينخسف فيما بين صدرها وركبتيها ، ثم يعلو فوق اصابع قدميها .. وخيل لشارل ان كتلا لا نهاية لها . .ان حملا ثقيلا كان يجثم عليها ..

ودقت ساعة الكنيسة معلنة الثانية .. وكان بوسعهم ان يسمعوا خرير النهر المنساب فى الظلام ، عند اقصى الحديقة .. واخذ الأب « بورنيسيان » يمخط بين آن وآخر ، بصوت مسموع .. وصرير قلم « هوميه » على الورق ينبعث .. وقال اخيرا : « هيا يا صديقى الطيب ! انصرف فان هذا المنظر يفتت كبدك ! » . وما إن انصرف « شارل »، حتى استأنف الصيدلى والقس نقاشهما .. قال احدهما : « اقرأ فولتير .. اقرأ دولباش .. اقرأ دائرة المعارف ! » ، فقال الآخر : « بل اقرأ رسائل بعض اليهود البرتغاليين » .. اقرأ « معانى المسيحية » بقلم نيكولا .. المأمور القضائى السابق » . واشتد الجدل حرارة واحتداما ، واخذا يتكلمان معا ، دون أن ينصت أحدهما للآخر .. وكان « بورنيسيان » يستنكر هذه الجراة .. و « هوميه » فى دهشة من هذا الغباء .. وأوشكا أن يسب كل منهما الآخر ، وإذا بشارل يظهر فجأة ، كأنما كان ثمة سحر يجتذبه .. فكان كلما غادر المخدع لا يلبث ان يعود إليه ..

* * *

● وقف « شارل » فى الطرف المقابل لها ، ليراها بجلاء .. واستغرق فى افكار نسى فى عمقها الألم .. تذكر قصص داء التصلب ، ومعجزات الاستهواء المغناطيسى ، فخيل إليه أنه ربما وفق إلى إحيائها من جديد ، لو انه ركز كل قواه فى هذه الرغبة .. بل لقد انحنى مرة نحوها ، وناداها بصوت خافت : « ايما ! ايما ! » .. وكانت انفاسه القوية تدفع لهب الشمعتين نحو الحائط ..

ووصلت مدام « بوفارى » الأم مع مطلع النهار ، وما إن

احتضنها « شارل » حتى انفجر بسيل جديد من الدموع . . وحاولت ـ كما حاول الصيدلى من قبل ـ ان تعلق على نفقات الجنازة ، فاذا به يغضب إلى درجة جعلتها تصمت . . بل انه اوفدها إلى المدينة فورا لتبتاع ما كان لازما . . وبقى وحيدا طيلة عصر ذلك اليوم ، إذ كانت « بيرت » قد حملت إلى دار « هوميه » ، بينما لاذت «فيليسيتيه» ـ مع الأم « لوفرانسوا » ـ بالحجرة فى الطابق العلوى . . وفى المساء ، وفد إليه بعض الزوار ، فنهض وصافحهم وهو عاجز عن الكلام . ثم جلسوا متقاربين مؤلفين نصف دائرة أمام المدفأة ، بوجوه منكسة ، وقد راح كل منهم يؤرجح احدى ساقيه على ركبة الساق الاخرى ، وهو يرسل الزفرات الحرى على فترات . . كان كل منهم يشعر بسأم غير معهود ، ومع ذلك فلم يشأ اى منهم ان يكون الأول فى الانصراف . .

وعندما عاد « هوميه » فى الساعة التاسعة ـ ولم يكن يشاهد سواه فى الميدان منذ يومين ـ كان مثقلا بكميات من الكافور ، والبنزين ، والأعشاب العطرية . . كما كان يحمل جرة مليئة بماء الكلور ، للتخلص من اية رائحة عفنة . . وكانت الخادم ، ومدام « لوفرانسوا » ، والام « بوفارى » يتحركن حول «ايما» وهن يلبسنها آخر ثيابها . .ثم نشرن عليها خمارا من قماش متيبس ، غطاها من راسها حتى آخر حذاءيها الحريريين . . وكانت « فيليسيتيه » تردد منهنهة : « اواه ، يا سيدتى المسكينة ! يا سيدتى المسكينة ! » . . فتنهدت ربة الفندق قائلة : « الا انظرا إليها . . انها لا تزال جميلة ! . . من ذا الذى لا يقسم على انها لن تلبث أن تهب ناهضة بعد

دقيقة ! » . . ثم انحنين عليها ليضعن اكليل الزهور . . واضطررن إلى ان يرفعن راسها قليلا ، وإذا بسائل اسود ينساب من فمها ، وكأنها تتقيأ . . وصاحت مدام «لوفرانسوا» : « آه ! يا الهى ! . . حذار ان يتسخ الثوب ! » . . وقالت للصيدلى : « تعال لتساعدنا ! ام تراك خائفا ؟ » . . فهز كتفيه قائلا : « انا اخاف ؟ . . آه ! . . صحيح ! ؟ . . لقد شهدت الكثير فى المستشفى حين كنت ادرس الصيدلة ! . . لقد كنا نصنع شرابا مسكرا فى قاعة التشريح . . إن العدم لا يخيف فيلسوفا . . بل اننى ـ كما اعتدت أن اقول ـ اعتزم ان اوصى بجثتى للمستشفيات ، لتكون ـ فيما بعد ـ فى خدمة العلم ! » .

وإذ وصل القس سأل عن صحة السيد ، وما إن اجابه الصيدلى حتى قال : « لعلك تدرك ان الصدمة لا تزال قريبة العهد » . . إذ ذاك غبطه الصيدلى على انه ليس معرضا كسواه لفقد شريكة الحياة الحبيبة ، وتبع ذلك نقاش حول عزوبة القساوسة . . فقال الصيدلى : « الواقع ان من المجافاة للطبيعة ان يعيش القس بدون امرأة ! كم من جرائم . . » فصاح رجل الدين : « ولكن ، كيف بالله تتوقع من قس متزوج ان يصون اسرار الاعتراف مثلا ؟ » . . فهاجم « هوميه » الاعتراف ، وانبرى « بورنيسيان » للدفاع عنه ، متوسعا فى سرد آثار الاصلاح والارشاد التى تترتب على الاعتراف . . وذكر قصصا مختلفة عن لصوص انقلبوا فجأة رجالا امناء . . وعن رجال عسكريين انقلبت القيم والمقاييس فى نظرهم منذ مثلوا أمام محكمة التوبة . . « ففى (فريبور) مثلا ، كان ثمة وزير » . . وتبين القس فجأة أن زميله قد نام . . ثم لم يلبث ان

احس انه يوشــــك ان يختنق فى جـــو الحجرة الراكد ، ففتح النافذة ، وإذ ذاك استيقظ الصيدلى فقال له : « اليك قبضة من السعوط .. خذها فانها تنعشـــك » ! .. وسمع نبـــاح متواصل عن بعد ، فقال الصيدلى : « اتسمع كلبا يعـــوى ؟ » .. فقال القس : « يقال إن الكلاب تشم رائحة الموتى .. انها كالنحل تترك خلاياها عند وفاة الأشخاص » ..

* * *

● لم يعلق « هوميه » على هذه الترهات ، إذ كان قد عاد للنعاس .. اما السيد « بورنيسيان » فكان اقوى منه احتمالا ، ومن ثم ظل بعض الوقت يحرك شـــفتيه فى تمتمة خفيفـــة ، وما لبث — دون ما شعور منه — أن خفض ذقنه ، وافلت كتابه الأسود الضخم ، وشرع يغط .. وكانا يجلسان متقابلين ، وقد برز بطناهما ، وانتفخ وجهاهما ، وعبست أساريرهما ، وقـد وحد بينهما — بعد كل هذه الخلافات — نوع واحد من انـــواع الضعف البشرى ، ولم يعودا يتحركان ، تمامـــا كالجثة التى كانت إلى جوارهما ، والتى لاحت هى الأخـــرى نائمة .. ولم يوقظهما دخول « شارل » .. وكانت هـــذه آخر مرة ، فاقبل يودعها .. وكانت الأعشاب العطرية لا تزال تحترق ، ودخانها المائل إلى الزرقة ، والمتصاعد فى خيوط حلزونية ، يمتزج عند حافة النافذة بالضباب الوافد .. وكانت ثمة نجـــوم قلائل .. والليل لطيف الجو .. والشمع الذائب يســـيل من الشمعتين متساقطا على اغطية الفراش فى قطـــرات كبيرة .. وتأملهما « شارل » وهما تحترقان ، حتى غشى بصره لطول تحديقه فى لهبهما الأصفر ..

وكانت تموجات الثوب الحريرى تلمع بيضاء كضوء القمر ، وقد اختفت « ايما » تحت وميضها ، فلاح له انها إذ تحررت من كيانها ، قد امتزجت بكل شىء حولها .. بالسكون ، وبالليل ، وبالهواء العابر ، وبعبير الرطوبة المتصاعدة من الأرض .. ثم راح يتمثلها بغتة فى حديقة دارهما فى(توست)، على مقعد خلف السياج الشوكى .. او فى (روان) ، فى الطرقات او على عتبة دارهما فى الفناء فى (برتو) .. وخيل إليه انه يسمع ضحكات الأولاد السعداء يرقصون تحت اشجار التفاح فرحين ، وقد امتلأت الغرفة بأريج شعرها ، واحتك ثوبها بذراعيه فى حفيف بعث فى كيانه مسا كهربائيا (كما حدث ليلة الزفاف).. إنه عين الثوب الذى ترتديه الآن ! .. وهكذا ظل فترة طويلة يستعرض افراحه الضائعة ، وتصرفاتها ، وحركاتها ، وجرس صوتهـــا .. وكل اسى يعقبه آخر ، متتابعة ، لا تكف ولا تهن ، كأنهـــا امواج بحر مزبد .. وتولته رغبة قاسية ، فرفع الوشـــاح فى بطء ، باطراف اصابعه ، وهو يلهث . .ولكنه سرعان ما اطلق صرخة ايقظت الآخرين .. وجـــرى إلى قاعـــة الجلوس .. وسرعـــان ما جاءت « فيليسيتيه » تقول انه يريد بعضـــا من شعرها .. فقال لها الصيدلى : « قصى بعضه ! » .

ولما لم تجرؤ ، تقدم بنفســـه والمقص فى يده .. وكان يرتجف حتى انه شق جلد الجبهة فى عدة اماكن .. واخيرا ، قاوم « هوميه » مشاعره ، واقتطع خصلتين او ثلاثا على غير هدى ، فتركت رقعا بيضـــاء خـــلال هـــذا الشعر الفـــاحم الجميل ..

* * *

● وعاد الصيدلى والقس يستغرقان فى حوارهما ، وان لم يحل هذا دون أن ينعسا بين آن وآخر ، وكل منهما يتهم بالآخر بالنعاس كلما استيقظ هو ، على التوالى ! .. ثم نثر السيد « بورنيسيان » الماء المقدس فى الحجرة ، فنثر «هوميه» بعض من ماء الكلور على الأرض ! .. وكانت « فيليسيتيه » قد عنيت بأن تضع كل منهما على صوان الملابس الداخلية زجاجة « براندى » ، وبعض الجبن ، ورغيفا كبيرا ، فتنهد الصيدلى — الذى لم يعد يحتمل الجوع — فى حوالى الساعة الرابعة من الصباح ، وقال : « لعمرى ! اننى لأسر بتناول (تصبيرة) » .. ولم يحتج القس إلى الحاح . ولكنه خرج لصلاة الصباح ، ثم عاد ، وإذ ذاك اكلا ، وشربا ، وهما يضحكان قليلا ، دون ان يدريا لذلك سببا ، وإنما حملتهما على الضحك تلك الغبطة المبهمة التى تتولانا بعد فترات الحزن .. وعند الكاس الأخيرة ، قال القس للصيدلى وهو يضربه على كتفه : « لسوف ننتهى إلى تفاهم ! » .

وفى ردهة الطابق السفلى ، التقيا باعوان ناقل الموتى ، الذين وصلوا إذ ذاك . وما لبث شارل ان قضى ساعتين يعانى العذاب وهو يسمع المطرقة تدق الخشب . وفى النهار الذى تلا ذلك ، وضعوا الجثة فى التابوت البلوطى ، الذى هيىء ليوضع فى التابوتين الآخرين . وإذ كان التابوت الخارجى واسعا ، فقد اضطروا إلى ان يملأوا الفراغ بصوف من حشو احدى الحشيات .. وإذ سحجت الأغطية الثلاث بالمسحاج (الفارة) ، ووضعت فوق التوابيت ، وثبتت بالمسامير ، ولحمت بالقصدير ، حملت التوابيت إلى خارج الغرفة .. ثم فتح البيت ، فبدا اهل (ايونفيل) يتدفقون ..

وما لبث الأب « روو » — والد « ايما » — ان وصل .. . فاغمى عليه فى الميدان حين راى اشارة الحداد السوداء .

الفصل العاشر

● لم يكن قد تسلم رسالة الصيدلى الا بعد انقضاء ست وثلاثين ساعة على الوفاة .. وكان السيد «هوميه» — ترفقا بمشاعره — قد صاغها بحيث يتعذر عليه ان يدرك حقيقة الأمر .. ومع ذلك ، فان الشيخ المسن وقع فى بداية الأمر . وكأنما اصيب بالسكتة القلبية .. وعندما قرأ الرسالة ثانية ، فهم ان ابنته لم تمت ، ولكنها ربما كانت موشكة .. واخيرا ، استطاع ان يرتدى قميصه، وأن يتناول قبعته، ويثبت المهازين إلى حذائيه ، ثم انطلق على جواده فى اقصى سرعة. وكان الأب « روو » طيلة الطريق نهبة للهواجس ، يلهث ، بل لقد اضطر مرة إلى ان يترجل إذ غشيه دوار ، وخيل إليه انه سمع اصواتا حوله ، فخشى ان يكون موشكا على الاختبال .

وإذ طلع النهار ، راى ثلاث دجاجات سوداء نائمة فوق احدى الأشجار ، فارتجف منزعجا من هذا النذير المشئوم . ثم نذر للعذراء المباركة ثلاث حلل من ثياب الكهنة للكنيسة ، وان يسير حافيا من مقبرة (برتو) إلى كنيسة (فاسونفيل) .. وإذ دخل قرية (ماروم) راح يصيح فى اهل فندقها ، ودفع الباب بكتفه فانفتح ، ثم انقض على كيس من الشوفان لجواده ، وافرغ له زجاجة من شراب التفاح الحلو فى المذود . وما لبث ان عاد يمتطى الحصان الذى اخذ الشرر يتطاير تحت سنابكه .

وراح يعلل نفسه بانهم ولا بد سينقذون ابنته ، وان الأطبـاء سيهتدون إلى دائها بالتأكيد .. وتذكر كل المعجزات العلاجية التى كانت تحـكى له .. ثم تمثلهـا امـامه ميتـة .. كانت موجودة ، تحت عينيـه ، مسـتلقية على ظهرهـا فى عرض الطريق ، فشد عنان جواده .. وإذا الطيف يختفى !

واحتسى فى « كينكامبوا » ثلاثة اقداح من القهوة تباعا ، كى يشدد عزمه .. وصور له الوهم انهم اخطأوا فى الاسم الذى كتبوه ، فبحث عن الرسالة فى جيبه ، وتحسسـهـا ، ولكنه لم يجرؤ على فتحها .. واخذ يفكر ـ اخيرا ـ فى ان الأمر كله مزاح .. وسيلة من شخص ما للانتقام .. او دعابة من سمج .. ولو انها كانت قد ماتت ، لعرف .. ولكن ، لا ! .. لم يكن فى الريف شىء غير عادى .. فالسماء زرقاء ، والأشجار تتمايل .. ومر بقطيع من الغنم .. ثم لمح البلدة .. وشوهد مقبلا وقد انحنى على جواده ، يكيل له الضربات بعصـاه ، والدم يقطـر من سيور ركابه ..

* * *

● وإذ عاد إلى وعيه ، سقط بين ذراعى « بوفـارى » باكيا ، وهو يردد : « يا ابنتى .. ايمـا ! .. يا طفلتى ! .. ارو لى ما حدث .. » فاجابه الآخر منهنها بالبكـاء : « لست ادرى ! لست ادرى ! .. انهـا نقمة ! » .. وفرق بينهمـا الصيدلى قائلا : « هذه التفصيلات المؤلمة لا تجدى . سأطلع السيد على كل شىء .. اما الآن ، فها هم اولاء القوم مقبلون .. شيئا من الوقار ! .. هيا ! .. شيئا من الفلسـفة ! » .. فحاول « شارل » المسكين ان يتجلد ، وراح يكرر مرارا :

« اجل ! .. الجلد ! .. الشجاعة ! » .. اما الشيخ فصاح : « آه ! .. ساتجلد ! .. سارافقها حتى النهاية ! » .

وبدا جرس الكنيسـة يدوى .. وتأهب الجميع ، إذ آن لهم ان يشيعوها .. وفى الكنيسـة ، جلسوا جنبا إلى جنب فى إحدى المقصورات .. وراوا المرتلين الثلاثة ـــ الذين اخذوا يرددون المزامير ـ يمرون امامهم جيئة وذهابا باستمرار ، وراح الأرغن يرسل انغامه باقصى قوته .. وكان الأب «بورنيسيان» فى كامل زيه يرتل بصوت حاد ، ويحيى بيت القربان المقدس ، ويرفع يديه ، ويبسط ذراعيه .ـوراح « ليستيبودوا » يطوف بالكنيسة حاملا عصاه المصنوعة من عظام الحوت . وكان التابوت قد وضع على مقربة من منبر قراءة الكتاب المقدس ، بين اربعة صفوف من الشموع .. واحس «شارل» برغبة تحفزه على ان ينهض فيطفئها . وحاول ان يشغل نفسه فى تلك الأثناء ، بإذكاء الشعور بالتقوى فى نفسه ، وان يستغرق فى الأمل فى حيـاة مقبلة يجتمع فيها بإيما ثانية .. واخذ يصور لنفسـه انهـا سافرت فى رحلة طويلة ، بعيدة ، لأمد طويل .. ولكنه كان إذا ما تذكر انها موجودة هنـاك ، وان كل شىء قد انقضى ، ولن يلبثوا ان يغيبوها فى الأرض ، تولاه سخط مهتـاج ، حزين ، يائس .. وكان احيانا يخال انه لا يشعر بشىء على الاطلاق ، فيستمرىء فتور ضناه هذا ، ويروح ـــ فى الوقت ذاته ـــ يلوم نفسه !

وسمع على البلاط وقع عصا ذات نهاية حديدية ، تدق الأرض فى فترات متسـاوية ، منسـابة من الطـرف الأقصى للكنيسة ، وما لبثت ان توقفت عنـد نهاية مقاعد المصلين ..

وركع فى عناء ، رجل فى سترة بنية خشنة .. كان «هيبوليت» سائس « الفندق الذهبى » .. وقد استخدم ساقه الجديدة .

ودار احد الشمامسة يجمع التبرعات ، فاخذت قطع العملة النحاسية يرتطم بعضها ببعض على الصفحة الفضية . وصاح « بوفارى » مغضبا وهو يلقى إليه بقطعة من فئة الفرنكات الخمسة : « الا اسرع ، فاننى اتعذب ! » .. فشكره رجل الكنيسة بانحناءة طويلة .. وانشدوا ، وركعوا ، ثم وقفوا .. كأنما هذه الطقوس لا تنتهى! .. وتذكر انه و «ايما» حضرا الصلاة فى هذه الكنيسة مرة ـ فى باكورة استقرارهما فى القرية ـ وانهما جلسا فى الجانب الآخر ، إلى اليمن ، بجوار الحائط .. وشرع الجرس يدوى من جديد ، وانبعثت جلبة من المقاعد .. ودفع حاملو التابوت عصيهم الثلاث تحته .. وغادر كل امرىء الكنيسة .

وظهر « جوستان » إذ ذاك لدى باب الحانوت ، ثم دخل ثانية ، فجاة ، وهو يترنح ، وقد شحب وجهه .. وكان الناس فى النوافذ يشهدون الجنازة ، وقد سار « شارل » فى المقدمة منتصب القامة ، متظاهرا بالجلد ، محييا بهزة من راسه أولئك الذين كانوا يخرجون من الحوارى ، ويقفون وسط الجمع .. وإلى جانبى التابوت ، سار ستة رجال ـ ثلاثة إلى كل جانب ـ فى خطى وئيدة ، لاهثين قليلا .. وكان القساوسة ، والمرتلون ، واثنان من الشمامسة يرددون الكلمات الأولى من مزمور الرحمة (المزمور ١٣٠) ، فتتردد أصواتهم فوق الحقول ، مرتفعة ومنخفضة فى تماوج . وكانوا احيانا يتوارون فى منعرجات

الطريق ، ولكن الصليب الفضى الكبير كان يظهر دائما بين الأشجار .

وكانت النساء يسرن بعد هؤلاء ، فى معاطف سوداء ، ذات قلنسوات مقلوبة ، وقد حملت كل منهن فى يديها شمعة كبيرة موقدة .. واحس «شارل» بقواه تزداد وهنا لاستمراره فى ترديد الصلوات ، وبسبب اللهب ، ورائحة الشمع الطاغية ، ومسوح الرهبان . واخذت نسمة عليلة فى الهبوب .. وكانت نباتات الجويدار واللفت مخضوضرة ، وعلى الأسيجة الشوكية ـ على حافة الطريق ـ كانت قطرات الندى المحمرة ترتجف .. وكانت كافة الأصوات المرحة تملأ الهواء .. قعقعة عربة تجرى بعيدا ، فى الأخاديد ، وصياح ديك اخذ يتردد مرارا ، وصهيل فرس صغيرة ترتع تحت اشجار التفاح .. وكانت السماء الصافية موشاة بسحب وردية ، وعلى الأكواخ المغطاة بالسوسن ، ران ضباب ضارب للزرقة .. وكان « شارل » وهو مار بافنية الدور يتعرف على كل منها .. وتذكر اياما كان يعود فيها من زيارة أحد مرضاه فى صباح كهذا ، فيمر بهذه الدور فى طريقه .. إليها !

وكان الغطاء الأسود ، الموشى بالخرز الأبيض ، يطير من مكانه ـ بين وقت وآخر ـ فيكشف التابوت .. وتباطأ حاملو التابوت وقد تعبوا ، فكان التابوت يتقدم فى هزات مستمرة ، كسفينة ترتج على كل موجة .. ووصلوا إلى المقبرة ، فيمم الرجال مباشرة إلى مكان بين الحشائش حفر فيه قبر . واصطفوا حوله ، وبينما كان القس يتكلم ، كانت التربة الحمراء المكومة على جوانب القبر تنهار عند الأركان .. حتى إذا اعدت

الحبال الأربعة ، وضع التابوت عليها .. وراقبه وهو يهبط ، وخيل إليه انه سيظل يهبط إلى الأبد ، ثم سمع صوت ارتطام، وأزيز انبعث عن احتكاك الحبال وهى تشد إلى أعلى .. وما لبث «بورنيسيان» ان تناول المعول الذى اسلمه له « ليستيبودوا »، وبينما كانت يده اليسرى لا تكف عن نثر الماء ، اهالت اليد اليمنى كومة كبيرة من التراب بقوة ، فلما ارتطم الحصى بخشب التابوت ، سمع ذلك الصوت الرهيب الذى يلوح لنا كنبرات الأبدية !

وناول القس ناثرة الماء المقدس إلى جاره ، وكان السيد هوميه ، فهزها فى وجوم ، ثم ناولها إلى « شارل » الذى جثا على ركبتيه فى التراب ، وملأ يده بالماء يلقيه صائحا : « استودعك الله ! » .. وبعث إليها بقبلات ، ثم جر نفسه إلى القبر ، ليدفن نفسه معها .. ولكنه حمل بعيدا ، ولم يطل به الوقت حتى هدأ ، ولعله شعر كالآخرين ، بارتياح مبهم إذ انتهى كل شى .. اما الأب « روو » فقد مضى — فى عودته — يدخن غليونه فى هدوء ، الأمر الذى جعل « هوميه » يحس — فى اعماق نفسه — بانه لا يناسب المقام .. كما لاحظ ان السيد « بينيه » لم يكن حاضرا ، وان « توفاش » قد تسلل بعد القداس ، وان « تيودور » — خادم موثق العقود — كان يرتدى سترة زرقاء .. « كانما ليس بوسع المرء أن يحصل على سترة سوداء ، ما دامت هذه هى التقاليد .. يا للشيطان ! » .. ولكى يشرك الآخرين فى ملاحظاته ، راح يتنقل من جماعة إلى اخرى .. كانوا آسفين على موت «ايما» ، لا سيما « لوريه » الذى لم يفته حضور الجنازة ، والذى راح يقول : « يا للشابة

المسكينة ! .. ما اشد الم زوجها ! » .. فقال الصيدلى : « هل تعلم انه لولاى لاقدم على محاولة خطرة لنفسه ؟ » .
— ما كان اطيبها من امراة ! .. من يصدق اننى رايتها يوم السبت الماضى ، فقط ، فى متجرى ؟
قال الصيدلى: «لم اجد وقتا لانظم كلمة القيها على قبرها» .

* * *

● ما ان ولج «شارل» داره حتى بادر إلى خلع ثيابه .. اما الأب « روو » ، فقد عاد إلى ارتداء قميصه الازرق ، وكان جديدا . ولما كان قد جفف دموعه به مرات كثيرات اثناء الرحلة ، فقد تركت الصبغة أثرا على وجهه ، كما تركت الدموع خطوطا بين طبقات التراب التى تراكمت عليه ..

وكانت مدام « بوفارى » الأم معهما . وساد الصمت ثلاثتهم . واخيرا ، تنهد الشيخ قائلا : « اتذكر يا صديقى اننى زرتك مرة فى (توست) عقب فقدك زوجتك الأولى ؟ .. لقد واسيتك إذ ذاك .. وجدت ما أقوله ! .. اما الآن .. » وفى أنين عال هز صدره ، قائلا : « آه ! .. هذه نهايتى .. اترى ؟ .. لقد شهدت رحيل زوجتى .. وابنى بعدها .. وها هى ذى ابنتى اليوم ! » .. ورغب فى ان يعود توا إلى (برتو) قائلا انه لا يقوى على المبيت فى هذا البيت .. كما رفض ان يرى حفيدته ، قائلا : « لا ، لا ! . .ان هذا يسبب لى حزنا بالغا ! .. ساكتفى بأن تقبلها كثيرا عنى ! .. وداعا ! .. انك ولد طيب ! .. ثم اننى لن انسى قط هذا » .. وربت فخذه ، وقال: « لا تبتئس ! .. ستتلقى دائما الديك الرومى ! » .

ولكن ما ان بلغ قمة التل ، حتى التفت وراءه ، كما التفت

مرة من قبل ، فى طريق (سان فيكتور) حين ودعها وهى ترحل مع زوجها .. وكانت نوافذ القرية تعكس اشعة الشمس الغاربة وراء الحقول ، فتلوح وكأن النار شبت فيها .. ووضع يديه على عينيه ، فراى عند الأفق سدا من الجدران ، وقد قامت الأشجار هنا وهناك ، كأنها عناقيد سوداء بين الأحجار البيضاء .. وما لبث أن واصل سيره فى خطوة معتدلة ، إذ كانت دابته قد اصيبت بعرج ..

* * *

● ظل « شارل » وامه ساهرين طويلا يتكلمان ، فى تلك الليلة ، رغم تعبهما .. تحدثا عن ايام الماضى ، وعن المستقبل .. لقد عولت على أن تاتى فتقيم فى (ايونفيل) ، تعنى ببيته ، ولا يضرب بينهما فراق قط .. كانت لبقة ، لطيفة ، وقد ابتهجت فى قرارة نفسها إذ استردت ثانية ذلك الحب الذى ضل عنها سنوات عديدة .. ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل ، والقرية ساكنة كالعهد بها .. اما « شارل » فكان مستيقظا ، لا يكف عن التفكير فيها .. فى « ايما » ..

وكان « رودولف » نائما بسلام فى قصره ، بعد ان قضى اليوم كله يضرب فى الغابة ليشغل باله عنها .. اما «ليون» ، فكان كعادته .. نائما .. فى المدينة ! .. على أن ثمة شخصا آخر ، لم يكن نائما فى تلك الساعة . فعلى القبر ، بين شجرتى الصنوبر ، كان ثمة فتى جاثيا يبكى ، وقلبه الذى اضناه البكاء ، يخفق فى الظلام تحت عبء حزن هائل ، ولكنه اعذب من القمر ، ومن الليل الذى لا قرار له ! .. وفجاة ، سمع صرير باب المقبرة .. كان « ليستيبودوا » قادما ليبحث عن

معوله الذى نسيه .. فلمح « جوستان » يتسلق السياج منصرفا .. وعرف اخيرا من هو الشرير الذى كان يسرق بطاطسه !

الفصل الحادى عشر

● استرد « شارل » فى اليوم التالى طفلته . وراحت تسال عن امها ، فكان يقال لها انها سافرت ، وانها ستجلب لها فى عودتها بعض اللعب .. وعادت « بيرت » تتكلم عنها عدة مرات ، ثم لم تعد — فى النهاية — تفكر فيها .. وكان مرح هذه الصغيرة يفتت قلب «بوفارى» . وكان عليه بجانب ذلك ، ان يتحمل مواساة الصيدلى الملحاحة التى لم تكن تطاق ..

وسرعان ما عادت المتاعب المالية تثار ، إذ عاد السيد « لوريه » يحرض صديقه « فانكار » .. وتورط « شارل » فى سندات بمبالغ متزايدة ، إذ ما كان ليرضى ابدا بأن يباع اثاثه متاع كان لايما يوما .. وانتقدت امه حاله ، فغضب كما لم يغضب من قبل — إذ كان قد تغير تغيرا تاما — ولم تلبث امه أن هجرت البيت .

وإذ ذاك ، بدأ كل امرىء يستغله . فطالبته مدموازيل « لامبرير » بحساب دروس لمدة ستة شهور ، مع أن « ايما » لم تتلق عليها درسا واحدا .. (رغم ذلك الايصال الزائف الذى اطلعته « ايما » عليه) .. كان ثمة اتفاق بين المراتين ! وطالب صاحب المكتبة — الذى اعتاد ان يعير الناس كتبه — باشتراكات السنوات الثلاث الأخيرة .. وطالبته الأم «روليه» بأجور البريد عن عشرين خطابا ، فلما استفسرها « شارل » ،

الهمتها لباقتها ان تجيب « آه ! .. لست أدرى ! .. كان ذلك من اجل شئونها ! » .

وكان «شارل» كلما دفع دينا ، ظن انه الأخير ، ثم لا يلبث ان يفاجأ بديون أخرى لا تنقطع .. وارسل لمرضاه يسالهم اتعابه ، فعرضت عليه الخطابات التى كانت زوجته قد كتبتها لهم .. فكان يضطر إلى أن يعتذر ! .. واصبحت «فيليسيتيه» ترتدى ثياب السيدة .. اكثرها على الأقل ، فقد احتفظ هو بالبقية ، كان يذهب ليتاملها فى مخدعها ، بعد أن يغلق الباب خلفه .. وكانت الخادم فى مثل طولها ، فكثيرا ما كان «شارل» — حين يراها مدبرة — يتولاه الوهم بانهـا هى ، فيصيح : « اواه ! .. الا امكثى .. امكثى » .. ولكنها فى عيد العنصرة هربت من (ايونفيل) مع « تيودور » بعد أن سرقت من صوان الملابس كل ما كان قد تبقى .. وفى حوالى ذلك الوقت ، تلقى من الأرملة « ديبوى » رسالة تتشرف فيها باخطاره : « بزواج ابنها السيد « ليون » — موثق العقـود فى (ايفيتو) — إلى الآنسة ليوكاديه ليبوف من بوندفيل » .. وقد جاء فيما كتبه « شارل » ليهنئه : « ما كان احرى زوجتى المسكينة بان تسعد بهذا ! » .

* * *

● وإذ كان يهيم يوما فى البيت على غير هدى ، صعد إلى غرفة المخزن ، فاحس تحت نعله بكرة من ورق رقيق ، بسطها فاذا فيها : « تشجعى يا « ايما » تشجعى ! .. ما كنت لأحيل حياتك إلى شقاء » .. كانت رسالة « رودولف » وقد وقعت على الأرض بين الصناديق ، حيث بقيت .. حتى طوح بهـا

الهواء الوافد من الكوة نحو الباب .. ووقف «شارل» جامدا ، محملقا ، فى نفس المكان الذى وقفت فيه «ايما» من امد طويل ، يائسة — اشد شحوبا مما هو الآن — وقد اخذت فكرة الموت تراودها .. واكتشف اخيرا حرف «ر» صغير فى نهاية الصفحة الثانية .. ما هذا ! .. وتذكر ما كان يبديه « رودولف » من اهتمام بزوجته ، ثم اختفاؤه المفاجىء ، وما كان يلوح عليه من ضيق وحرج حين التقيا مرتين او ثلاثا بعد ذلك .. ولكن اللهجة الوقور التى سادت الخطاب خدعته ، فقال لنفسه : « لعل كلا منهما احب الآخر حبا عذريا » ! .. ثم ان « شـارل » لم يكن ممن يتعمقون وراء الأشـياء ، بل إنه اجفل من ان يعثر على ادلة ، وتبددت غيرته المبهمة فى حزنه الهـائل .. وراح يعلل نفسه بان كل امرىء لا بد كان يعبدها ! .. بل من المؤكد أن كل الرجال كانوا يشتهونهـا !! وزادها هـذا جمالا لديـه !!! واستولت عليه شهوة باقية هوجاء نحوها ، اذكت من قنوطه الذى لم يكن له حد ، إذ لم يعد من سبيل إليها ..

ولكى يرضيها — وكانها كانت لا تزال على قيد الحياة — اعتنق ميولها ، وآراءها .. وابتاع احذية من الجلد الطرى .. واغرم بارتداء ربطات العنق البيضاء ، واستعمل الدهون فى تنسيق شاربيه ، واصبح يوقع — مثلها — سندات تحت الطلب .. كانت « ايما » تقوده إلى الخراب ، من اعماق قبرها !

واضطر إلى ان يبيع التحف الفضية قطعة بعد اخرى .. ثم باع اثاث حجرة الجلوس .. وتعرت كل الغرف ، عدا غرفة النوم .. غرفتها، فقد بقيت كما كانت من قبل . وكان «شارل» يصعد إليها بعد عشائه ، فيدفع المنضـدة المستديرة امـام

المدفأة ، ويجذب مقعدها ــ ذا المسندين ــ ثم يجلس أمامه ، وفى أحد الشمعدانات المذهبة شمعة تحترق .. و «بيرت» إلى جواره ، تطبع بعض الصور باستخدام أختام محفورة .. وكان الرجل البائس يتعذب إذ يراها سيئة الملبس ، فحذاءاها بغير رباطين ، والثقوب التى تخللت ذراع قميصها امتدت فى تمزق وصل إلى ردفها ، فان المرأة التى كانت تفد للعناية بالبيت ، لم تشغل نفسها بها .. على أن الصغيرة كانت لطيفة جدا ، رقيقة للغاية ، وكان رأسها الصغير ينحنى إلى الأمام فى رشاقة ، تاركا شعرها الأشقر الغزير ينسدل على خديها ، فيحس « شارل » بغبطة لا نهاية لها تغمره ، وسعادة ممزوجة بمرارة ، كتلك الخمور الرديئة الصنع التى يكون لها طعم زيت الخروع .. وكان يصلح لها لعبها ، أو يصنع لها أشكالا من الورق المقوى ، أو يخيط لها الدمى الممزقة .. وكان إذا وقعت عيناه ــ إذ ذاك ــ على صندوق الحياكة ، أو على شريط ملقى ، أو حتى ابرة مستترة فى أحد شقوق المنضدة ، يستغرق فى الأحلام ، ويتجلى عليه الحزن ، حتى تبدو الصغيرة بدورها حزينة مثله .

ولم يعد يفد لزيارتهما أحد .. فقد هرب « جوستان » إلى (روان) حيث أصبح صبيا لدى بقال ، وأخذت زيارات أطفال الصيدلى للصغيرة تقل شيئا فشيئا ، إذ لم يعد السيد « هوميه » يعنى باستمرار الود ، وهو يرى الفارق فى المكانة الاجتماعية بينهم وبينها . .

وكان الأعمى ــ الذى أخفق علاجه بذلك البلسم ــ قد عاد إلى تل غابة (جيوم) حيث راح يخبر المسافرين بمحاولة

الصيدلى الفاشلة .. حتى أصبح « هوميه » ــ إذا ذهب إلى المدينة ــ يتوارى خلف ستائر « العصفورة » ليتفادى الالتقاء به .. بل انه أصبح يكرهه ، ويتمنى ــ من أجل سمعته ــ أن يتخلص منه بأى ثمن .. فشن عليه حملة مستترة ، كشفت عن عمق ذكائه ، وعن خسة غروره .. فكان المرء يقرأ فى « الفانال دى روان » ــ طيلة ستة شهور متتابعة ــ نبذا ، راح يردد فيها :

« كل قاصد إلى سهول بيكاردى الخصيبة ، لاحظ ولا بد على مقربة من تل غابة (جيوم) متسولا مصابا بجرح فظيع فى وجهه . وهو يزعجك فى لجاجة ، ويطاردك ، ويفرض على المسافرين جميعا جزية حقيقية . فهل ما زلنا نعيش فى العصور الوسطى البشعة ، حين كان يباح للأفاقين أن يعرضوا فى المحال العامة ماعادوا به من الحملات الصليبية من جذام وداء الخنازير ! » .. أو « على الرغم من القوانين المكافحة للتشرد ، فان مشارف مدننا الكبرى لا تزال موبوءة بعصابات من المتسولين . ويشاهد من هؤلاء من يطوفون فرادى ، ومن يحتمل أن لا يكونوا أقل خطرا من سواهم . فما رأى أعضاء مجالسنا البلدية ؟ » .

ثم أخذ « هوميه » يبتكر الأقاصيص .. « جمح بالأمس جواد عند تل غابة (جيوم) .. » ثم يردف هذا بقصة حادث نشأ عن وجود الرجل الأعمى .. وقد أحكم حملته ، حتى حبس الرجل ، ولكنه ما لبث أن سرح ، وعاد من جديد .. فعاد « هوميه » إلى حملته ! .. كانت معركة ، قدر لهوميه أن يكسبها ، إذ قضى على غريمه بالبقاء فى ملجأ طوال عمره .

* * *

● وجراء هذا النجاح ! ومنذ ذلك اليوم لم يعد كلب يدهس ، أو مخزن للغلال يحترق ، أو امرأة فى الأبرشية تضرب ، الا وكان يبادر للتو إلى نشر النبأ للرأى العام ، يحدوه دائما حب الرقى وكراهية القساوسة ! .. وكان لا يفتأ يقارن بين المدارس الأولية والمدارس الكنسية ليوقع الضرر بهذه ، وأعاد إلى الأذهان مذبحة « سان بارتليمى » ، من أجل منحة قدرها مائة فرنك قدمت للكنيسة ، وحمل على المساوىء ، وكشف عن آراء جديدة ، كما كان يقول ! .. كان « هوميه » يحفر ويهدم .. ومن ثم أصبح خطيرا ! .. على انه احس بانه يختنق فى حدود الصحافة الضيقة ، ولم يلبث ان وجد ان لا بد له من كتاب يؤلفه . وإذ ذاك وضع مؤلفا فى « إحصاءات عامة لمنطقة (ايونفيل) ، تتبعها ملاحظات عن المناخ » .. ودفعته الاحصاءات إلى الفلسفة ، فشغل بمسائل كبيرة : المشكلة الاجتماعية ، والتهذيب الخلقى للطبقات الفقيرة ، وتربية الأسماك ، والمطاط ، والسكك الحديدية ، الخ . بل انه أخذ يخجل من انتمائه إلى الطبقة المتوسطة ، فاتخذ لنفسه مظهر اهل الفن ، واقبل على التدخين ! .. وابتاع تمثالين بديعين من طراز «بومبادور» ليزين بهما غرفة جلوسه .. بيد انه لم يهجر الصيدلية على الاطلاق ، بل انه ـ على النقيض ـ ظل مواظبا على متابعة الاكتشافات ، فتتبع الحركة الكبرى التى اثيرت بصدد انواع «الشيكولاته» .. وكان اول من ادخل « الكاكاو » و « الريفالنسيا » إلى حوض (السين) الأدنى .. وتحمس لأطواق « بولفرماشيه » الكهربائية وارتدى بنفسه منها ، فكان إذا خلع قميصه الداخلى (الفانيلا) ، ذهلت زوجته لرؤية

الوهج الذهبى الحلزونى الذى كان يختفى وراءه .. وشعرت بشوقها يتضاعف لهذا الرجل ، الملتف فى الأطواق كأنه ساحر مجوسى ..

وكانت له آراء طريفة بصدد قبر « ايما » .. فاقترح فى البداية ان يقام عليه عمود ابتر مكسو بالجوخ .. ثم اقترح هرما ، ثم معبدا ، ثم صرحا ذا قبة ، أو « ركاما من الاطلال » .. وكان « هوميه » فى جميع هذه المشروعات ، لا يتحول عن إضافة نبات الصفصاف الباكى ، الذى كان يعتبره رمزا لا بد منه للحزن ..

ورحل «شارل» معه إلى (روان) لمشاهدة بعض القبور لدى احد صانعى التوابيت ، وصحبهما فنان يدعى «فوفريلار» ـ من اصدقاء « بريدو » ـ ظل طيلة الوقت يتكلم بالألغاز . واخيرا ، وبعد ان فحصوا حوالى مائة رسم ، طلبوا تقديرا للنفقات . ثم قام الصيدلى مع « شارل » برحلة اخرى إلى (روان) ، قرر فيها الأخير انه يؤثر الاكتفاء بضريح مزخرف ، يقام على كل من جانبيه الرئيسيين « تمثال لجنى يحمل مشعلا لا يخمد » .. أما الكتابة التى تنقش عليه ، فلم ير « هوميه » اجمل من « استريحى ايتها المسافرة » باللاتينية .. ولم يزد . واخذ يعصر ذهنه ، ويردد باستمرار « استريحى ايتها المسافرة » .. ثم خطرت له عبارة « خفف الوطا إنها زوجة محبة » باللاتينية .. فاستقر الرأى عليها .

وكانت ثمة ظاهرة غريبة .. فبينما كان « بوفارى » يفكر باستمرار فى « ايما » ، اخذ ينساها .. واشتد به الأسى إذ شعر أن هذا الطيف يغيب عن ذاكرته رغم كل الجهود التى

كان يبذلها للاحتفاظ به .. ومع ذلك فانه كان يحلم بها فى كل ليلة .. نفس الحلم .. كان يقترب منها . حتى إذا هم باحتضانها ، هوت متعفنة بين ذراعيه ! .. وشوهد يتردد على الكنيسة كل مساء ، لمدة اسبوع .. كما ان الاب « بورنيسيان » زاره مرتين او ثلاثا ثم اهمله ، لا سيما وان القس المسكين اصبح لا يطاق ، وازداد تهوسا ، كما قال « هوميه » . كان يرغى ويزبد ضد روح العصر ، ولم يكف عن ان يذكر فى مواعظه — مرة كل اسبوعين — الآلام التى عاناها « فولتير » عند احتضاره ، ثم موته بعد عذاب مرير — نتيجة لإلحاده — كما يعرف كل امرىء !

* * *

● وعلى الرغم من الاقتصاد الذى انتهجه « بوفارى » فانه كان اعجز من ان يسد ديونه القديمة .. ورفض «لوريه» ان يجدد السندات بعد ذلك ، واصبح الحجز على داره متوقعا .. فتوسل إلى امه ، التى وافقت على أن ترهن عقارها من اجله ، ولكن .. بعد ان ابدت كثيرا من اللوم البالغ لما فعلته « ايما » .. وسالته فى مقابل هذه التضحية ، شالا كان لايما وافلت من عدوان خادمتها ، فاباه عليها « شارل » .. ومن ثم تخاصما .. على انها كانت البادئة بالسعى إلى الصلح ، فعرضت ان تكفل البنت الصغيرة ، لتساعدها فى البيت وتعيش معها . ووافق « شارل » على هذا ، ولكن شجاعته خانته عندما حان الفراق .. وإذ ذاك حدثت قطيعة نهائية ، كاملة .

وكان كلما تبدد وجده لايما ، ازداد تعلقا بحب ابنته .. على انها كانت تسبب له قلقا ، إذ كانت تسعل فى بعض

الاحيان ، وظهرت بقعتان حمراوان على خديها .. وفى البيت المقابل ، كانت اسرة الصيدلى مزدهرة ، مرحة .. كل شىء لديها فى نماء .. فاصبح « نابليون » يساعد اباه فى العمل ، ونسجت له « اتالى » قلنسوة ، وكانت « ايرما » تقص له اقراصا من الورق لتغطية المواد التى يختزنها ، واصبح « فرانكلين » يقرا جدول « فيثا غورس » عن ظهر قلب ، فى نفس واحد . كان « هوميه » اسعد الآباء واكثر الرجال حظا !

ولكن ، لا ! .. كان يقض مضجعه مطمع تكتمه ! .. كان يتوق إلى وسام صليب الشرف (اللجيون دونير) . ولم تكن المبررات تعوزه ، فاولا : برز فى ايام الكوليرا بما كان يبديه من تفان لا حد له .. وثانيا : نشر — على حسابه الخاص — عدة مؤلفات ذات نفع عام (وكان يذكر كامثلة عليها : كتيبا اصدره بعنوان « شراب التفاح : صناعته ومفعوله » ، وكذلك ملاحظات عن الحشرة الوبرية ارسلها إلى « الاكاديمية » ، ومؤلفه الاحصائى ، ويمضى فى سرد مؤلفاته حتى يذكر الرسالة التى قدمها للحصول على شهادته فى الصيدلة !) ، ثم يضيف: « هذا عدا اننى عضو فى جمعيات عديدة للعلماء » — وما كان عضوا الا فى واحدة ! .. وكان يصيح وهو يدور على رجل واحدة : « بالايجاز .. اننى اهل للوسام ، ولو لبلائى فى الحرائق فحسب ! » .

وما لبث « هوميه » ان مال إلى صف الحكومة ، فاسدى لمدير الأقاليم — فى السر — خدمات كبيرة فى الانتخابات .. باع نفسه فى النهاية .. بغى وفجر ! .. بل انه رفع ملتمسا إلى العاهل يناشده فيه ان « ينصفه » ، وخاطبه فيه بـ « مليكنا

الصالح » ، وقارن بينه وبين هنرى الرابع .. واخذ الصيدلى ينقض على الصحيفة فى كل صباح ، ليرى نبا الانعام .. ولكنه لم ينشر قط ! واخيرا ، عجز عن المضى فى الاحتمال .. وكانت فى حديقته بقعة معشوشبة صممت على شكل نجمة الوسام ويتصل باعلاها شريطان من الحشائش يمثلان شريط الوسام ، فاخذ يسير حولها عاقدا ذراعيه ، مفكرا فى غباء الحكومة ، وعدم اعتراف البشر بالفضل لاهله .

ولم يكن « شارل » قد فتح بعد الدرج السرى فى المكتب المصنوع من خشب الورد — الذى كانت « ايما » تستخدمه عادة — بواعز من الاحترام لذكراها ، او بدافع من لون من اللذة كان يحمله على ان يبطىء فى ابحاثه .. على انه جلس ذات يوم امام المكتب ، فادار المفتاح ، وضغط الزر .. وكانت كل رسائل « ليون » هناك .. ولم يعد ثمة مجال للشك فى هذه المرة .. واخذ يلتهم الرسائل حتى آخرها ، ثم مضى ينقب فى كل ركن .. بل فى قطع الاثاث جميعا ، وفى كل الادراج ، وخلف الجدران وهو منهمر الدمع ، يجهش بالبكاء .. مختبلا ، مجنونا .. وعثر على صندوق ، ففتحه بركلة من قدمه ، وإذا بصورة « رودولف » تقفز فى وجهه ، وسط خطابات عاطفية مكدسة .

وعجب الناس لانطوائه .. فلم يعد يخرج ، ولم يعد يقابل احدا ، بل إنه اصبح يرفض أن يعود مرضاه .. وما لبث ان تردد زعم بانه « يحبس نفسه ليعكف على الشراب » ! .. على ان بعض الفضوليين كانوا — احيانا — يتسلقون سياج الحديقة ، فكانوا يرون — مذهولين — ذلك الرجل الشارد

الفكر ، الطويل اللحية ، الزرى الملبس ، الذى كان يجهش بالبكاء بصوت عال وهو يمشى .

وكان فى المساء المبكر — فى الصيف — يصطحب ابنته ويقودها إلى المقبرة ، ثم يعودان حين يرخى الليل سدوله ، ولا يبقى فى الميدان من ضوء سوى الضوء المنبعث من كوة « بينيه » .. غير ان لذة حزنه لم تكن كاملة ، إذ لم يكن بجواره من يشاطره اياها ، فاخذ يزور الأم « لوفرانسوا » راجيا ان يتحدث إليها ، ولكن ربة الفندق لم تكن تصغى إليه الا بنصف اذن ، إذ كانت لديها متاعبها الخاصة ، فقد انشأ « لوريه » اخيرا عربات لنقل الركاب — تنافس عربتها « العصفورة » — باسم « المفضلة للتجارة » ، واصر سائق « العصفورة » المدعو « هيفير » — الذى اكتسب شهرة كبيرة فى اداء عمله — على ان يرفع اجره ، واخذ يهدد بان يذهب إلى « المنافس » !

* * *

● وفى ذات يوم ذهب « شارل » إلى سوق (ارجوى) ليبيع حصانه — آخر مورد لديه — فالتقى برودولف .. وشحب كل منهما إذ لمح الآخر .. وتمتم رودولف — الذى كان قد اكتفى بان يرسل إليه بطاقة للتعزية — ببضعة اعذار ، وهو متلعثم .. ثم واتته الجراة ، حتى انه مضى فى طمأنينته إلى حد دعوته إلى تناول زجاجة من الجعة فى الحانة .. وكان الجو قائظا ، إذ كان الشهر اغسطس ..

ومال على المنضدة امامه ، واخذ يمضغ سيجاره وهو يتكلم ، بينما كان « شارل » غارقا فى تامل ذاك الوجه الذى احبته .. هى ! .. وخيل إليه انه يرى فى هذا الوجه شيئا منها .. كان يثير عجبه .. حتى لقد ود لو كان هو هذا الرجل !

ومضى « رودولف » يتحدث عن الزراعة ، والماشية ، والمرعى ، وهو يملأ — بعبارات مبتذلة — الثغرات التى كان يعوزه فيها الايضاح .. ولم يكن « شارل » مصغيا إليه .. ولاحظ « رودولف » ذلك ، فتتبع مجرى الذكريات التى كانت تنعكس على وجهه .. إذ اخذ هذا الوجه يزداد احتقانا ، وراحت طاقتا انفه تختلجان بسرعة ، وشفتاه ترتجفان .. وحانت لحظة انعم فيها « شارل » بغضب قاتم ، فثبت عينيه على « رودولف » ، الذى كف عن الحديث فى شىء من الخوف .. ولكن ، سرعان ما عاد إلى وجه « شارل » ذلك الطابع المضنى الحزين ، وقال : « لست احقد عليك ! » .. وبهت « رودولف » ، ومضى « شارل » يقول — ورأسه بين راحتيه — فى صوت متهدج ، وفى لحظة مثقلة بحزن لا حد له : « لا .. لست احقد عليك ! » .. بل إنه اضاف عبارة رقيقة .. العبارة الوحيدة من نوعها .. « انها غلطة القدر ! » .

ورأى « رودولف » — وهو الذى وجه هذا القدر — أن العبارة دمثة ، لا سيما من رجل فى مثل مركز « شارل » .. بل ومضحكة .. وخسيسة إلى حد ما !

* * *

● فى اليوم التالى ، ذهب « شارل » فجلس على المقعد الطويل الذى كان فى الخميلة .. وكانت اشعة الشمس تنساب خلال الأفنان .. واوراق الكرمة تطبع ظلالها على الرمل ، والياسمين يضوع الهواء بعبيره ، والسماء زرقاء ، والذباب الهندى يطن محوما حول الزنبق المزدهر .. واحس «شارل» بانه يختنق ، كما يفعل الشاب المراهق حين تفيض به تيارات الحب المبهمة التى ينعم بها قلبه ..

وفى الساعة السابعة ، اقبلت «بيرت» الصغيرة — التى لم تكن قد رأته قط طيلة ما بعد الظهر — تبحث عنه للعشاء .. فاذا رأسه مسند إلى الحائط خلفه ، والعينان مغمضتان ، والفم مفتوح ، وفى يده خصلة طويلة من شعر اسود .. وهتفت : « هيا يا ابت .. تعال ! » . وإذ ظنته راغبا فى مداعبتها ، دفعته فى رفق ، فهوى إلى الأرض .. كان قد مات !

وبعد ست وثلاثين ساعة ، اقبل السيد « كانيفيه » — برجاء من الصيدلى — فقام بتشريح الجثة ، ولم يجد شيئا ..

وعندما بيع كل شىء ، تبقى اثنا عشر فرنكا وخمسة وسبعون سنتيما ، استخدمت فى دفع نفقات سفر الآنسة « بوفارى » إلى جدتها ..

ثم ماتت الجدة العجوز فى نفس السنة .. وكان الأب « روو » — والد ايما — قد اصيب بالشلل ، فكفلت الفتاة عمة لأمها ، كانت امراة فقيرة ، فارسلتها لتكسب عيشها فى مصنع لنسيج القطن ..

ومنذ وفاة «بوفارى» تتابع على (ايونفيل) ثلاثة اطباء ، واحدا بعد واحد ، دون أن يوفقوا ، فقد كان « هوميه » يحمل عليهم فى عنف .. كان عدد عملائه قد تضخم ، واغمضت السلطات اعينها عنه ، وتكفل الرأى العام بحمايته ..

وقد حصل لتوه على صليب الشرف .. «اللجيون دونير»!

((تمت))

محاكمة المؤلف

امام محكمة جنح باريس

(الدائرة السادسة)

فى الجلسات من ٣١ يناير إلى ٧ فبراير سنة ١٨٥٧

تلخيص : انطون العبيدى

« مدام بوفارى » .. فى ميزان العدالة !

● اثارت قصة « مدام بوفارى » — عندما نشرت لاول مرة مسلسلة على صفحات مجلة «ريفو دى بارى» — ضجة انتهت بها وبمؤلفها إلى ساحة القضاء .. ولطرافة القضية وأهميتها ، رايت ان الخصها لك فى الصفحات التالية .. فهى لم تكن قضية « جوستاف فلوبير » و « مدام بوفارى » وحدهما ، وإنما هى قضية الكتاب، والأدباء، ورسالةالأدب فى كل عصر، وكل بلد!

.. ولقد اعيد طبع الرواية بعد ذلك مرات فى حياة « فلوبير » ، فكان فى كل مرة يدخل عليها تعديلات وتنقيحات ، هى السر فى وجود بعض الفوارق بين الطبعة النهائية المعتمدة التى ترجمناها ، وبين الفقرات التى اقتبستها النيابة واشار إليها الدفاع ، إذ اخذ هذان عن الاصل الأول الذى نشر فى المجلة ..

مرافعة النيابة العامة

● يا حضرات القضاة : تود النيابة العامة قبل الخوض فى موضوع هذه الدعوة أن تشير إلى صعوبة مهمتها . هذه الصعوبة التى لا تتصل بطبيعة الاتهام ، وهو « خدش الآداب العامة والمساس بالدين » ، وإنما تتصل بمدى الاتهام ونطاقه . ذلك ان هذه العبارة مرنة واسعة الحدود بحيث يتعين تحديد مرماها . فعندما يعرض على حضراتكم مقال او صفحة من كتاب يتضمن مساسا بالأخلاق العامة أو العقيدة ، يكون الأمر محدود النطاق . اما إذا تعلق الاتهام بقصة كاملة ، فان الأمر يختلف كثيرا ، إذ من المستحيل — بطبيعة الحال — قراءة القصة برمتها . ولو اننا اقتصرنا على بعض الصفحات التى تتضمن فقرات معينة ، فقد يقال بحق اننا لم نعرض القضية فى كافة اجزائها . وإذ ان ما يسبق هذه الفقرات وما يتلوها ذو صلة وثيقة بموضوع الاتهام. من اجل هذا لا ترى النيابة امامها سوى طريق واحد ، هو أن تقص عليكم القصة قصا دون ان تقرا او تخص بالاتهام فقرة واحدة من فقراتها . ثم تتلو العبارات موضوع الاتهام وتبين ما فيها من خروج على القانون.

عنوان القصة : « مدام بوفارى » ، ويليه عنوان آخر بين قوسين هو : « اخلاق الريف » ، وكلا العنوانين لا يدل على شىء . لم يشأ الكاتب ان يتبع فى مؤلفه فلسفة معينة وإنما اراد ان يرسم بعض اللوحات ، ويا لها من لوحات .. الزوج يبدأ القصة وينهيها، ولكن الدور الأول الذى يطغى على جميع الأدوار هو فى الواقع دور « مدام بوفارى » .

جىء بالطفل «شارل» إلى المدرسة ، وكان بليدا خجولا،

تنم طفولته عما ستكون عليه رجولته .. فهو يواصل دراسته دون ما تقدم، وهو اضحوكة فصله .. وحين اتم المرحلة الأولى من الدراسة ، جـاء إلى (روان) حيث اخذ يدرس الطب .. ولم يكن يعنى بالدراسة كثيرا وإنما كان يغشى « الكباريهات » ويكلف بلعبة «الدومينو». ذلكم هو السيد «شارل بوفارى».

واراد ان يتزوج . فعثرت له امه على زوجة هى ارملة احد المحضرين . وكانت تناهز الخامسة والاربعين ولها دخل قدره ١٢٠٠ فرنك .. امـراة دميمـة على جانب من الورع والتقوى .. ولكن الموثق الذى وكلت إليه مالها فر إلى امريكا ، فماتت متاثرة بالصدمة .. ذلكم هو الزواج الأول وذلكم هو الجزء الأول من الرواية .

* * *

● اراد السيد « بوفارى » بعد ذلك ان يتزوج ثانية .. فاتجه نظره إلى ابنة مزارع فى منطقة مجاورة ، هى : « ايما روو » .. وصار السيد « بوفـارى » كلفا بزوجته .. وكان اسعد الرجـال ، واكثرهم عمى .. وكان جل همه ان يحقق رغباتها .. وهنا يتضاءل دور السيد « بوفارى » ويبرز دور مدام « بوفارى » كبطلة القصة .

حضرات القضاة : ترى هل احبت مدام «بوفارى» زوجها او حاولت ان تحبه ؟ لا .. كان هنـاك منذ البداية ما يسمى بالانسياق للأحلام .. ومنذ ذلك الحين تمثل لها افق آخر .. حيـاة جديدة . إذ اوحت إليهـا حفلة فى قصر (مويســار) — حضرتها فى صحبة زوجها وجمع من علية القوم — بالنزوات المستهترة .. منذ ذلك الحين تبدلت حالتها واصبح كل ما يحيط

بها ثقيلا لا يطاق .. واراد السيد « بوفارى » أن ينقذها مما تولاها من الملل والضيق ، فاصطحبها إلى (ايونفيل) للاقامة فيها ، مضحيا بعملائه . وفى هذه البلدة تحدث الزلة الأولى ، إذ عرفت مدام « بوفارى » شابا صغير السن يعمل كاتبا عند موثق البلدة هو « ليون ديبوى » ، الذى كان يدرس الحقوق ، ويزمع السفر إلى العاصمة .. ولم يجد السيد « بوفـارى » حرجا فى زيارة هذا الشاب لمنزله ، ايمانا منه بعفة زوجته . كذلك كان الشاب سليم النية . وما لبث أن سـافر ، فافلتت الفرصة ، ولكن فرصا اخرى سنحت بسهولة .. إذ كان يقيم على مقربة من (ايونفيل) شاب يدعى « رودولف بولانجيه » ، كان له ماض مع بعض النساء . وما إن وقع نظـره على مدام « بوفارى » ، حتى عقد العزم على أن يتخذها خليلة ! ولم يجد كبير عنـاء فى بلوغ غايتـه بعد ثلاث مقابـلات .. وتعاقبت المقابلات فى قصر « رودولف » ، وبلغ العاشقان اقصى حدود الفسق .. ثم رغبت مدام « بوفارى » إلى «رودولف » فى ان يختطفها ، ولكنه لم يجرؤ . وكتب إليها رسالة أوضح لها عذره .. وكانت هذه الرسالة صدمة قاسـية لها ، فاصيبت بحمى مخية ، قتلت الحب ، ولكن داء الفسق بقى .. ذلكم هو الجزء الثانى .

* * *

● وفى الجزء الثالث يحدث فى نفس مدام بوفارى رد فعل لسقطتها مع « رودولف » فيستيقظ الشعور الدينى فى قلبها ، ولكن إلى حين . إذ وجد السيد « بوفارى » أن يرفه عنهـا فى نقاهتها ، فصحبهـا ذات ليلـة إلى (روان) .. وفى المسرح

صادفا « ليون ديبوى » ، وكان قد عاد من باريس وقد اكتسب علما، وخبرة بالحياة.. فيتفق مع مدام « بوفارى » على لقاء ، تختار له الكاتدرائية مكانا .. ولكنه يغريها على أن تصحبه فى عربة .. وتقع الزلة الثانية فى داخل العربة . وتتكرر المقابلات فى منزل الزوج ، ثم فى غرفة خاصـة استأجراها فى (روان) .. إلى أن تحس مدام بوفـارى بالملل .. وهنا يبدأ فصل الكآبة والأسى .. إذ كانت مدام بوفارى قد بعثرت الأموال فى تقديم هدايا إلى « رودولف » وإلى « ليون » ، وعاشت فى بذخ وإسراف ، واضطرت إلى التخبط فى الديـون .. فيقاضيها المرابى ، ويوقع الحجز على منقولات منزل الزوجية ، ويلصق إعلان البيع .. والزوج لا يعلم شيئا .. وتسعى مدام « بوفارى » للحصول على المال من أى شخص ، فلا توفق .. ويأبى « ليون » أن يرتكب جريمة حاولت أن تغريه على ارتكابها .. وتلجأ إلى « رودولف » بعد أن أعياها المطاف فلا تجد عنده الثلاثة آلاف فرنك التى تنشدها . هل تفضى إلى زوجها بما حدث ؟ .. إنه بلا شك كان يغتفر لها كل ما فعلته، ولكن هذا الغفران لا يرضى كبرياءها ، فتؤثر تناول السم !

وهنا تحدث مشاهد مؤلمة ، إذ يرتمى الزوج إلى جانب جسد زوجه ، يبكى وينتحب ، ويطلب أن تدفن فى حلة عرسها ، وفى ثلاثة توابيت .. ويقدر للزوج أن يعثر بعد ذلك على خطابات عاشقيها ، فهل تظنون أن الحب سيفارق قلب هذا الرجل ؟ .. على العكس ، فان هذه الذكريات الغرامية التى خلفتها له هذه المرأة التى عبث بها أشخاص آخرون ، تلهب قلبه وتضاعف حبه . فيهمل شئون عملائه ، ويقاطع أمه ، ويبدد

البقية الباقية من ماله . ثم يعثر عليه فى أحد الأيام جثة هامدة فى حديقة منزله ، وقد أمسك بيده خصلة كبيرة من شعر زوجته الأسود !

* * *

● هذه هى القصة .. وانتقل بعد ذلك إلى سرد بعض النصوص التى وردت فى سياقها توطئة للحديث عن صلب الاتهام .. على أننى أرى لزاما على — قبل ذلك — أن أتحدث عن السيد « فلوبير » ، وعن المدرسة التى ينتمى إليها ، وعن أسلوبه فى رسم اللوحات التى كون منها قصته . كيف صور شخصية مدام « بوفارى » ؟ .. إنها أول الأمر فتاة فى حوالى الثانية عشرة من العمر ، تتلقى تعليمها فى أحد الأديرة ، ولا تعرف فى هذه السن شيئا عن الانفعالات والغرائز .. وهى حين تعترف بخطاياها للكاهن تبتكر هفوات بسيطة ، لتمكث بعض الوقت فى كرسى الاعتراف ، تستمع إلى نصائح رجل الدين ، وهى تجد لذة فى تأمل ما يردد فى الدير عن الخطبة والحبيب السماوى والقران الأبدى . هل هذا طبيعى ؟ أليس فى المزج بين ابتكار الخطايا التافهة والإحساس بهزة نفسية تحرك شعور فتاة فى هذه السن عند ذكر هذه الأمور ، وبين الإطالة فى مقابلة الكاهن والاستماع إلى حديثه ، أليس المزج بين هذه الأمور مقصودا لرسم صورة داعرة من تلك الصور التى زخرت بها القصة ؟ !

* * *

● تزوجت مدام «بوفارى» . وكان ينبغى لها أن ترقص . فانظروا حضراتكم كيف يصف الكاتب رقصها مع الفيكونت فيقول :

« وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة ، واخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصـــابيح ، واثاث ، وجدران ، وارض ! .. وعندما مرا على مقربـــة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ، فتداخلت ارجلهما .. وخفض بصره نحوها .. ورفعت هى بصرها نحوه .. وعلى الفور ، أحســت بدبيب مخدر يسرى فى اعصابهـــا ! .. وتوقفت عن الرقص لحظة ، ثم استأنفاه ، وإذا الفيكونت يقود إيما بحركة رشيقة إلى نهاية البهو ، حيث اختفى معهـــا . وكانت قـد أوشكت ان تسقط لاهثة الانفاس ، فأسندت راسها هنيهة إلى صدره » .

انظروا إلى مدام « بوفـــارى » فى ابسط افعالها . انكم تجدون فيها ريشة المؤلف تصور هذه الافعال على نفس النحو الذى ترسم به شتى اللوحات المنثورة بين دفتى الكتاب ، فهذا « جوستان » خادم الصيدلى المجاور ، كم كان يذهل إذ يلمح اسرار غرفة زينة هـــذه السيدة . إنه يتأمل فى نهم أشياءها المبعثرة على منضدة الكى ، ومن بينها السراويل الواسعة فى اعلاها ، الضيقة فى اسفلها .. وكم تساءل الزوج عن رائحة العطور التى كان يشمها من هذه المرأة !

« اهى منبعثة من قميصها او من جسمها ؟ .. » .

اكتفى بهذا القدر من النقل ، فعلكم عرفتم الآن اللـــون الذى اضفاه المؤلف على لوحاته التى صور بها شخصية مدام « بوفارى » فى صلاتها بعشيقها ، بل وبزوجها .. كل ما عنى به الكاتب هو الصورة البدنية ، الجمال الفاتن ، الاستسلام

للغريزة الجنسية ، وإشباع الشهوات ، والجسم الناعم الذى يغرى كل ما فيه بالمتعة الآثمة .

* * *

● إليكم بعد هذا بعض العبارات عن صلات « رودولف » و « ليون » الغرامية ببطلـــة القصـــة ، وعن عودة الوازع الدينى ، وعن الموت :

« ان تفاهة الأثاث المنزلى تدفعها إلى نشدان الترف فى مكان آخر . وعطف الزوج يدفعها إلى الخيانة الزوجية » .. ما الذى اغرى بها « رودولف » ؟ .. انه « ثوبها ينفرد وينثنى وفق تقاسيم جسمها .. وكانت صورة « ايما » دائما فى خياله يراها فى اوضاع شتى وينزع عنها ملابســـها وياخذهـــا إلى صدره .. ويلتقيان أول لقاء وتلتهب شفاههما ، فيرطبهـــا الانفعال النفسانى .. وتتحرك لأيدى لينة رخوة ! » .

تلك مقدمات السقطة ، ويجب ان تقرأ السقطة نفسها .. لقد اسلم « شارل » زوجته إلى « رودولف » ليدربها على ركوب الخيل ، فخرجا إلى الغابة ..

« واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته، فمالت إلى الخلف بعنقها الابيض ، الذى انتفخ بزفرة .. وفى اضـــطراب ، ودموع، ورعشة طويلة، حجبت وجهها.. واسلمت نفسها!» .. وبعد ان اشبعا شهوتهما ، تعود الزوجة إلى بيت الزوجية حيث الزوج الذى تحتقره .. ترى هل هى نادمة بعد سقطتها الأولى ؟ كلا بل انها تعود عالية الرأس ، فخورة بالفسق الذى ارتكبته ، مرددة : « أصبح لى عشيق ! » .. وبعثت فيها هذه الفكرة نشوة «فكأنها تحظى بفترة المراهقة والأحلام مرة أخرى!

. . إذن فقد قدر لها اخيرا أن تعرف مباهج الحب هذه ، وحمى الهناءة تلك التى كانت فى قنوط منها ! . . لقد ارتادت شيئا من تلك المجاهل الحافلة بالشهوة ، والنشوة ، والألم » .

* * *

● وإذن فهى تمجد الخيانة وتتغنى بسقطتها الأولى ! وهذا — يا حضرات القضاة — اشد فى رأيى خطرا من السقطة نفسها . كل شىء تافه إلى جانب هذا التمجيد لتلك الزيارات الليلية التى تتوالى بعد هذا الذى حدث بأيام قلائل . . كان « رودولف » يوافيها فى حديقة دارها ، فتتحايل حتى ينام الزوج ، ثم تتسلل إلى العشيق وقد تجردت من ملابسها ، فيلفها فى معطفه :

« كان برد الليل يضطرهما إلى أن يزدادا تلاصقا ، فتبدو التنهدات المنبعثة من شفاههما احر من عادتها ، وتتراءى لهما عيونهما اكثر اتساعا . . وفى غمرة الصمت ، كانت تقال كلمات خافته ، تقع على نفسيهما فى رنين بلورى ، ثم تتذبذب فيهما فى دوائر تطرد اتساعا » .

هل تعرفون حضراتكم لغة اكثر بيانا ووضوحا ؟ هل رايتم صورة اغرق فى الدعارة من هذه اللوحة ؟ استمعوا ايضا إلى هذه العبارات :

« ابدا لم تكن مدام «بوفارى» فى مثل ما بدت فيه من جمال فى تلك الفترة، إذ اوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم، الذى يأتى نتيجة للفرح والتحمس والظفر . . كانت شهواتها، واشجانها، وتذوقها للذة ، واوهامها الدائمة الصبا ، اشبه بالتربة والمطر والريح والشمس إذ تنمى الزهور . . وهكذا اخذت « ايما »

تنمو رويدا ، حتى تفتحت فى النهاية عن كل ما كانت تنعم به طبيعتها . . والفاها « شارل » شهية ، فتانة ، كما كان العهد بها فى الأيام الأولى لزواجهما » .

إلى هنا — يا حضرات القضاة — بدا لكم جمال هذه المراة من خلال قسمات جسمها وحركاتها وثيابها . لقد بدت لكم سافرة . . لقد عنى المؤلف باظهار بطلته اشد فتنة واروع جمالا بعد السقطة ، وفى الأيام التى تلتها ، ليبرز شاعرية الخيانة الزوجية . وانى اسائلكم مرة اخرى : هل سمعتم عن صفحات اكثر خدشا للآداب من هذه الصفحات الداعرة ؟

* * *

● إليكم ايضا العبارات المتصلة بعودة الوازع الدينى

. . كانت مدام «بوفارى» قد مرضت واشرفت على الهلاك . . وخيل إليها انها تحتضر ، فطلبت ان تتناول القربان المقدس . ترى هل تستشعر شيئا مما استشعرته المجدلية النادمة التى يروى الانجيل قصتها ؟ لا، بل انها ظلت المراة العابثة التى تنشد العبث اينما كان حتى فى اسمى الأمور واقدسها . . فبينما هى فى انتظار القس « احست كأن شيئا قويا يمر عليها ، فيستل منها آلامها ، وكل فكر ، وكل حس . . وإذ تخفف جسدها من الفكر ، بدات حياة اخرى ، فخيل إليها ان كيانها يرقى صاعدا إلى الله ، حيث يتلاشى فى ذلك الحب ، كالبخور المحترق إذا ما انصهر وصار بخارا » .

بهذه اللغة — يا حضرات القضاة — يعبر الكاتب عن صلاة المراة المحتضرة . فهل سمعتم قبل الآن عن صلاة يعبر عنها بكلمات الحب والغرام ؟ هل سمعتم عن امراة فاسقة

يوما ، متدينة يوما آخر ، تتجه إلى الله بكلمـــات كالتى ترددها لعشيقها !

وبعد هــذه العــودة الوجيزة إلى الدين تصبح مــدام « بوفارى » مستعدة للســقوط من جديد . انهــا تذهب إلى المسارح فى « روان » . انها الآن تعود إلى ذكرياتها وتفكر : « آه .. لو انها فى اوج جمالها قبل ان تعرف لوثـــات الزواج وصحوات الفسق ، (وهناك من يقولون صــحوات الزواج ولوثات الفسق) .. لو انها اعتمدت على قلب قــوى ، إذن لامتزجت الفضيلة ، والعطف ، والملذات ، والواجب .. ولما هبطت من سماء سعادة كهذه ! » .

ذلكم هو كلام الكاتب عن « لوثات الزواج » ، وسأكشف لكم عن الخيانة الزوجية فى ابشع صورها ، فلقد التقى «ليون» و «ايما» عند الكاتدرائية ، وحملها على أن تستقل معه عربة . ونحن لا نقرأ الآن وصف وقوع الســقطة داخل العربة المقفلة — فقد حذفت المجلة هذه الواقعة مشكورة — على انهــا إذا كانت قد اسدلت استار العربة على ما وقع داخلها فقد فتحت لنا باب الغرفة التى كان يجتمع فيها العاشقان :

« ما كان فى الدنيا ما هو اجمل من شعرها البنى وبشرتها البيضاء ، وسط هذا اللون القرمزى — الذى تضفيه الستائر — عندما تثنى ذراعيها العاريتين فى حــركة مستحيية ، لتخفى وجهها فى راحتيها .. وكأنما خلقت الحجرة الدافئة — بستائرها السميكة ، وزخرفها البهيج ، وضوئهــا الهادىء — للخلوات المشبوبة ! » .

* * *

● هذا ما كان يحدث فى الغرفة . واليكم هــذه الفقرة الهامة التى تصور لوحة اخرى من اللوحات الداعرة فى القصة :

« ما كان اقوى حبهما لهذه الغرفة الغالية ، المفعمة بكل هذه البهجة ، رغم روائهــا الخابى .. وكان كل منهما ينتشى بقرب الآخر ، حتى ليخالا انهما فى بيتهما ، وانهما سيعيشان معا حتى الموت كقرينين كتب لهما الشباب ابدا .. وكانت إذا ما جلست على ركبتيه ، تتدلى ساقاها فى الهواء » ..

إليكم ايضا هذه العبارات — وكانت « ايما » قد بلغت حد الاعياء من اللذة : « كانت تمنى نفسها بسعادة بالغة فى الرحلة القادمة ، على انها لم تكن تنتظر ان تجد شيئا غير عادى .. ولكن خيبة املها هذه كانت تتلاشى إذ يشع عليهــا امل جديد ، فتعود إليه ملتهبة ، ومتعطشــة اكثر من ذى قبــل ، فتنزع ملابسها بحركة عصــبية ، وتذهب على اطــراف قدميهــا الحافيتين ، لترى مرة اخرى إن كان الباب مغلقا ، ثم تسقط بحركة واحدة كل ملابسها وترتمى على صــدره فى ارتعاشــة طويلة » .

انى اذكر هنا امرين : فهــذه من الناحية الفنية لوحــة رائعة ، ولكنها من الناحية الخلقية لوحة نابية . اجل أن الســ « فلوبير » يعرف كيف يجمل لوحاته بكل ما يتيحه الفن من ادوات التجميل ، ولكن دون أن يتقيد بقيــود الفن ! .. ثم اسمعوا هذه الفقرة :

« واخذت ايما تضيق به ، كما بدا « ليون » يضيق بها ، إذ اخذ يدب فى الخيانة الزوجية ما يدب عــادة فى الزواج كله من فتور » .

فتور الزواج ! وشاعرية الفسق ! .. احيانا لوثات الزواج واخرى فتوره ، ولكن فى الحالين : شاعرية الخيانة الزوجية ! تلك هى اللوحات التى يحب السيد « فلوبير » ان يرسمها ، وهو — لسوء الحظ — يرسمها فى براعة تامة !

حضرات القضاة .. لقد قصصت على حضراتكم ثلاثة فصول : فصل « رودولف » ، وقد رايتم فيه السقطة فى الغابة وزهو الزوجة العابثة بها ، ورايتم تمجيد الفسق وكيف ان الكاتب يضفى على الزوجة الفاسقة مزيدا من الجمال بعد السقطة . ثم تحدثت عن عودة الوازع الدينى وكيف صاغ الكاتب صلاة المحتضرة فى كلمات مستعارة من لغة الخيانة الزوجية . واخيرا تكلمت عن السقطة الثانية وسردت عليكم ما حدث مع ليون . واطلعتكم على ما وقع فى العربة المقفلة ، وقد حذفته المجلة . ورايتم حضراتكم ما جرى داخل الغرفة . والآن ونحن نعتقد ان عقيدتنا قد تكونت ، ننتقل إلى الفصل الأخير ، فصل العذاب .. ويلوح ان المجلة حذفت منه عبارات كثيرة . وإليكم العبارات التى يشكو بها السيد « فلوبير » من هذا الحذف :

« رأت المجلة لأسباب لديها ان تتناول بالحذف بعض العبارات فى عدد اول ديسمبر والعدد الحالى . وانى ابرىء نفسى من هذه التبعة وارجو من القارىء الا يعتبر هذه الفصول اكثر من أجزاء متنافرة وانها ليست بحال كلاما متماسكا » .

* * *

● نمر إذن بهذه الأجزاء ونصل إلى الموت .. فان «ايما» تتناول السم .. لماذا ؟ « الموت .. انه شىء بسيط .. سأنام

وينتهى كل شىء » ، ثم تطلب ان يصلى عليها صلاة الموتى ، دون اى اسف لما صدر منها أو للانتحار .. ودون اعتراف بآثامها او دمعة ندم تذرفها .. لماذا تطلب الصلاة وهى تعتقد انها إنما تذهب إلى العدم ؟ .. ثم يأتى مشهد الصلاة ، وما ادراكم ما مشهد الصلاة :

تعرفون حضراتكم ان هذه الصلاة تتلى مصحوبة بمسح الجبهة ، والأذنين ، والفم ، والقدمين ، بزيت المسحة ، مع تلاوة عبارات معينة تنم عن وجود الخطايا والآثام فى ناحية والرحمة والغفران فى الناحية الأخرى .. فاذا لم تعن بايراد الكلمات بحروفها فلزام عليك فى القليل الا تمزجها بكلمات تاخذها من صور اللذائذ والشهوات الجنسية . ومع ذلك ، فقد قال الكاتب بصددها :

« ادارت وجهها فى رفق ، وبدا كان فرحة تغمرها لرؤية الكاهن فجاة بجوارها ، لا شك انها وجدت فى هدوء النفس غير العادى السعادة المضيعة التى استشعرتها فى أيام تدينها الاولى ، ورؤى السعادة الأبدية التى بدات تستمتع بها .. وقف الكاهن ليقدم لها الصليب ، فاقتربت منه فى تعطش ، وطبعت — بكل قوتها المتداعية — على رمز الإنسان الاله قبلة حب لم تعرفها من قبل . وتلا الكاهن الصلاة ثم وضع إبهامه الايمن فى الزيت واخذ فى اداء مراسم المسحة الأخيرة فدهن العينين اللتين طالما استمتعتا بمباهج الحياة الأرضية ، ثم الأنف الذى كثيرا ما طابت له عطور الحب ، ثم الفم الذى طالما تكلم بالكذب وتأوه صلفا وكبرياء ، ثم اليدين اللتين طالما احستا بشتى الأحاسيس الآثمة ، والقدمين اللتين كثيرا ما سارعتا

بهـا إلى حيث تشـبع شهواتهـا ، واللتين لن تتحركا بعـد الآن . . » .

واخذ الكاهن بعد هذه المراسم يتلو صلاة المحتضر . . « وكلما اشتدت الحشرجة اسرع الكاهن فى صلاته . . وكان يبدو احيانا ان كل شىء صامت فيما عدا الكلمات اللاتينية التى كان ينطق بها الكاهن » .

ثم أراد الكاتب ان يخلق ردا على هـذه الكلمات ، فاستحدث شخصية رجل ضرير يسير على إفريز البيت مترنما بأغنية كما لو كانت جوابا لتلك الابتهالات :

« وفجاة سمع وقع اقدام ثقيلة على الافريز وصوت غليظ ينشد : « حمل دفء النهار الصبية على اجنحة الحب، واشتدت الريح حتى اطاحت بالثوب » . وفى هـذه اللحظة فارقت مدام بوفارى الحياة . . وإذن فالصورة تبدو هكذا : صلاة المسحة الأخيرة تتلى فى غرفة المحتضرة ، وفى الناحيـة المقابلة عازف يثير عند المحتضرة ضحكا قاسيا يائسا إذ تتخيل مرای الرجل الدميم يبدو فى ظلمة الأبدية شبحا مخيفا . . ثم انتفضت وهمدت على فراشها . . وفارقت الحياة .

نحن امام الجثة الهامدة . . ويجىء الزوج منتحبا ويسدل الغطاء على وجه الراحلة . فى هذه اللحظة التى يخشع فيها كل إنسان امام رهبة الموت يخط السيد فلوبير آخر خطوط اللوحة : « يهبط غطاء الفراش من عند ثدييها حتى ركبتيها ثم يرتفع عند أخمص قدميها » .

ذلكم هو مشهد الموت ، اختصرته لحضراتكم . ولكم ان تحكموا فيما إذا كانت هـذه الصورة مزجا للأشيـاء المقدسة

بالاشياء المدنسة ، وللطهر باللذة الآثمة . . أم ان الامر ليس كذلك ؟ !

* ***

● والآن وقد رويت لكم القصة بحذافيرها، وحللتها تحليلا وافيا، واتهمتها اتهاما صريحا ، إليكم القسم الثانى من مرافعتى : فى جميع الصور التى عرضتها على حضراتكم، والتى تصف عبث مدام بوفارى وعلاقاتها بأشخاص لم يكن يحل لها الاتصال بهم ، فى كل هذه الصور وجدت ولمست خدشا للاداب العامة ومساسا بالدين . . اما عن خدش الآداب العامة : فهلا ترونه يا حضرات القضاة فى السقطة مع رودولف ؟ الا ترونه فى تمجيد الخيانة الزوجية ؟ الا ترونه على الأخص فى ما جرى مع ليون ؟ . . اما المساس بالدين فانى اجده فى السقطة الأولى ، وفى كلام الكاتب عن عودة الوازع الدينى ، واجده اخيرا فى مشهد الموت الذى تختتم به القصة .

امامكم ـ يا حضرات القضاة ـ ثلاثة متهمين هم : السيد « فلوبير » ـ المؤلف ـ والسيد « بيشا » ، الذى قبل الكتاب . . والسيد « بيليه » ـ الذى طبعه ـ وفى هذه القضية تنعدم الجنحة إذا لم يكن هناك نشر . ولهذا فكل من ساهم فى النشر يجب ان يلقى عقابه . وأبادر فاقول إن المسئول الأول هو السيد « فلوبير » الكاتب الذى نبهوه إلى حذف بعض العبارات من قصته فاحتج على هذا الحذف . ويليه فى المسئولية الناشر الذى سوف لا تسالونه عما حذف بل عما كان عليه أن يحذف . ويأتى اخيرا الطابع وهو رجل فاضل ليس لدى ما اقوله فى حقه . ولا اطلب منكم سوى أمر واحد وهو تطبيق القانون عليه . أن الطابع يقسم اليمين القانونية ، وعليه أن يقرا

ما يطبع ، فاذا لم يقرأ فهو مسئول عما يطبع . إنه اشبه شيء بالديدبان الامامى.. إن هو اجاز مرور الجريمة فقد اجاز مرور العدو . خففوا العقاب ما شئتم عن الطابع وخففوه كذلك ما شئتم عن مدير المجلة . اما السيد « فلوبير » الذى يقع على كاهله اكثر عبء الجريمة فينبغى تشديد العقاب عليه إلى اقصى حد .

* * *

● أما وقد فرغت من مهمتى كممثل للاتهام ، فعلى ان اقدر ما ينتظر ان تدفع به التهمة وارد عليه من الآن . سيقال دون شك إن القصة اخلاقية بدليل ان الخيانة الزوجية قد عوقبت . وأجيب على هذا القول اولا بانه إذا كانت خاتمة القصة اخلاقية فرضا فان هذا لا يعفى الكاتب من إثم الصور الداعرة التى حوتها القصة ، وثانيا ان القصة ليست اخلاقية فى موضوعها بأى حال . ولا يمكن أن تبرر الخاتمة تفصيلات القصة . ليس الذين يقرءون ما يكتبه السيد « فلوبير » هم رجال الاقتصاد السياسى ، وإنما هم فتية سريعو التأثر بما يقرءون ، وهم احيانا فتيات أو نساء متزوجات ، وإذا ما تأثر الخيال وتحدث القلب إلى الشعور ، افتظنون حضراتكم ان التفكير العادى يمكن أن يقاوم هذا الانفعال ؟.. وعندى رد ثان : ان قصة « مدام بوفارى » ليست اخلاقية ، إذا نظرنا إليها من الزاوية الفلسفية .. حقيقة إنها تموت بالسم ، وبعد أن تتألم كثيرا ، ولكن لا يفوتنا انها لم تمت لانها كانت امرأة فاسقة ، وإنما لانها ارادت لنفسها ان تموت . وهى تموت فى شرخ شبابها واوج جمالها .. تموت بعد ان عبثت بالفضيلة مع

رجلين ، تاركة زوجا يحبها ويعثر بعد موتها على خطابات عشاقها فيزداد حبا لها وهى فى عالم الغيب .. هل توجد فى القصة شخصية حكيمة تنهى مدام « بوفارى » عن فحشها وتذود عن حياض الفضيلة ؟ لا توجد مثل هذه الشخصية . والكتاب خلو تماما من كل مبدأ اخلاقى يؤثم الخيانة الزوجية .

* * *

● هل يدان الكتاب باسم الشرف الزوجى ؟ .. ان الشرف الزوجى يمثله ـ فى الكتاب ـ زوج ضعيف الشخصية ، مطواع لأهواء زوجته ، لم يثر فى اية لحظة على الفحشاء .. زوج يلقى «رودولف» بعد موت زوجته فيبحث فى قسمات وجهه عن صورة المرأة التى احبها ! .. ام يدان الكتاب باسم الراى العام ؟ إن الراى العام فى القصة يمثله ذلك الصيدلى وأولئك الأشخاص المضحكون الذين يحيطون به والذين تسيطر عليهم جميعا مدام « بوفارى » .. إذن ، فهل يدان باسم الشعور الدينى ؟ إن الشعور الدينى تمثله فى الكتاب شخصية الكاهن ، وهو شخصية لا تفضل شخصية الصيدلى .. هل تدينونه باسم شعور المؤلف ؟ لست اعرف ما هو شعور المؤلف ، وإنما اقرا فى القسم الفلسفى الوحيد من الكتاب هذه العبارة : « تعرونا الدهشة دائما كلما مات احد الناس ، ذلك لأنه يصعب علينا كثيرا فهم مجىء العدم والاقتناع بحقيقة ذلك » .

انها ليست صرخة إلحاد وإنما هى صرخة شك .. لم هذه الدهشة التى تبدو عند الموت ؟ .. لأن الموت سر غامض يصعب فهمه والحكم عليه ومع هذا يجب التسليم به . وانا

اقول انه إذا كان الموت هو مجىء العدم ، وكان الزوج يزداد حبا لزوجته إذ يعلم بخياناتها ، وكان الراى العام ممثلا باشخاص مضحكين ، والفكرة الدينية ممثلة بذلك الكاهن المادى ، فان « ايما بوفارى » هى المحقة وحدها ، وهى الشخص الوحيد الذى يسود الموقف .

تلك هى النتيجة الفلسفية التى تستخلص من الكتاب . لا كما يستخلصها المؤلف بل كما يستخلصها رجل بحث وتعمق الأمور ..

* * *

● لكل شىء تفسير فى الآداب المسيحية التى تسود الحضارة الحديثة .. هذه الآداب تؤثم الزنا ، لا لأنه سراب وأوهام يصحو منها الإنسان نادما آسفا ، وإنما لأنه جريمة ترتكب ضد الأسرة .. ونحن ننبذ الانتحار لا لأنه عمل جنونى ، وإنما ننبذه لما ينطوى عليه من جبن ومن امتهان للواجب ، ومن انكار لحقيقة الحياة بعد الموت .

أن الآداب المسيحية تنبذ المؤلفات الواقعية ، لا لأنها تصف شهو البغض أو الانتقام او الحب ، فان الحياة تدور حول هذه جميعا ، وينبغى للفن ان يصفها . ولكن عندما يصفها الفن غير ملتزم حدودا أو قاعدة ، لا يكون فنا وإنما يكون اشبه شىء بامراة تتجرد من كل ملابسها !

مرافعة الدفاع

● حضرات القضاة : السيد جوستاف فلوبير متهم امام حضراتكم بأنه الف كتابا فيه خدش للآداب العامة ، ومساس

بالدين .. انه يقف إلى جوارى مقررا أن الكتاب الذى الفه ينطوى على فكرة اخلاقية ودينية . لقد سمعتم منذ لحظات تشويها لهذا الكتاب ، ولكنكم — عندما يزال هذا التشويه — ستلمسون الفكرة على حقيقتها كما لمسها الذين قرءوا هذا الكتاب . وهى فكرة تقوم على تقديس الفضيلة عن طريق كشف سوءة الرذيلة ...

لقد تعمق السيد « فلوبير » فى دراسته ، فلم يقتصر على دراسة الأدب بل درس الحقوق ايضا .. انه ليس بالرجل الذى يقنع بملاحظة البيئة المحيطة به ، بل الرجل الذى يستجوب بيئات اخرى . لقد زار إيطاليا . ومصر ، وفلسطين ، وآسيا الصغرى . واغترف من مناهل هذه البلدان شاعرية كانت له غذاء روحيا ، ومنهلا لا ينضب من المعرفة . والصور التى تجمعت فى ذهنه من زيارته لتلك الأقطار هى التى صنع منها اللوحات الفنية التى ضمنها مؤلفه .. فقد عاد السيد « جوستاف فلوبير » من رحلته فى سنة ١٨٥٢ ، وعكف على تدوين النتائج التى حصل عليها من تلك الرحلة . ترى ما هو الاطار الذى اختاره ، وماذا كان موضوع بحثه ؟ .. أن موكلى لا ينتمى إلى اية مدرسة فلسفية من المدارس التى اشارت إليها النيابة . لا ... انه ينتمى إلى المدرسة الواقعية ، من حيث انه يتشبث بواقعية الأشياء . وقد يقال انه ينتمى إلى المدرسة الروحانية ، من حيث إنه قلما يعنى بالجانب المادى وإنما يعنى اكثر ما يعنى بالشعور الإنسانى وارتقاء الانفعالات عند البيئات التى مر بها . بل إنه ينتمى على الأصح إلى المدرسة العاطفية .. والذى قصده فى الواقع من مؤلفه هو

إبراز صور حية يأخذها من البيئات الوسطى. فهو يختار بضع شخصيات يصف بها أشياء من واقع الحياة . قالت النيابة عند تلخيصها لموضوع الكتاب انه يمكن إعطاؤه عنوانا يطابقه هو « قصة خيانات زوجة من الأقاليم » ، وإنى أحتج احتجاجا صارخا على هذا العنوان . والصحيح إذا اردنا ايجاد عنوان آخر ان نقول إنه قصة التربية التى كثيرا ما تلقن فى الأقاليم .. قصة الأخطاء التى يمكن ان تؤدى إليها هذه التربية .. أو قصة الانتحار كثمرة لزلة اولى .. زلة ترتبت على أخطاء تسبقها ، من تلك الأخطاء التى كثيرا ما تنزلق إليها اية فتاة .. هذا ما اراده السيد « فلوبير » ، كما سنرى عندما نقلب معا صفحات الكتاب المطعون فيه .

* * *

● انصرف هم ممثل الاتهام إلى ابراز ما اسماه باللوحات الداعرة فى القصة . ولو أنى أحصيت العبارات التى اقتطفها من القصة بالقياس إلى السطور التى تركها ، لكانت النسبة واحدا إلى خمسمائة .

والآن ، ما الذى اراد مسيو فلوبير ان يصفه ؟ .. لقد اراد ان يتحدث عن امراة تلقت ثقافة اعلى من مستواها ، فلما جاء الزواج ، لم يراع أن يكون ملائما للثقافة ، وإنما روعيت ملاءمته للظروف التى ولدت فيها الفتاة .. وشرح الكاتب كل ما يترتب على هذا الوضع .. وماذا يعرض ايضا ؟ انه يصور امراة تنساق ــ نتيجة عدم التكافؤ فى الزواج ــ إلى الرذيلة .. رذيلة من احط واتعس درجة . ولسوف اسألكم عندما افرغ من تعريفكم بالكتاب : هل هذا الكتاب ، إذا

ما قرأته فتاة ، يدفعها إلى الرذيلة أم يحذرها ويبصرها فلا تقدم على اية خطوة قد تودى بها إلى مثل المصير الذى لقيته « مدام بوفارى » ؟ !

اراد المسيو فلوبير ان يروى قصة امراة كان عليها أن توائم بين حالتها وحال زوجها الطبيب الريفى وان تطرح ظهريا ثقافتها التى تعلو ثقافة زوجها . ولكنها بدلا من هذا اطلقت لخيالها العنان وانساقت وراء الأوهام ، فراحت تنشد حياة ارقى فى امكنة اخرى غير بيت الزوجية .. لقيت شابا واتصلت به وكان الاثنان من حداثة السن بحيث لم يتوفر لهما من الخبرة بالحياة ما يقيهما الفتنة .. وهى إذ ترجع إلى تربيتها الدينية فى الصغر لا تجد فيها ما يقوى روحها ويرتفع بها عن الدرك الذى هوت إليه .. وتلتقى هذه المراة بعد سقطة اولى ، برجل آخر من هؤلاء الرجال الذين نصادفهم بكثرة فى المجتمع فيعبث بها ويمرسها على صنوف الرذيلة .

اشتد غضب النيابة مما ذكره الكاتب عن انطلاق المراة من سجنها ، وعن الغبطة التى استشعرتها عقب السقطة الأولى . والواقع أن هذا احساس طبيعى لم يكن للمؤلف بد من أن يصفه كما هو . وهو بعد هذا الوصف بسطور قلائل ، يصف رد فعل هذا الاحساس فيقول : « انها تبدو فى نظر نفسها مهينة ذليلة » .

اجل انها تستشعر على الفور خيبة الأمل والألم ، ووخز الضمير . ان الرجل الذى استسلمت إليه إنما استحوذ عليها لإشباع شهوة عارضة .. لقد صدمتكم عبارة « الصحوة من الفسق » وانتم تؤثرون عليها عبارة « لوثة الفسق » ولكن

الكاتب الذى يريد ان يصف امراة تخون عهد الزواج ، وتنشد النعيم بعيدا عنه ، يكون محقا إذا عبر عن هذا المعنى بعبارة « لوثة الزواج » .

وهناك ايضا نقطة اود ان اوجه إليها انظاركم بنوع خاص وهى ان السيد « فلوبير » يتبع دائما خطوات الخيانة الزوجية بالالم وتبكيت الضمير ، وهو يجعل العقاب سريعا لا يطول انتظاره . فليس ثمة اوقات تستمتع فيها المراة طويلا بالمتع المحرمة .. وإنما هناك جزاء صارم يتبع السقطة . وقد قال أحد المعقبين إنه إذا كان هناك ما يلام عليه مسيو فلوبير فهو انه جعل العقاب غاية فى الصرامة .. لقد كتب هذا الكتاب بمقدرة فائقة ، مبنية على الملاحظة .. مقدرة شهد بها ممثل الاتهام وهى بادية فى كل سطر من سطوره ... فابرز ما فى الكتاب هو الأمانة التى توخاها الكاتب فى وصف ما يفتعل فى القلب . ولو أن الكاتب لم يتوخ هذه الأمانة لجاز القول بانه استطاب وصف مشاهد الانحطاط ببراعته المبنية على الملاحظة والوصف .. لكنه عنى بحياة « ايما » فى مختلف مراحلها . عنى بطفولتها وتربيتها فى الدير ولم يترك شيئا .. إن الذين قرءوا الكتاب من أوله إلى آخره يقولون : إن السيد فلوبير عندما يصل إلى المشاهد الصعبة لا ينحو منحى كتابنا الأعلام الذين يصفون الصلات الجنسية وصفا مفصلا ، بل يكتفى بكلمات عابرة . ولعل هذا جدير بإقصائه تماما عن مواطن الاتهام . هنا تختفى كل براعته فى الوصف ويحتجب سحر اسلوبه لأن فكرته بريئة . فهو يتورع عن الاطالة والتبسط .. وعندما أطلعكم على ما كتبه فى مثل هذه الموضوعات فلاسفة

عظام نجلهم .. فسوف ترون ان الاتهام لا يقوم على اى اساس . لقد وصف السيد « فلوبير » « ايما » فى طفولتها فتحدث عن مرحها ولعبها .. فهل إذا وصف ما جرى لها فيما بعد من تلوث ، يقال له قف ولا تخض فى هذا . ان الصورة تفقد كل واقعيتها إذا اقتصرت على وصف الجانب الاخلاقى من القصة .. إذا حذف منها حديث الخطأ والخطر والتردى وما يعقبه من عقاب .

* * *

● ومن عبارات التقدير العديدة التى ابداها بعض كتابنا ، تقدير من شخصية عظيمة نجلها لآثارها الأدبية الرائعة ولعفة اسلوبها ونقاء مؤلفاتها جميعا . هذه الشخصية هى .. « لامارتين » . ان « لامارتين » لا يعرف موكلى . ولكنه قرأ القصة فى اعداد المجلة التى نشرتها .. وقد حضر منذ بضعة ايام إلى باريس قادما من منزله الريفى ، فكان اول ما عمله ان اوفد سكرتيره إلى إدارة المجلة ليحصل على عنوان السيد « فلوبير » ، ثم عهد إليه أن يبلغه صادق تقديره لعمله الرائع واعجابه به كمؤلف ناشىء ، ورغبته فى أن يراه . ذهب إليه موكلى ، فلم يلق منه الثناء والتشجيع فقط ، بل قال له : « لقد اتحت لى تحفة ادبية لم يقع فى يدى مثيل لها منذ عشرين عاما » . وقال « لامارتين » للسيد فلوبير : « اننى الومك على الصفحات الأخيرة ، فقد جعلت عقاب الخيانة الزوجية شديدا اكثر مما ينبغى . لا شك ان المراة التى تدنس فراش الزوجية يجب ان تلقى عقابا صارما ، ولكن العقاب الذى جئت به كان مرعبا حقا . لقد اسات إلى اعصابى فقد كانت آلام الساعة

الأخيرة فوق ما يطاق سماعه » . وعندما ساله مسيو فلوبير عما يرى فى أمر تقديمه للمحاكمة بتهمة خدش الآداب العامة والمساس بالدين قال : « اظن انى فى كل مؤلفاتى قد ادركت ما هى الآداب العامة والدين ، كما لم يدركها رجل آخر . وانى اعتقد يا بنى انه لا توجد فى فرنسا محكمة يمكن ان تدينك » . هذا ما حدث بالأمس بين « لامارتين » و « فلوبير » ، ومن حقى أن اقول لكم إن هـذا التقدير يستحق ان تزنوه وان تكون له عندكم قيمته الحقة ..

* * *

● والآن ، كيف كان هذا الكتاب موضع محاكمة ؟ كانت لجنة القراءة فى المجلة التى نشرته تباعا ، قد تسلمت نسخة مخطوطة من الكتاب قبل نشره بزمن ، فلم تجد فيه مطعنا . وعندما وصلت إدارة المجلة إلى القسم الذى كان مقررا نشره فى عدد اول ديسمبر سنة ١٨٥٦ ، ثار احد مديريها على مشهد اجتماع « ايما » بـ « ليون » فى العربة المقفلة ، وقرر حذفه . واعتبر «فلوبير» ان فى هذا الحذف إساءة له، واشترط إثبات ذلك الحذف فى الهامش ، حفظا لكرامته كمؤلف وحرصا منه على الا يشوه كتابه .

كانت الفقرات التى يراد حذفها تتحدث عن ذلك اللقاء الذى تم عند الكاتدرائية ، وصعود « ايما » بشبه ضغط من « ليون » إلى العربة المقفلة ، وإسدال استار العربة ، والنزهة التى طال امدها .. وذلك الصوت من داخل العربة يامر السائق ــ كلما توقف ــ بأن يواصل السير . وكان السائق لا يفهم لماذا يريد الراكبان مواصلة السير .. وإنما

كانت تطرق سمعه بين حين وآخر صيحات غضب . ولكنه لم يكن يلقى باله لما يحدث ، إذ أعياه التعب والعطش والضيق .. وهكذا ، حتى يصل السباق إلى وصف مبارحة « ايما » للعربة وقد استشعرت فى نفسها ذلة الخضوع الذى تستشعره كثير من النساء كعقاب وثمن فى وقت معا للخيانة الزوجية ..

ولم تكن إدارة المجلة موفقة اى توفيق فى حذف هذه العبارات .. فقد كان يجب أن يتناول الحذف كل حديث عن العربة وإلا فهو بغير معنى .. وكل ما نتج عنه هو تنبيه المختصين فى مكتب مراقبة النشر إلى احتمال وجود أمر محظور . ومن هنا كانت القضية . فلست اغالى إذن إذا قلت إن القضية إنما نشأت من هذا الحذف غير الموفق .

قالوا فى مكتب مراقبة النشر : يجب التحرز مما سينشر فى الأعداد التالية . إن هؤلاء الموظفين لم يعنوا بقراءة كل شىء ، فلما عرفوا ان شيئا كتب عن امراة تجردت من كل ملابسها ، ثاروا دون أن يطلعوا على ما يلى هذه العبارة .. لم يقل « فلوبير » شيئا مما يقوله شعراؤنا وكتابنا الآخرون فى وصف الذراع الرخامى والبشرة الناعمة وفى وصف المخدع وما إليها ــ على أنه قال: «إنها استسلمت .. فسقطت ملابسها».

هذه العبارة من العبارات التى يستند إليها الاتهام. أفيريد الاتهام أن يحظر كل وصف ؟ ثم ان العبارة لا تقف عند النقطة التى وقف عندها ، بل هناك بقية تكملها : « على انه كان فوق هذا الجبين المغطى بقطرات باردة ، وعلى هاتين الشفتين المتلعثمتين ، وفى هاتين العينين الفائرتين ، وهاتين الذراعين

المشدودتين إحداهما إلى الأخـــرى ، شيء غامض ، محزن ، خيل لليون أنه ينسـاب بينهما فى رفق ليباعد بينهما » .. هـذه العبارات لم تقرأ فى مكتب مراقبة النشر ، والنيابة فى مرافعتها لم تلق إليها بالا ..

* * *

● تقول النيابة اننا وصفنا هذه المراة بالدعارة فى مختلف ادوار حياتها ، والواقع اننا قلنا عنهـا انهـا ولدت فى الريف ونشأت فى مزرعـة ابيهـا حيث كانت تعنى بكل شيء . لقد صورناها فى المكان الذى شـاء ابوها ان يضعهـا فيه ، وهو الدير الذى تولى تثقيفها كفتاة ريفية .. كان مصيرها ان تظل ريفيـة وأن تتزوج من ريفى . تحدثتم يا سـيدى النائب عن هفواتها الصغيرة التى كانت تذكرها للكاهن عنـدما تذهب لكرسى الاعتراف، ونسبتم إلينا الخطأ فيما قلناه بهذا الصدد. والحقيقة أن الخطأ من جانبكم انتم . لقد أدخلت الفتاة الدير .. وهنا نقطة هامـة اراد الكاتب ان يبرزها وهى تتصـل بالدين . إن للنشء دينا خاصا بهم يلقن لهم وهو فى رايى أسوأ الأديان . إنى أؤمن بأنه لا شيء يمكن ان يشد من ازر الإنسان فى الضائقات والشدائد ويرتفع به فى الملمات سـوى الدين . واريد ابنـائى أن يعرفوا الله .. الله فى بسـاطته ، يتوجهون إليه بالصلاة ويفضون إليه بحاجاتهم . وهـذا ما يفعله الدين المسيحى . وهو ايضا يجعل بين الناس والخالق وسـطاء ، تيسيرا للتواصل بينهم وبينه ، كالعذراء . ولست ارى فى هذا ضيرا على الطهر والقداسة . وإنما الذى اراه ضارا هو تلك الصور وتلك الأيقونات والتماثيل الصغيرة التى كثيرا ما تكلف

بها عقول الصبية ، والصبيات على الخصوص ، فتتحدد بها فكرة الدين وتنحصر فيهـا . وبذلك يستحدثون لأنفسهم دينا ضيقا . وبدلا من التوجه إلى الله بالصـلاة يألفون العبادات الصغيرة وتوافه الأفكار الدينية التى تجعلهم يعيشون فى عالم من أحلام اليقظة ، ثم تأتى شـاعرية الدين فيسمع الأحداث احاديث عن العطف والحب وتتأثر عقليتهم الغضة بمثل هذه المشاعر ويرون الدين وكأنه طائفة من الأحاسيس .

والذى اراد مسيو فلوبير أن ينبه إليه ويحذر منه هو تلك الصغائر التى يألفها الاحداث من التربية الدينية السائدة :

« كانت الصـبية قد قرأت بعض الكتب واستمعت إلى شتى الأحاديث الدينية التى كانت تلقى فى الدير على مـدى الأسبوع وتأثرت بها . وكانت تريد أن تخلص منهـا بفوائد شخصية لها » .. ترون الآن كيف احتاط الكاتب فى إدخال تلك الفتاة إلى الدير .. « .. كانت تعرف بعض الأغنيات القديمة وترددها بصوت خافت وهى تغرس إبرتها .. وكانت تحمل دائما بعض الروايات تقرأ منها فقرات فى أوقات الراحة التى تتخلل عملها » .. والحق ان هذا بديع من الكاتب الذى يريد ان يكشف عن اخطار مثل هذه التربية .

« ... ولما بلغت الخامسـة عشرة كلفت بقراءة عدة مؤلفات فى التاريخ .. وعرفت منها الكثير عن سـلوك بعض الشخصيات التاريخية وانحرافاتها .. وفى فصـل الموسيقى عرفت الموسيقى الملهبة » .

* * *

● كيف لم تذكروا كل هذا عندما تعود هذه الفتاة الريفية

إلى المزرعة ويتفق لها ان تتزوج من طبيب قرية وان تدعى لحفلة ساهرة قصيرة ؟ ورحتم تقولون ان الرقص الذى رقصته فى السهرة هو إحدى الصور الداعرة ! .. ليس اللوم على الوصف ، وإنما لوموا إذا شئتم رقصة « الفالس » التى يرقصها الناس فى مراقصنا الحديثة .. هذه الرقصة فى الواقع ليس بيننا من لا يريد ان يصد زوجته او بناته عنها ، لما فيها من دواعى القلق على العفة والطهر . فهل تلومون مسيو فلوبير إذا وصفها وصفا صحيحا لتنبيه الآباء والأمهات إلى ما فيها من خطر خلقى ؟

ثم هذه فتاتنا قد اصبحت زوجة . يقول السيد النائب : ترى هل حاولت ان تحب زوجها ؟ .. انت يا سيدى لم تقرا الكتاب ولو انك قراته ما ابديت هذا الاعتراض . ان الكاتب يقول فى صفحة ٣٤ ان هذه المراة كانت اول الأمر حالمة شاردة الفكر . وهناك ايضا ما هو اكثر دلالة على هذا المعنى وإنى ارجوكم هنا ان تتابعوا معى القراءة فى صفحة ٣٣

«لقد برح بها الحزن والالم لموت امها .. وطلبت فى رسالة لها إلى (برتو) - مليئة بالانفعالات الحزينة - ان تدفن بعد موتها إلى جوار امها .. واستشعرت « ايما » الرضى عن نفسها لوصولها بهذه السرعة إلى الشعور بتفاهتها ، واسترسلت فى آلامها متأملة فى موت الطيور وسقوط اوراق الشجر ، وفى اولئك العذارى الصاعدات إلى السماء .. واخيرا ادهشها ان تجد نفسها مطمئنة وان ترى الكآبة تفارقها» .. بهذه العبارات ارد على ما قاله الاتهام من ان بطلة القصة لم تبذل اى جهد لكى تحب زوجها .

النيابة : لم اقل هذا وإنما قلت انها لم تفلح فى ذلك .

الدفاع : إنى آسف يا سيدى .. لقد حسبت انك قلت هذا ، وإذ لم تكن ابديت هذا النقد فهذا خير جواب يمكن الإجابة به ، ومهما يكن من امر فهذا ما اقرا فى نهاية صفحة ٣٦ « ومع ذلك فقد ظلت تحاول ان تقنع نفسها بانها تحبه وفقا للنظريات التى كانت تؤمن بها .. كانت تردد على مسمعه - فى الحديقة ، وفى ضوء القمر - ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب وتغنى له - وهى تتنهد - بعض الألحان المشجية .. بيد انها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما ان « شارل » لم يكن يبدو اكثر حبا ولا انفعالا مما كان قبل الشعر والغناء .. واقتنعت فى النهاية بأن عاطفة زوجها لا تتأجج فى نفسه ! »

* * *

● والآن يبدا الخطر . تعرفون حضراتكم كيف تربت وكيف تثقفت . وإنى ارجوكم بإلحاح ان تذكروا ذلك الآن والا تغفلوا لحظة عن تذكره .

ما من احد قرا الكتاب إلا وقال إن السيد فلوبير فنان بارع ورجل ذو قلب كبير فى وقت معا ، إذ انزل فى الصفحات الست الأخيرة كل السخط والاحتقار على المراة ، ووجه كل الاهتمام إلى الزوج . إنه فنان ايضا لانه ترك الزوج إلى آخر القصة كما هو : رجل طيب تافه يؤدى واجبات مهنته ويحب زوجته حبا جما ولكنه قليل الثقافة مجرد من كل سمو فى التفكير . وهو عند سرير زوجته المحتضرة ، الرجل نفسه الذى كانه من قبل . لماذا ؟ لانه الرجل الذى ادى واجبه بينما

خانت الزوجة العهد واخلت بالواجب . كان موته جميلا ومؤثرا ، قدر ما كان موت الزوجة كريها وبشعا . لقد عنى المؤلف بأن يترك على جثة الزوجة آثار القيء الذى سببه السم والذى لطخ الأكفان البيضاء التى ستلف فيها ، واراد أن يجعل من هذا المشهد امرا تقشعر له النفس .

إن السيد « فلوبير » يبرز دائما سمو الزوج إلى جانب تردى الزوجة . سمو الرجل الذى يؤدى واجبه كاملا وتردى المراة التى تخون العهد وتخل بالواجب .

ينعى السيد النائب على المؤلف ان وخز الضمير فى القصة لا يلى السقطة مباشرة . فالبطلة تردد بعد السقطة فى زهو وخيلاء : « إن لى عاشقا .. إن لى عاشقا ! » . والواقع انه لو سار المؤلف على النهج الذى تريده النيابة لجانب الحقيقة . فالكاس ما تزال على الشفتين ، ولم يبلغ شاربها الثمالة ، فكيف تريدونه أن يستشعر مرارتها ؟ .. قد يكون من الاخلاق ان يتبع الكاتب اسلوب النيابة ، ولكنه فى هذه الحال يجافى طبيعة الأمور .. لأن الشعور لا يتنبه فى اعقاب الزلة الأولى وإلا ما ارتكبت. اجل انها لحظة النشوة التى تنحدر فيها المشاعر الإنسانية . على أن هذه النشوة لا تدوم طويلا . فهل راجعتم الصفحتين ٤٢٤ و ٤٢٥ ؟ ارجو ان تراجعوا ايضا صفحة ٤٢٨ .. « لم يبد بعد على العاشق شعور الضجر ومع هذا فهى منذ الآن تشعر بالخوف والضجر . إنها تفحص وتنظر ولا تريد بحال ترك « رودولف » .. إن شيئا اقوى منها كان يدفعها نحوه إلى حد انها حينما ذهبت إليه فجاة فى احد الأيام

عبس كأنما هو يضيق بها » .. « زادت مخاوفها من ناحية « رودولف » وملكت عليها مشاعرها .. ولكن رودولف قد اصبح ضرورة من ضرورات حياتها وهى تخشى ان تفقد منه شيئا .. وعندما كانت تعود من عنده كانت تلقى على كل ما حولها نظرات قلقة » .

ترون حضراتكم انها لم تكن مخدوعة ، وانها تشعر بان فى الجو شيئا مما لم تكن تحلم به .. اقرءوا هذه الفقرة :

« وبدا لها كأن حب رودولف يتلاشى كما يتلاشى ماء النهر يمتصه مجراه شيئا فشيئا . إنها الآن ترى الوحل غير انها لا تصدق عينيها .. ضاعفت علائم حبها له ، ولكن كلفه بها كان يقل اكثر فأكثر .. انقلب الشعور بمذلة الضعف شعورا بالضغينة نحو رودولف ، ولم يكن يخفف من غلواء هذا الشعور سوى ما بقى بينهما من لذائذ الهوى . لم يعد ثمة تعلق يربطها به وإنما غدا الأمر مجرد إغراء وخداع دائم . كان يخضعها لسيطرته وكانت هى فى خوف ووجل من ذلك » .

وانت تخشى يا سيدى النائب أن تقرأ الفتيات هذا . اما انا فلا اخشاه . ان الذى يخلص من هذه الفقرات يمكن تلخيصه فى نصح يسديه أب إلى فتاته فيقول لها : انظرى يا بنيتى . إذا لم يكن لك من تربيتك وخلقك ودينك ما يدرا عنك غائلة الغواية ، فتبصرى وتأملى ذلك الازدراء والاحتقار ، وتلك الآلام وخيبة الرجاء التى تنتظر المراة حين تنشد السعادة خارج بيتها . تلك هى الصورة التى افرغ فيها مسيو فلوبير نصحه للفتيات . افيضيركم هذا ؟

* * *

● لنواصل السير فى طريقنا . ها نحن نبلغ الصحو من الأوهام وما يصحبه من احداث . انكم تعترضون على صلاتها بليون ، ولكن هذه الصلات ستكلف مدام « بوفارى » عما قليل ثمنا غاليا . لقد نشدت سعادتها بعيدا عن الواجب الزوجى ، فلم تجد سوى المهانة والذل واليقظة من الأوهام .. ترى هل من مزيد لهذه الإهانة ؟ لا ، بل إنها مهانة تفوق كل وصف !

وتقول لرودولف انها تختنق وإنها لم تعد تطيق البقاء فى منزل الزوجية الذى لوثته بعارها وتهيب به أن ينتزعها من زوجها . ولكنه يقيم لها دليلا جديدا على انانيته . فيرفض ما تعرضه عليه . ثم تلحف فى الرجاء فيقبل ، ثم يأبى من جديد ويرسل لها فى اليوم التالى بخطاب يصدمها بل يصعقها .

هل يمكن أن تعيدها هذه الآلام إلى صوابها فتنتبه إلى واجبها ؟ ولكنها فى هذه الآونة تلقى الفتى الذى عبثت معه وقت ان كانت تعوزها التجربة والاختبار .

❊ ❊ ❊

● انتقل الآن إلى الكلام عن تهمة المساس بالدين . المساس بالدين ، فى اى شىء ؟ لقد حسب السيد النائب مسيو « فلوبير » من اهل الإلحاد ، ولسنا هنا فى مقام التحدث عن العقيدة الدينية ، وإنما امامنا كتاب نتفحصه لنرى هل من مطعن يوجه إليه ام هو كتاب اخلاقى مفيد .. وإنى اتحدى الاتهام ان يدلنى على شىء بين دفتيه فيه مساس بالدين . رايتم حضراتكم كيف دخل الدين فى تربية « ايما » ، وكيف شوهت الآراء الدينية التى كانت تدرس لها بحيث لم تسعفها ، ولم تسندها ، ولم تمنعها من التردى فى الرذيلة . اتريدون ان

تعرفوا باية لغة يتكلم السيد « فلوبير » عن الدين ؟ إليكم هذه السطور القلائل التى سأتلوها عليكم ماخوذة من الكتاب فى الموضع الذى يتحدث فيه المؤلف عن السقطة الأولى :

« فى إحدى الأمسيات ، كانت « ايما » جالسة قرب نافذتها تطل منها على المرج المجاور ، حين سمعت فجاة جرس الكنيسة ينبه إلى صلاة المساء . كنا فى أوائل شهر ابريل حيث تتفتح الأزهار ، وتبدو الحدائق اشبه بالنساء إذ يتزين تأهبا لاستقبال مباهج الصيف .. وحملتها هذه المشاهد على اجنحة الخيال فاستغرقت فى لجة من الذكريات . ذكريات الطفولة ، وذكريات إقامتها فى الدير . وذكريات الثريات الضخمة فى صحن الكنيسة ، وأوانى الزهر تنتثر فى شتى أرجائها . كانت تود لو ظلت بين رفيقاتها المحجبات بالأقنعة البيضاء .. وتذكرت الراهبات جاثيات على ركبهن يتعبدن إلى الله » ..

هذه هى اللغة التى عبر بها عن الشعور الدينى . ومع هذا تقول النيابة أن فكرة الإلحاد تسود الكتاب من الفه إلى يائه . أين ؟ .. هذا هو الكتاب بكامله لتقضى فيه المحكمة . وستجده من غير شك مطبوعا بالطابع الدينى بحيث يبين فى وضوح أن إلصاق تهمة الإلحاد بكاتبه فرية فاضحة . إليكم ايضا هذه العبارات ، عندما خالت « ايما » عقب الحمى المخية انها تحتضر ، فطلبت الكاهن لتتناول القربان المقدس : « احست كأن شيئا اقوى منها يسيطر عليها ويزيل كل آلامها ويجردها من كل وعى وكل شعور . رق جسمها ولم يعد له ثقل ودخلت فى حياة جديدة وبدا لها كأن كيانها يصعد إلى الله . انها ستفنى فى هذا الحب كالبخور المحترق يتبدد فى الهواء .. » .

❊ ❊ ❊

● ولعل فيما قلته ما يدفع تهمة المساس بالدين من أساسها . بيد أن النيابة تقول : « أن الذى مسستموه ليس الدين وإنما هو الأخلاق التى توارثتها الأجيال ، مسستموها إذ مسستم الموت » .. فبأى صورة مسسنا الموت ؟ .. تقول النيابة : مسستموه بشخصية ذلك الضرير الذى جعلتموه يسير بخطواته الثقال على الافريز تحت نافذة المراة المحتضرة ، وذلك الضرير المتسول الذى كانت « ايما » تدس فى يده بعض النقود وهى عائدة من زياراتها العابثة ، والذى طالما انشدها اغنيته الماجنة ، ينشدها لها فى اللحظة التى كانت تستمطر فيها الرحمة من السماء .. انتم ترون فى هذا مساسا بالموت . والحال ان السيد «فلوبير» لم يفعل سوى ما فعله «شكسبير» وما فعله « جوته » .. فقد درج هذان الروائيان — فى رواياتهما — على ان يقرنا مشهد الاحتضار بأغنية تطرق سمع المحتضر ، تذكيرا له وهو على ابواب الأبدية ببعض المباهج الدنيوية التى لن يستمتع بها بعد الآن ، أو ببعض الخطايا التى ينبغى له ان يكفر عنها .. وتمضى قصتنا بعد ذلك تصف مشهد اللحظات الأخيرة من الاحتضار وصفا مؤثرا للغاية ، وصفا قال فيه « لامارتين » إنه لم يقو على المضى فى قراءته . وإنى اجتزىء منه هنا بسرد العبارات التى تنعاها النيابة علينا .

« كان شارل فى الجانب الآخر من سرير المحتضرة ، وكان الكاهن كلما اشتدت الحشرجة ، اسرع فى ابتهالاته التى كانت تختلط بانتحابات بوفارى .. وكان يبدو احيانا ان كل شىء يتلاشى فى تلاوة العبارات اللاتينية يرددها الكاهن فيسمع لها رنين كرنين الجرس .. وفجاة سمع وقع اقدام فى حذاء غليظ

تخطو على الإفريز ، يختلط بقرقعة عصا ، وارتفع صوت خشن ينشد : « كثيرا ما يحمل دفء النهار الصبية على اجنحة الحب » .. ونهضت « ايما » كجثة بين يدى محنطها ، وقد تشعث شعرها وتصلبت عيناها .. وجعلت تضحك فى قسوة ويأس ، وقد تخيلت وجه الرجل البائس الدميم ، يقوم فى ظلمة الأبد كشبح مخيف .. وشهقت شهقة اردتها على الفراش . واقترب الجميع منها .. لقد فارقت الحياة ! » .

تأملوا ، يا حضرات القضاة ، هذا المشهد الذى افرغ فيه المؤلف كل فنه ليصور تذكر الأخطاء الماضية ، ووخز الضمير . إنه ليس مقارنة عديمة الجدوى والمغزى الأخلاقى .. ها هو ذا الرجل الضرير الذى يردد فى الطريق تلك الأغنية التى طالما طرقت سمعها وهى عائدة بعد زياراتها الآثمة ، الضرير الذى يتعقبها حتى اللحظة الأخيرة التى تهبط فيها رحمة السماء ، فيتمثل فيه الغضب البشرى يلاحقها فى لحظة الموت الرهيبة . والنيابة تسمى هذا خدشا للآداب العامة ! .. ويمكننى القول بأنه تمجيد للآداب العامة !!

إن المؤلف يسائلنا فى كل صورة من الصور التى رسمها لنا : هل فعلتم فى تربية بناتكم ما يجب أن يعمل ؟ هل الدين الذى علمتموهن هو الدين الذى يسندهن وسط عواصف الحياة ، أو هو حشد من الخرافات الحسية يتركهن بلا سند عندما تعصف العاصفة ؟ هل علمتموهن ان الحياة ليست تحقيقا للأوهام والأخيلة وإنما هى وضع واقعى ينبغى لنا ان نوائم بينه وبين ذواتنا ؟ .. هل قلتم لهن : يا بناتنا المسكينات .. لن تجدن فى الملذات التى تنشدنها سوى السآمة التى

تنتظركن ، وترك البيت ، والتقلقل ، والاضطراب ، والمهانة ، والذل ، وما إليها ؟

تقول النيابة : ولكن هذه المرأة تموت فى اليوم والساعة اللذين تحددهما لنفسها ، وهى تموت لانها تريد ان تموت ، وتقول : اكان يمكنها ان تبقى على قيد الحياة بعد كل هذا الذى حل بها من المصائب والويلات ؟ هناك كتاب اعلام ، يا سيدى النائب ، صوروا نساء عابثات ينعمن فى الثراء ويخالطن ارقى شخصيات المجتمع . افعندما نصور امراة تلقى هذا المصير المحزن الذى لقيته مدام بوفارى ، يقال اننا خدشنا الآداب العامة ؟ وقالت النيابة ايضا : انكم استحدثتم شخصية كاهن مادى . وارد على هذا القول باننا اخذنا هذه الشخصية كما اخذنا شخصية الزوج من واقع الحياة .. ولم ننح منحى كتاب آخرين صوروا شخصية رجل الدين فى مؤلفاتهم تصويرا غير لائق .. انكم تجدون صورا من هذا النوع فى مؤلفات « بلزاك» و « فيكتور هوجو ». ولم نقل إن الكاهن رجل إباحى او جشع وإنما قلنا انه رجل على قدر متواضع من الثقافة يؤدى واجبه ككاهن فى القرية على الوجه العادى المألوف . وفضلا عن هذا وضعنا امام هذه الشخصية شخصية الصيدلى . ذلك الرجل الملحد الذى كثيرا ما كان يختصم الكاهن ويجادله وينهزم دائما فى هذا الجدل ويهزا منه الحاضرون .

* * *

● لستم ، يا حضرات القضاة ، ممن يحكمون على الكتب استنادا إلى بعض السطور ، وإنما انتم ممن يحكمون اولا وقبل

كل شىء على الفكرة والإخراج ، ويسألون انفسهم هذا السؤال الذى بدات واختتم به مرافعتى وهو : هل قراءة مثل هذا الكتاب تدفع القارىء إلى حب الرذيلة او تحفزه إلى التخوف من بشاعتها ؟ الا يدعو هذا العقاب الصارم — الذى جلبه الاندفاع فى طريق الاثم — إلى الاستمساك باهداب الفضيلة ؟ .. ان الأدب الكلاسيكى جميعه كان يسمح لنا برسم صور ومشاهد غير التى رسمناها تماما . كان فى وسعنا انْ نتخذ منه اسوة لنا ، ولكننا لم نفعل وإنما التزمنا قناعة ستحمدوها لنا .

إنى لا أذكركم فقط بأن هذا الكتاب هو اول كتاب يضعه المؤلف ، بل أذكركم بأنه ، حتى إذا كان قد زل فيه زلة ما فهى زلة لا ضير منها على الآداب العامة ولا تستوجب أن يقدم إلى المحاكمة ..

« الحكم »

خصصت المحكمة جانبا من جلسات الأسبوع الماضى لسماع الدعوى العمومية المقامة ضد كل من السيد « ليون لوران بيشا » والسيد « اوجست الكسى بيليه » ، بصفة ان الأول مدير والثانى طابع مجلة «لاريفو دى بارى» .. والسيد « جوستاف فلوبير » من رجال الأدب ، وثلاثتهم متهمون :

الأول : بانه نشر فى عددى مجلته الصادرين فى يومى واحد وخمسة عشر ديسمبر عام ١٨٥٦ حلقات من رواية بعنوان « مدام بوفارى » وعلى الأخص الحلقات التى تضمنتها الصفحات ٧٣ — ٧٧ — ٧٨ — ٢٧٢ — ٢٧٣ فارتكب بهذا النشر جنحة خدش الآداب والعادات العامة والمساس بالدين.

والثانى : بانه طبع واعد للنشر الحلقات المشار إليها .

والثالث : بانه كتب هذه الحلقات وقدمها إلى الأول للنشر وبذلك ساعد الأول وسهل له ارتكاب الجنحة المنصوص عليها فى المادتين ١ و ٨ من القانون الصادر فى ١٧ مايو عام ١٨١٩ والمادتين ٥٩ و ٦٠ من قانون العقوبات ..

(ثم استعرضت المحكمة الحيثيات التى بنت عليها آراءها ، ونقتطف منها الفقرات التالية) .

« .. وحيث ان فقرات الرواية التى تناولها الاتهام بنوع خاص .. إذا نظر إليها مجردة ومنعزلة ، فانها تحتوى فعلا على تعبيرات او صور او لوحات لا يقرها الذوق السليم ومن شانها المساس بالأخلاق الفاضلة » .

« وحيث ان الكتاب المحال إلى هذه المحكمة يستحق من هذه النواحى ان يلام لوما شديدا ، إذ ان مهمة الأدب ينبغى ان تتجه إلى تثقيف ورياضة الذهن ، بإنماء العقل وتنقية الأخلاق ، اكثر من اتجاهها إلى إذكاء الشعور بكراهية الرذيلة عن طريق رسم صور الانحراف التى قد تشاهد فى المجتمع .

« وحيث أن المتهمين وبخاصة « جوستاف فلوبير » دفعوا التهمة الموجهة إليهم بقولهم ان الكتاب المعروض على المحكمة ينطوى على غرض اخلاقى سام، وان المؤلف إنما قصد به اول ما قصد ، بسط الأخطار التى تنجم عن تثقيف النشء ثقافة لا تلائم البيئة التى يتعين عليهم أن يعيشوا فيها ، وانه مضى فى عرض هذه الفكرة فاظهر المراة ـــ التى جعل منها

الشخصية الأولى فى قصته ـ فى ثوب المراة التى تصبو نحو عالم ومجتمع لم تخلق لهما ، فتهمل اولا واجباتها كأم ، ثم واجباتها كزوجة ، وتدخل إلى بيتها الفحشاء ثم الخراب ، وينتهى بها الأمر اخيرا إلى الانتحار ، بعد اجتيازها كافة مراحل الانهيار الخلقى ، حتى أنها لم تتورع عن السرقة !

« وحيث انه لا يجوز ، بحجة تصوير الأخلاق والأوضاع ، الإسراف فى سرد الأفعال والأقوال والحركات التى تصدر عن الشخصيات التى يلتزم الكاتب تصويرها ، وإنه إذا طبق هذا المبدأ على الآثار العقلية والقطع الفنية ، فانه يؤدى إلى واقعية ينتفى بها الجمال والجودة ، فتظهر آثار تسىء إلى النظر وإلى العقل فى وقت واحد ، وتمس بلا انقطاع الآداب والأخلاق العامة .

« وحيث أن هناك حدودا ينبغى للأدب ـــ حتى ما كان منه رخيصا مبتذلا ـــ الا يجاوزها . وحيث أن « جوستاف فلوبير » والمتهمين معه لا يبدو انهم تنبهوا بالقدر الكافى إلى تلك الحدود .. وحيث ان المؤلف الذى وضعه السيد «فلوبير» ينم عن انه استنفد كثيرا من الوقت والجهد من الناحية الأدبية وناحية الدراسة الاخلاقية ، وحيث أن الفقرات التى اشار إليها قرار الإحالة بالغة ما بلغت من العيب ، قليلة بالقياس إلى حجم الكتاب ، وان هذه العبارات سواء بالنسبة للآراء التى تبسطها ، او بالنسبة للأوضاع التى تصفها ، إنما تدخل فى نطاق الأخلاق التى اراد الكاتب ان يحللها .

« وحيث ان السيد «فلوبير» ابدى احترامه للدين والآداب

العامة ، وان كتــابه لم ينح منحى غيره من المؤلفــات التى وضعت « بقصد » إثارة الغرائز الحسية فحسب . وانه اخطأ فقط فى انه تجاهل أحيانا الحدود التى ينبغى لكل كاتب يحترم نفسه أن يلتزمها، وأنه نسى أن الأدب كالفن يجب أن يكون عف التعبير نقى التصوير .. وحيث أنه لهذه الاعتبارات لم يثبت ثبوتا كافيا أن المتهمين الثلاثة قد ارتكبوا الجنحــة المســندة إليهم .

« لهذا ، حكمت المحكمة ببراءتهم من الاتهام الموجه إليهم مع إعفائهم من المصاريف » .

٤٣٧٩

رقم الايداع : ٦ـ – ٨٠. – ١٦٣ – ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفـــون : ٨٢٦٢٨. القـــاهرة



عزيزى القارئ ..

فى الكتاب السابق قرأت الترجمة الكاملة « الأمينة » للجزء الأول من هذه الرواية الخالدة، التى رفعت مؤلفها الروائى الفرنسى الشهير «جوستاف فلوبير» إلى مصاف كبار أدباء العالم، وإن كان قد أصيب من جراء رومانسية بطلة الرواية «ايما بوفارى» بلون من الاكتئاب النفسى دفعه إلى الحضور إلى مصر والتجوال فى أنحائها بصحبة صديقه «ماكسيم دى كامب» لمدة ستة أشهر، تابعت خلالها امبراطورة فرنسا الشهيرة «أوجينى» أنباءهما باهتمام وانبهار، حتى شفى «فلوبير» بتأثير شمس مصر وسمائها الصافية من اكتئابه، وعاد إلى بلاده ليكمل مسيرته الأدبية ويستمتع بالشهرة التى حظى بها نتيجة لنجاح ورواج هذه الرواية الخالدة!

على أن حُسّاده ومنافسيه لم يكفوا عن مهاجمته بتهمة «الواقعية» الصرفة التى التزمها فى تصوير خلجات بطلة القصة ونوازعها، مما اضطر السلطات إلى تقديمه للمحاكمة الجنائية بتهمة انحيازه لمذهب «الفن للفن» ضد مذهب «الفن فى خدمة المجتمع» الذى ينادى به المتزمتون من أعداء «الواقعية» التى تصور الحياة كما هى فى حقيقتها، لا الحياة كما ينبغى أن تكون.



وقد رأيت أن أنشر لك فى ختام هذا الجزء الثانى والأخير من الرواية تفاصيل تلك المحاكمة الشائقة التى جرت أمام محكمة جنح «باريس» خلال الأيام من ٣١ يناير إلى ٧ فبراير عام ١٨٥٧ والتى انتهت بتبرئة مؤلف الرواية وتسجيل «احترامه للآداب العامة والمقاييس الخلقية والدينية» .. وبذلك اسدل الستار على ذلك الاتهام ورُدّ اعتبار المؤلف.

حلمى مراد

١٥٠ قرشًا